محمد قطب

دراسات في النفس الإنسانية



دراسات فى النفس الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟»

«قرآن كريم»

إهـــــداء ٢٠٠٦

محمد قطب

دراسات فى النفس الإنسانية

الناشر



مقدمة

فى كتاب الله دعوة صريحة إلى التأمل فى « النفس الإنسانية » وما تنطوى عليه من أسرار وآيات :

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم .. أفلا تبصرون ؟! » .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم . . »

والكتاب حافل بالآيات التى تصف النفس الإنسانية فى مختلف حالاتها : سوية وشاذة ، صاعدة وهابطة ، خيّرة وشريرة ، مقبلة ومعرضة ، مؤمنة وكافرة ، لاصقة بالطين أو مرفرفة فى عالم النور :

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

« إن النفس لأمارة بالسوء » .

« وخلق الإنسان ضعيفاً » .

« وأُحضرت الأنفس الشح . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

« زين للناس حب الشهوات » . . .

« وإنه لحب الخير لشديد » . .

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه » !

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يئوساً » .

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن

أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى ! إنه لفرح فخور ! »

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

« ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » . .

والذى يتحدث عن النفس الإنسانية فى القرآن هو خالقها العليم بأسرارها وخفاياها :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

« أفلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟

ولقد خطر لى يوماً — وأنا فى مبتدإ دراستى للقرآن وللإسلام — أن للإسلام نظرية معينة فى النفس الإنسانية ، تنبنى عليها كل توجيهاته وتشريعاته ، وطريقة معالجته لهذه النفس ، وطريقة تربيتها وتقويمها ؛ وأن هذه النظرية لا بد أن تكون موجودة فى القرآن . أو فى القرآن وفى أحاديث الرسول ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو التفسير الواقعى للقرآن .

وحين قمت بتأليف كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » كان فى نفسى هذا الخاطر . . ورحت أقارن بين نظرة المدارس الغربية فى علم النفس ونظرة الإسلام ؛ و بين ما ترتب على النظرة الغربية للنفس الإنسانية من شرائع ونظم وفلسفات وأفكار وسلوك ، وما يترتب على النظرة الإسلامية للنفس فى هذه المجالات جميعاً ، واخترت بصفة خاصة مجال العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ومجال الجريمة والعقاب ، والمسألة الجنسية ، والقيم العليا .

وأحسست أن الخطوط العريضة لنظرية إسلامية فى النفس الإنسانية ترتسم بين يدى وأنا أخط سطور الكتاب، وظننت أنى قاب قوسين أو أدنى من استخلاص هذه النظرية ووضعها موضع المقابلة من النظريات الغربية عن النفس . .

ومضت سنوات . . .

ورحت أكتب مجموعة من الخواطر « فى النفس والمجتمع » فيها معالجة لبعض الخطوط فى النظرية الإسلامية ، ولكنها معالجة خفيفة تأخذ سمة الخاطرة أكثر مما تأخذ سمة البحث العلمى الدقيق . .

ومضت سنوات أخرى . . .

وكتبت كتابى فى « منهج التربية الإسلامية » . . واحتجت فى وضع فكرة الكتاب إلى تخطيط صورة للنفس الإنسانية ، إذ كان قد تبين لى أن منهج التربية الذى وضعه الله فى كتابه ، مطابق تماماً للنفس التى خلقها منزّل الكتاب ، وأن أبرز ما فى المنهج هو هذا التطابق الكامل بينه وبين النفس ، بحيث لا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا اشتمل عليها وعمل لها حسابها . فكان طبيعياً أن أوضح صورة النفس الإنسانية كما أراها ، لأبين هذا التطابق بين المنهج المنزل والنفس التى تتلقاه .

وأحسست مرة أخرى وأنا أكتب الكتاب أن الخطوط العريضة للنفس الإنسانية ترتسم بين يدىّ فى ثنايا السطور ، وخاصة فى فصل « خطوط متقابلة فى النفس البشرية » الذى كان فكرة جديدة لم تخطر لى قبل هذا الكتاب . .

ومرة أخرى اشتاقت نفسى إلى استخلاص نظرية شاملة عن النفس الإنسانية !

وهذا الكتاب محاولة فى هذا السبيل !

وهى مجرد محاولة .. أتحمل مسئوليتها وحدى !

فالإسلام ليس مقيداً بمـا أقول .. وما أزعم أن هذه هى « النظرية الإسلامية » . . وإنمـا أقول فقط إنها « نظرية » إسلامية . . اجتهدت فيها بمقدار ما فتح الله على من طاقة المعرفة .. وهو وحده الموفق إلى الصواب .

* * *

والقرآن ليس كتاب نظريات . . نفسية أو علمية أو فـكرية . . ولـكنه يحوى التوجيهات الـكاملة الـكافية لإنشاء هذه النظريات .

إنه كتاب تربية وتوجيه . . وفى سبيل هذا التوجيه يكشف للإنسان عن بعض أسرار نفسه وأسرار الـكون من حوله ، ويدعوه إلى دراسة هذه وتلك ، « ليعرف » و « يتعلم » ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيـح .

وأنا شديد النفور من الذين يقولون إن فى القرآن نظريات طبيعية وكيميائية وطبية وفلـكية وذرية وصاروخية . . ! ويروحون يجرون وراء كل كشف أو اختراع جديد ، يحاولون أن يثبتوا أن القرآن قد أشار إليه أو تنبأ به .

إن القرآن غنى عن كل هذا . . وهو آخذ مكانته فى تربية البشرية وتوجيهها الوجهة الصحيحة بغير هذا التمحل كله . . ولا ينقص من قدره ذرة واحدة ألاّ يكون فيه طب وطبيعة وكيمياء وفلك وذرة وصواريخ !

إنه كتاب تربية وتوجيه . . كتاب ينشىء النفوس على النهـج المستقيم . وهو يؤدى مهمته هذه كاملة دون أن يتعرض لنظريات العلم المختلفة . وإنما كان ما ورد فى ثناياه من « المعلومات » إشارات كونية للإنسان ، ليفتح بصيرته على آيات الله فى الـكون ، فيتصل بالخالق ، ويحبه ويخشاه .

والذى يستحق الالتفات حقاً فى هذا الباب - باب العلم — ليس هو المعلومات الواردة فى القرآن على سبيل الإشارة إلى آيات الله ، وإنما هو منهـج التربية العقلية الذى يوجه العقل إلى استنباط أسرار الـكون والاستفادة بها

فى كل منحى من مناحى الحياة . وهو المنهج الذى وعته الأمة المسلمة الأولى ، فحولت اتجاه البشرية من التأمل النظرى الفارغ الذى لا يؤدى إلى شىء ، ووجهتها إلى المنهج التجريبى الذى نشأت عنه العلوم الحديثة ، والذى استطاعت به أوربا — بعد أن قبسته من احتكاكها بالإسلام والمسلمين ، وبعد أن استمدت ما استمدته من علوم المسلمين — أن تصل إلى فتح مغاليق العلم ، واستخلاص الأسرار والطاقات .

* * *

ولكن الأمر فى « النفس » قد يختلف بعض الشىء . .

ليس فى القرآن « نظرية نفسية » مخططة مبوبة مبلورة ذات فصول وتفصيلات . فليس من شأن القرآن وهو ينشىء النفوس ويربيها أن يضع « نظريات » من هذا القبيل .

ولكن فيه مع ذلك « معلومات » عن النفس الإنسانية كثيرة وشاملة ، أكثر مما فيه عن أى « علم » آخر .

وقد كان هذا طبيعياً فى كتاب مهمته الأولى هى التربية والتوجيه . . كتاب يخاطب « النفس » ويوجهها .

وهذه المعلومات — المنبثة فى ثنايا القرآن — يمكن أن تُستوحَى فى استخلاص نظرية شاملة عن النفس .. تعمل المشاهدة والتجربة فى توضيحها ووضع تفصيلاتها ، كما تعمل فى توضيح بقية الإشارات الكونية فى القرآن .

فالقرآن مثلا يقول « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون» .

ولـكنه لم يقل كيف يختلف النهار والليل ، وكيف تجرى الفلك فى البحر ، وكيف ينزل المـاء من السماء ، وكيف تحيا به الأرض ، وكيف تصرّف الرياح ويسخر السحاب بين السماء والأرض . . وترك للمشاهدة والتجربة أن يتحققا من سر هذه الآيات ، ويعرفا — بقدر ما ييسر الله لهما — حقيقة النواميس التى تعمل بها القدرة الإلهية فى الـكون .

وكذلك وجّه الإنسانَ إلى استجلاء أسرار النفس ، وذكر صفاتها وحالاتها ، ولـكنه ترك للمشاهدة والتجربة أن يتحققا مما وراء ذلك من النظريات والتفصيلات .

لذلك كانت المشاهدة والتجربة عماداً لى فى هذا البحث ، أتفهم عن طريقهما إشارات القرآن .

* * *

ولست من أنصار وضع النفس الإنسانية فى « المعمل » لاستخلاص حقيقتها . .

وقد أشرت فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » إلى رأيى فى المدرسة التجريبية التى تستخلص معلوماتها عن طريق المعمل ، وبينت أنها لا تحصل على أكثر من مزقٍ متفرقة من النفس البشرية ، لا تغنى فى الوصول إلى حقيقتها المتـكاملة .

وعلم النفس التحليلى يدلى بدلوه فى هذا المجال ولاشك . . ولـكنه — وحده — لا يؤدى إلى الحقيقة الشاملة ، لأنه بطبيعة منهجه الذى يفتت ويحلل ، ويهبط من أعلى إلى أسفل ، يفوته كثير من آفاق النفس العليا ، ومن حركتها المتـكاملة التى تتحرك بأجزائها جميعا وارتباطاتها جميعا . .

وربما كان علم النفس التـكاملى أقرب إلى الصواب فى هذا الباب . .

وفى دراستنا لنظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية لن نمتنع من الاستفادة بكل ما نراه صالحا ومؤديا للحقيقة من مناهج البحث .. ولكن مرجعنا الأول والأخير هو القرآن .

وبالإضافة إلى ذلك نأخذ من مجالات المشاهدة فى نطاقها الواسع ، ولا نتقيد بالدراسات النفسية « الرسمية » .. فليس علم النفس وحده هو الذى يتحدث عن النفس ، وليس حديثه هو أصدق حديث . وإنما الفن والأدب ، والاجتماع والتاريخ .. والحياة الواقعية بأكملها .. هى الحديث الصادق عن النفس ، لأنها تتحدث عنها فى بيئتها الطبيعية .. بيئة « الحياة » .. ولا تنشىء لها بيئة مصطنعة كحيوانات المعمل الموضوعة تحت الاختبار ..

* * *

وهدفنا من استخلاص نظرية شاملة عن النفس الإنسانية هو معرفة مكونات هذه النفس — بقدر ما تتيسر لنا المعرفة — لنعرف بعد ذلك كيف تكون فى صحتها ومرضها ، واستوائها وانحرافها .. ونفيد من هذه المعرفة فى معالجة هذه النفس على أساس سليم .

وهذا هو الهدف الذى ينبغى أن يهدف إليه علم النفس فى الحقيقة .

إن المعرفة هدف يُنشَد من أجل ذاته . و « الحقيقة ضالة المؤمن » كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكنها تؤدى دائما إلى غاية وراءها . فقد ركبت فطرة الإنسان بحيث يسعى دائما إلى الاستفادة مما يعرفه ، فيزداد به نماء وقوة وارتقاء نحو الكمال .

وحين نعرف حقيقة النفس الإنسانية — بقدر ما نستطيع — فسوف يساعدنا ذلك على إنشاء نظم وأفكار وسلوك ومشاعر ، تتفق مع هذه الحقيقة

ولا تصادمها ولا تتعارض معها . . وعلى تربية أجيال من الناس بمقتضى الفطرة الصحيحة كما خلقها الله .

فليست النظرية الإسلامية عن النفس الإنسانية نظرية معلقة فى سماء البحث العلمى ، تسكن فى البرج العاجى ولا تفيد فى واقع الأرض . وإنما هى جزء من هذا الواقع ، يؤدى مهمته — بطريقته الخاصة — فى دولاب الحياة الكبير .

وإذا استطعنا — نحن المسلمين — أن نصل إلى شىء من حقيقة النفس الإنسانية ، نقوّم به سيل الانحرافات الغربية فى نظرتها إلى النفس وما ترتب عليها من فساد اجتماعى واقتصادى وخلقى وفكرى وروحى . . فإننا جديرون أن نؤدى خدمة ما إلى البشرية التى ينهكها اليوم ما تعانيه من اختلال .

* * *

والبحث « العلمى » هو رائدى فيما أكتب هنا ، وما كتبت من قبل . .

ولكنى بينت فى كتاب « الإنسان » أن البحث العلمى — بمعناه الصحيح — لم يتعارض قط ولا يمكن أن يتعارض مع المفاهيم الإسلامية فى عالم الواقع أو عالم النظريات .

فليس رجوعى إلى « الدين » انحرافا عن البحث العلمى ، ولا رجوعى إلى البحث العلمى انحرافا عن الدين . فهما فى حسى طريقان متلازمان ، يؤديان إلى الحقيقة بإذن الله .

وإذا وفقنى الله إلى شىء من « الحق » فى هذا الكتاب ، فأنا شاكر لأنعمه ، وهو المتفضل الوهاب . وإلا فبحسبي أن أكون فتحت الطريق للبحث . . والله الموفق لما يريد ؟

محمد قطب

أولاً ... ما الإنسان ؟

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل
في الأرض خليفة »

صدق الله العظيم

ما الإنسان ؟

ما وظيفته ؟

ما دوره فى الحياة ؟

ما طاقاته ؟ وما حدود هذه الطاقات ؟

تلك أسئلة ينبغى أن نعرف جوابها قبل أن نبدأ البحث فى « النفس الإنسانية » ! لتكون هدىً لنا فى هذا البحث ، ولنكون على بينة — قبل أن نبدأ التحليل والتركيب — أننا لا نشطح بعيداً عن الحدود التى يحددها وجود هذا « الإنسان » وطبيعته .

وقد تحاشت الدراسات النفسية الغربية هذه الأسئلة وأمثالها ، بدعوى أنها من مباحث الفلسفة التى لا ينبغى أن يخوض فيها علم النفس . وأن علم النفس مَعْنِيٌّ ببحث « الواقع » النفسى الذى يجده أمامه ، غير ناظر إلى أى هدف آخر خارج عن نطاق هذا البحث .

ولكن ذلك أدى إلى عيبين كبيرين فى تلك الدراسات :

الأول : أنه جعل هذه الدراسات على غير وعى « بالإنسان » المتكامل . الإنسان « الواقعى » الذى يعيش بحقيقته المتكاملة فى دنيا الواقع . فانحرف معظمها إلى دراسة أجزاء متفرقة من الإنسان على أنها هى « الإنسان » . . وأدت تلك الصور الجزئية إلى إعطاء صورة خاطئة ومشوهة عن الإنسان . كما ترتب عليها كذلك انتشار كثير من المفاهيم الخاطئة فى الاقتصاد والاجتماع ، والآداب والفنون . . والتعامل الفردى والجماعى . . الخ .

الثانى : أنه جعل هذه الدراسات لا تميز كثيراً بين الحالات السوية والحالات المنحرفة ، لأنها فقدت المقياس الذى ترجع إليه لمعرفة الاستواء والانحراف . وعاملت كل شىء على أنه هو « الواقع » النفسى الذى تستخلص منه النظريات والتطبيقات . ومن ثم صار الواقع المنحرف الذى يعيشه الناس فى الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين هو المقياس الذى تقاس به النفس الإنسانية ، وتصاغ النظريات على أساسه ، وهو الصورة الطبيعية السوية (normal) التى يتعامل معها « العلماء » !

هذان الخطآن المنهجيان يظللان معظم الأبحاث النفسية فى الغرب ، ويجعلان كثيراً من الحقائق الجزئية التى يتوصل إليها العلماء لا تصل إلى دلالتها الحقيقية التى كان يمكن أن تؤخذ منها لو ارتكزت هذه الأبحاث على القاعدة السليمة للبحث ، وهى « الإنسان » .

يقول ألكسيس كاريل فى كتابه « الإنسان .. ذلك المجهول » ، وهو عالم مثقف أتيحت له — كما يقول فى مقدمة هذا الكتاب — فرص نادرة للبحث والاطلاع فى شتى فنون المعرفة ، من طب وطبيعة وكيمياء ، وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحياة ، والآداب والفنون[1] :

(١) تعريب شفيق أسعد فريد . منشورات مكتبة المعارف ببيروت .

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة . . وعلومُ الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة باللغة الحسابية . وقد أنشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة. إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات. إنها تبحث عن الحقيقة فيما وراء مملكة تمتد من الفكر الشائع إلى المعنويات غير المنطوقة التي تتكون من المعادلات الجبرية والرموز فقط . . بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الأشجار . أو أنهم في قلب دغل سحري ، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها . فهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق التي يستطيعون أن يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات جبرية . فمن الأشياء التي تراها العين في عالم الماديات ، سواء كانت ذرات أم نجوما ، صخورا أم سحبا ، صلبا أم ماء . . أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد والاتساعية . . وهذه المستخلصات — وليست الحقائق العلمية — هي مادة التفكير العلمي . . وملاحظة الأشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأنا ، ونعني بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر ، بيد أن العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغير — أي القوانين الطبيعية — تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء إلا لأنهما علمان معنويان كميان . . . . وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة . . فيما عدا أنفسنا .

« ... ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة — والإنسان بصفة خاصة — لم يصب مثل هذا التقدم . . إنه لا يزال فى المرحلة الوصفية . . فالإنسان كلٌ لا يتجزأ ، وفى غاية التعقيد ، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ، وليست هناك طريقة لفهمه فى مجموعه ، أو فى أجزائه ، فى وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى .

« ولكى نحلل أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة ، وإلى استخدام علوم عديدة ، ومن الطبيعى أن تصل كل هذه العلوم إلى رأى مختلف ، فى غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط . وبعد أن تضاف المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة .. إنها تخفى وراءها بقية عظيمة الأهمية بحيث لا يمكن إهمالها .

. . . . »

« وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهوداً جباراً لكى يعرف نفسه .. ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا .. إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ..

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة .

« . . . . . . فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كافٍ ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية فى الغالب » .

ثم يعود فيشرح أثر هذا الجهل المطبق بحقيقة الإنسان على الحياة البشرية الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والفكرية .. الخ فيقول :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا .

. . . . »

« وهؤلاء النظريون يبنون حضارات بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهوشة للإنسان .

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته..ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . . إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً .. الخ .. الخ .. »

ونكتفى هنا بهذا القدر من المقتطفات من كتاب ألكسيس كاريل ، وإن كان الكتاب كله ذا دلالة عميقة فيما نحن بصدده فى هذا البحث ، ذلك أن هدفنا هنا أن نبين مدى الخطأ والخطورة فى أخذ مزق متفرقة من الإنسان

على أنها هى « الإنسان » . كما نبين ضرورة أخذ الإنسان ككل ، وجعله — فى صورته المتكاملة — مقياساً لكل شىء يتعلق بالإنسان .

وحين ننظر فى اتجاهات علم النفس الغربى ندرك على الفور كيف أدت هذه النظرة الجزئية إلى كثير من الاختلالات فى تصور «الإنسان» ، وكيف ضيّعت فرصة الاستفادة من الحقائق الجزئية التى توصل إليها العلماء ..

فحين أدلى فرويد بنظريته فى « العقل الباطن » وعالم « اللاشعور » كان ذلك كشفاً له قيمته ولا شك فى محاولة تفهم النفس الإنسانية والاهتداء إلى بعض أغوارها التى يكتنفها الظلام .. ولكن النظرة الجزئية — التى تصر فى ذات الوقت على اعتبار أن الجزء الذى تهتدى إليه هو « الإنسان » — هذه النظرة الجزئية أدت بفرويد إلى تصوير خاطىء خطر للنفس الإنسانية ، إذ صوّرها على أساس أن اللاشعور — أو العقل الباطن — هو « الإنسان الحقيقى » .. وأن العقل الواعى هو إنسان مزوَّر لا يمت بسبب إلى الحقيقة ! إنسان مفروض على « الإنسان الحقيقى» من خارج نفسه وخارج كيانه ! إنسان تتمثل فيه الموانع والكوابت التى يفرضها المجتمع أو القوى الخارجية — من دين وأخلاق وتقاليد وقوة وسلطان .. الخ — على الكيان الحقيقى للإنسان !

وكانت هذه هى البذور الخاطئة التى نبتت منها اختلالات شتى فى فهم النفس الإنسانية والحياة البشرية !

فقد أغفل فرويد جملة من الحقائق النفسية «العلمية» كان قمينا أن يدركها ويعمل حسابها لولا هذا الإصرار المعيب على النظرة الجزئية للإنسان :

أغفل أولا أن العقل الواعى جزء من بنية النفس الإنسانية كالعقل الباطن سواء . موجود فى داخل كيانها وليس مفروضاً عليها من الخارج . فلا الدين

والأخلاق والتقاليد ، ولا المجتمع بما يملك من قوة وسلطان ، ولا غيره من العوامل المادية أو المعنوية تملك أن «تنشئ» في النفس شيئاً لم يكن في بنيتها من قبل[1] ! وغاية ما قد تملكه هذه العوامل والقوى أن « تشكل » هذا الشيء الموجود بالفعل ، ولكنها لا تنشئه إنشاء ما لم يكن موجوداً في الفطرة من قبل .

وأغفل ثانياً أن المجتمع والميل إليه والخضوع له كلها حقائق نابعة من داخل النفس وليست مفروضة عليها من خارجها ! فالرغبة في الاجتماع بالآخرين هي التي تنشئ المجتمع ، وهي التي تجعل الإنسان يضحي — أحياناً — ببعض رغباته وملذاته الفردية في سبيل الوجود في مجتمع . وهي رغبة فطرية موجودة في داخل النفس ، ولا تملك قوة في الأرض أن تنشئها إنشاء — بمجرد الضغط — لو لم تكن موجودة بالفعل . ومن ثم فإنه على فرض أن العقل الواعي يتكون من ضغط المجتمع الخارجي — وهو أمر غير مسلم ! — فإنه ينبع في النهاية من جزء فطري في داخل النفس ، هو الرغبة في الاجتماع بالآخرين !

وأغفل ثالثاً أن الموانع — أو حتى الكوابت كما يسميها ! — التي تنشئ القيم العليا ، ليست جزءاً خارجاً عن كيان الإنسان مفروضة عليه من الخارج بالضغط والقهر . فلولا وجود الاستعداد الفطري في النفس لتقبل هذه الموانع من جهة ، وإنشاء القيم العليا على أساسها من جهة أخرى ،

---

(١) أقر فرويد — دون شك — بأن النفس الواعية أي الذات ، والذات العليا ، ego & super ego موجودتان في النفس كجزء منها . ولكنه أصر على أنهما ينشآن من ضغط العوامل الخارجية ! ولم يعترف بشيء موجود في النفس وجودا فطريا إلا الذات السفلى id التي هي القوة المحركة للإنسان — وهي غير واعية ! راجع كتابه : (The Ego & the Id)

لما أدى الضغط الخارجي إلى إنشائها البتة ، مهما اشتد وطغى ، لأنه ليس من طبيعة الضغط ولا فى طاقته أن ينشئ شيئاً لا وجود له من قبل !

ومن هنا أعطى فرويد صورة مزورة للنفس الإنسانية ، خلاصتها أن « الكيان الحقيقى للإنسان » هو الطاقة البهيمية البحتة ، وأن كل تعديل لهذه الطاقة أو تشكيل أو تهذيب ، ليس داخلا فى هذا الكيان « الحقيق ! » وإنما هو مفروض عليه من الخارج من لدن قوى عدوانية لا هم لها إلا تحطيم « الكيان الحقيقى للإنسان » !

ومرة أخرى حين كشف فرويد عمق الدافع الجنسى فى الكيان البشرى ، وتشعب أطرافه وامتدادها ، كان هذا كشفاً حيوياً ولا شك ، قمينا أن يزيدنا علماً بأغوار النفس البشرية ، لولا إصراره على النظرة الجزئية التى تصر على تفسير « الكل الإنسانى » بالجزء الذى تسلط عليه الأنوار .

فلم يكتف بما فعله فى المرحلة السابقة من تفسير الإنسان على أساس حيوانى بحت ، وإقصاء كل عنصر « إنسانى » فى كيانه ، بحجة أنه مفروض عليه من خارج نفسه ، وليس أصيلا فى كيانه الحقيقى ! بل زاد على ذلك أن أعطى هذا الكيان الحيوانى لوناً جنسياً صارخا ، فلم يتركه حتى كالحيوان الحقيقى يأكل بلذة الأكل ، ويشرب بلذة الشرب ، ويجرى بلذة الجرى ، ويصارع بدافع الصراع .. ثم يؤدى نشاطه الجنسى بلذة الجنس .. وإنما جعله يأكل ويشرب ويتحرك ويصارع ، كل ذلك بلذة الجنس .. بالإضافة إلى النشاط الجنسى المتعارف على أنه نشاط جنسى !! فصار الطفل يرضع بلذة جنسية ، ويتبول ويتبرز بلذة جنسية ، ويحس نحو أمه بدافع جنسى .. إلى آخر هذا الخلط الدنس الذى لا يقوم عليه دليل .

ومن ثم ضاع الكشفان الأول والثانى فى غمار هذه اللوثة المنحرفة النابعة من النظرة الجزئية الخاطئة ، وقد كانا جديرين — فى ظل النظرة المتكاملة للإنسان — أن يؤتيا ثمارا أطيب وأصدق مما وصل إليه فرويد بنظرته الجزئية المبتسرة التى تصر على تلويث « الكيان الحقيقى للإنسان » !

وحين راح تلميذاه أدلر ويونج يحاولان تخفيف انحراف أستاذهما وشرهه الجنسى ، بوضع « قاعدة » أخرى للحياة الإنسانية غير قاعدة الجنس ، فقال أدلر إن الدافع الحيوى للفرد هو شعوره بالتفوق فى ناحية معينة إزاء الجماعة ، وقال يونج إن هذا الدافع هو الشعور بالنقص ومحاولة التعويض .. كان كلاهما يضع أصبعه على حقيقة جزئية فى النفس الإنسانية ، قمينة بأن تفيد فى إلقاء بعض الضوء على أغوارها البعيدة ، ولكن كلتا الحقيقتين ضاعت ولم تؤت أكلها ، لأنهما أصرا على تفسير « النفس » كلها بهذه الجزئية الصغيرة التى لا تفسر وحدها شيئاً فى حقيقة الأمر !

وحين راحت المدرسة التجريبية تضع النفس الإنسانية فى المعمل .. كانت تصل ولا شك إلى بعض الحقائق الجزئية النافعة . ولكنها أفسدت هذه الحقائق وأذهبت قيمتها بالإصرار على تفسير النفس كلها بهذه الجزئيات ، فى حين أنها ليست فقط عاجزة عن تفسير الكل الإنسانى المعقد لأنها جزئيات ، بل هى كذلك أبعد الجزئيات جميعاً عن تفسير النفس الإنسانية ، بسبب أن الطريقة التجريبية ذاتها لا تستطيع أن تأخذ من النفس إلا جانبها « الجسدى » الذى تستطيع أن تقيسه بالمقاييس المادية وتدركه بالحواس ، وتقف عاجزة عجزاً تاماً عن الوصول إلى أى شىء فى النفس لا يقع فى دائرة الآلات والحواس ! ومن ثم تقف عاجزة فى الحقيقة عن كل الكيان الأعلى فى نفس الإنسان ! فقد

تستطيع أن تقيس « التعب » أو « النشاط » الجثماني وتأثير الغدد في مشاعر الإنسان وحالته النفسية ، ولكن كيف تقيس إحساس الإنسان بالحق والعدل والجمال ، وكيف تقيس إبداعه الفكرى ونشاطه الروحى الطليق[1] ؟ !

وحين راحت المدرسة السلوكية تفسر الإنسان على أنه مجموعة من العادات ، وردود الفعل الشرطية المنعكسة conditioned reflexes التي تنميها البيئة (أو لا تنميها) ، والتي لا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف المؤثر.. لم تكن في الحقيقة تفسر « الإنسان » بقدر ما كانت تفسر « الحيوان » ، ثم تحيل الإنسان على ما تتصوره من سلوك الحيوان ، فترد السلوك كله إلى أسباب « فسيولوجية » (أى جسدية) ، وترد « التعلم » إلى الأفعال وردود الأفعال ذات الطابع الحسى البحت . . وتضيق « مساحة » الإنسان بذلك إلى درجة مزرية ، فلا فكر ولا إرادة ولا مثل ولا قيم عليا ولا مشاعر رفيعة.. وإنما هي الحيوانية الحسية وفي أضيق نطاق !

وحين راحت المدرسة الميكانيكية تشبّه الحياة كلها — بما فيها الحياة الإنسانية — بالجهاز الآلى ، المحكوم بضرورات الآلة ، والذى تفسر نشاطه كله قوانين الطبيعة والكيمياء . . لم تكن تكتفى بتجريد الإنسان من إنسانيته ، ولا تكتفى حتى برده إلى صورة حيوانية محدودة النطاق . . إنما كانت تهبط به إلى درك أسفل . . هو أن يصبح مجرد آلة تحكمه ضرورات الآلة . . وتنتفى عنه بطبيعة الحال كل إرادة موجِّهة — إنسانية أو حتى حيوانية ! — وتنتفى عنه ، بصورة أبشع ، كل رفرفة طليقة وكل شعور نبيل ! كما تصبح كل تنظيماته الفكرية والروحية والمادية

---

(١) في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » فصل عن التجريبيين أكثر تفصيلا لمن أراد .

والاقتصادية والاجتماعية ، أدنى حتى من تنظيمات الغريزة فى خلية النحل أو بيت النمل ، فقد صارت أجزاء من الآلة الكبرى . . الصماء الخرساء . . المحكومة بالضرورات !

وهكذا جرت معظم مدارس علم النفس الغربية فى هذا الخلط المعيب بسبب نظرتها الجزئية وإصرارها على أن تفسر الكل الإنسانى بالجزء الذى تهتدى إليه ، فلا يقف خطؤها عند إعطاء صورة مشوهة مزورة للإنسان ، بل تضيّع كذلك فرصة الاستفادة من الحقائق الجزئية فى مكانها الصحيح . ويزيد الخطأ حين تُنشأ على أساس هذه النظرة الجزئية نظريات فى الاقتصاد والاجتماع ، والأخلاق والسلوك ، والجريمة والعقاب . . وينتهى الأمر — كما قال ألكسيس كاريل — إلى تدمير الإنسان بسبب جهلنا المطبق بحقيقة الإنسان !

* * *

على أن هناك خطأ ثالثا تقع فيه كل المدارس الغربية — بلا استثناء — هو دراسة النفس الإنسانية والحياة الإنسانية بمعزل عن الله !

وهذا الخطأ له فى حياة الغربيين قصة . . طويلة تبلغ قرونا من الزمان !

فالحياة «الهيلينية» [اليونانية القديمة] التى يقدسها الغرب ، ويستمد منها مفاهيمه منذ عصر النهضة ، كانت حياة وثنية ذات طابع خاص ، يصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة خصام دائم وصراع لا يفتر .. صراع وحشى فى بعض الأحيان . وأسطورة بروميثيوس الشهيرة تصور لونا ذا دلالة معينة من ذلك الصراع :

« فبروميثيوس كائن أسطورى كان الإله زيوس يستخدمه فى خلق

الناس من الماء والطين . وقد أحس بالعطف نحو البشر ، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم . فعاقبه زيوس على ذلك بأن قيده بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث وكّل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد فى أثناء الليل ، ليتجدد عذابه فى النهار . ولكى ينتقم زيوس من وجود النار المقدسة بين أيدى البشر أرسل إليهم « باندورا » — أول كائن أنثى على وجه الأرض — ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشرى ! ! فلما تزوجها إپيميثيوس — أخو پروميثيوس — وتقبل منها هدية « الإله ! » فتح الصندوق فانتثرت الشرور وملأت وجه الأرض ! !

« تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله ! النار المقدسة ، نار « المعرفة » قد استولى عليها البشر سرقة واغتصابا من الآلهة ، ليعرفوا أسرار الكون والحياة ، ويصبحوا آلهة ! والآلهة تنتقم منهم فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتتفرد دونهم بالسلطان ! . . . »[1] .

ولقد دخلت أوربا فى المسيحية فى القرون الوسطى ، فاختفت «الهيلينية» أو « الهيلنستية »[2] مؤقتا تحت قشرة رقيقة من المسيحية ، ما لبثت أن انزاحت فى عصر النهضة ، فعادت أوربا إلى وثنيتها القديمة كاملة ، بنفس الروح التى تشعر بالصراع مع الله (الآلهة) أكثر مما تحس نحوه بالمودة والتطلع والرجاء . .

وزاد الأمر سوءا أن الكنيسة كانت — قبل انصراف الناس عنها فى عصرها الأخير — قد تحولت إلى غول بشع يهدد الناس فى أمنهم وراحتهم

---

(١) من كتاب « منهج الفن الإسلامى » ص ٣١ — ٣٢ .
(٢) اليونانية المتأخرة .

وكيانهم الإنسانى ذاته . . يفرض عليهم العشور المرهقة كما يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين . . وأخيرا — وتلك كانت الطامة — يفرض عليهم معلومات « علمية » مزيفة ، باسم أنها كلمة السماء ! فلما أثبت العلم النظرى والتجريبى فسادها راحت الكنيسة تحرّق العلماء وتعذبهم بتهمة المروق من الدين !

هذه العوامل مجتمعة أوجدت فى الفكر الغربى — وفى اللاوعى كذلك — نفورا من الدين ونفورا من الله — سبحانه — ورغبة محمومة فى البعد عن ذكر الله فى كل مجال يتعلق بشئون « الإنسان » ! !

ومن ثم لا تدرس النفس الإنسانية قط موصولة بالله خالقها ومحركها ، ومودع ما فيها من طاقات !

ويدرس « العلماء » النفس الإنسانية فى مجالات التأثر المختلفة . . وليس من بينها جميعا تأثير الإرادة الإلهية فى حياة الإنسان !

فمرة يدرس الإنسان تحت التأثير الجغرافى والمناخى والبيئى والمادى . .

ومرة يدرس تحت التأثير الاقتصادى . .

ومرة يدرس تحت التأثير الاجتماعى . .

ولكنه لا يدرس مرة واحدة متأثرا بقدر الله الذى يقرر مصير كل شىء ، بما فى ذلك مصير الإنسان ! الإنسان فى مجموعه ، وكل كائن فرد من بنى الإنسان .

وينشأ من ذلك خطأ فاحش ، بل جملة أخطاء . .

فهذه المذاهب والنظريات كلها تغفل من حسابها توجه النفس البشرية توجها فطريا إلى خالقها ، واستمدادها منه مكوّنات حياتها كلها ، وقوانين

حركتها ، ومجالات محركها ، وطاقاتها ، ومدى هذه الطاقات . . كما تهمل تأثير الديانات السماوية فى رسم خطوط جوهرية وحاسمة فى تاريخ البشر كله . وفوق ذلك تهمل حقيقة « كونية » هى تأثر الإنسان بقدر الله « المباشر » الذى يسيّر أحداث حياته ويشكلها ، كما تغفل أن التأثير الجغرافى والمادى والاقتصادى والاجتماعى . . إلخ ، هى كلها إطار لقدر الله ، وليست شيئا مستقلا عن إرادة الله !

وهذا الإغفال المتعمد — الذى شرحنا فى إيجاز أسبابه التاريخية — يحدث تشويها وتشويشا فى الصورة المرسومة « للإنسان » . فتارة يرسم كأنه يقوم فى هذا الكون وحده ، وكأنه هو الإله فى هذا الكون ! [وليس هذا حقيقة علمية ، فهو إنما يقوم بالاستمداد من خالقه فى كل شأن من شئونه ، وفى الحدود التى رسمها له خالقه] وتارة يرسم عبدا لتلك الآلهة المزعومة : آلهة الاقتصاد والاجتماع والمادة [وفى ذلك إصغار لقيمته الحقيقية] وتارة يرسم كأنما المحرك له هو الأفعال المنعكسة . أو الجنس . أو الكيماويات . أو الميكانيكية الجسمية . . وحدها . . [وفى ذلك تشويه لحقيقة الكيان الداخلى للإنسان] ، وفى جميع الحالات تنعكس تلك المفاهيم المنحرفة على الصورة المرسومة ، ولا يكون الإنسان الذى ترسمه هو حقيقة « الإنسان » !

* * *

ولقد ظنت تلك المدارس الغربية أنها تستطيع أن تتجنب مجموعة الأسئلة التى صدّرنا بها هذا الفصل — أو أمثالها : ما الإنسان ؟ ما وظيفته ؟ ما دوره فى الحياة ؟ ما طاقاته ؟ ما حدود هذه الطاقات ؟

أو ظنت أنها ينبغى أن تتجنب هذه الأسئلة تجنبا ، لكى لا « تتقيد » بشىء يقيد الوصول إلى النتيجة !

فكانت النتيجة الأخيرة — كما قال كاريل — هى الجهل المطبق بحقيقة الإنسان ، وإنشاء نظم وحضارات ونظريات « علمية » من شأنها تدمير الإنسان ! !

* * *

إن الدراسة الشاملة « للإنسان » لهى ضرورة أولية تسبق كل بحث تفصيلى فى « النفس الإنسانية » . . ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة الشاملة لن تعوق الدراسة التفصيلية ولن تفسد حريتها فى الاستقصاء والبحث ؛ بل إنها فى الواقع ستنير لها الطريق ، كما تنير الدراسة الشاملة لجسم الإنسان — مثلا — طريق البحث لمن يريد أن يتعمق فى دراسة القلب أو غيره من الأعضاء .

وسنجد — فى أثناء الدراسة التى يقوم بها هذا الكتاب — أن المعرفة الأولية بالإنسان ، ووظيفته ، ودوره فى الحياة ، وحدود طاقاته ، ليست من صميم الدراسة النفسية فحسب ، بل إنها كذلك هى الضمان الوحيد لعدم الوقوع فى العيوب المنهجية التى وقعت فيها أبحاث الغرب . ففيها الوقاية من تجزئة الإنسان إلى مزق متفرقة تخالف الواقع المتكامل للإنسان الحقيقى الذى يعيش فى الأرض . وفيها الضمان أن تؤدى الجزئيات دلالتها الحقيقية الصادقة حين توضع فى مكانها الصحيح من الكيان المتكامل ، فيبدو تناسق الجزئيات كما هو فى حقيقته ، وينتفى ما قد يبدو فيها من تعارض — فى الوقت الحاضر — حين تدرس كل جزئية على حدتها ، دون مراعاة للروابط التى يرتبط بها الكيان الموحد الأجزاء ، وفيها الضمان للتمييز بين السوى والمنحرف

من أنماط النفوس . كما أن فيها الضمان كذلك لتصور الصورة الحقيقية لمكان الإنسان فى الكون ومكانته فى الحياة .

* * *

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ! لا علم لنا إلا ماعلمتنا ! إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدًى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[1].

هذه قصة « الإنسان » كما وردت فى القرآن ..

وفى غير هذا المجال[2] تحدثنا عن الإيحاءات الفنية والتربوية لهذه

(١) سورة البقرة [٣٠ — ٣٥]

(٢) فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » وكتاب « منهج الفن الإسلامى » .

القصة التى يرويها خالق الإنسان العليم وحده بما خلق : « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم[1] » القادر وحده على أن يحدثنا بأمر الغيب الذى لم يشهده أحد من بنى الإنسان .

ولكننا هنا فى مجال الدراسة النفسية نجتزئ منها بدلالاتها فى شأن الأسئلة التى قدمنا بها لهذا الفصل : ما الإنسان ؟ ما وظيفته ؟ مادوره فى الحياة ؟ ما طاقاته وما حدود هذه الطاقات ؟

وفى هذه الآيات — على إيجازها — الإجابة الكاملة عن هذه الأسئلة التى ينبغى أن نحدد جوابها قبل الدخول فى تفصيلات « النفس الإنسانية » ومكوناتها المختلفة .

ما الإنسان ؟ إنه خليفة الله فى الأرض : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .
وكلمة الخلافة كلمة ضخمة ذات إيحاءات .

فأول إيحاءاتها أن هذا الكائن الإنسانى كائن عظيم القدر ذو أهمية بارزة فى الحياة .

فهو خليفة . . الله !

خليفة الخالق المبدع المسيطر على كل قوى الكون .

ولا بد للخليفة أن يكون مزوداً بأدوات الخلافة . وإلا فلا معنى لخلافته ولا قيمة .

ولا بد كذلك أن يكون فيه قبس من منحه الخلافة . وإلا فما هو مستحق أن يكون له خليفة .

---

(١) سورة الكهف [٥٠]

ولا بد أن يكون دوره فى الحياة أكبر وأخطر من دور غيره من الكائنات . وإلا فلا معنى لإفراده وحده بالخلافة دون بقية الكائنات .

ورغم أننا هنا نلتزم الدراسة النفسية البحتة ، إلا أننا لا نملك الإفلات من التأثير « الفنى » للنص القرآنى . فهذه الإيحاءات كلها الكامنة فى كلمة الخلافة يبرزها النص إبرازاً ليعطيها مدلولها الكامل الصريح .

فهذا المخلوق تحتفل به السماوات والأرض . ويتولى الله سبحانه بنفسه إعلان مقدمه على الملأ الأعلى ، والملائكة يفزعون للنبأ ويهتزون . ويراجعون ربهم ، ويطلبون مزيداً من المعرفة عن حكمة خلق الإنسان واستخلافه ، وهم الذين لا يراجعونه فى أمر قط : « لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون »[1] ثم يسجد الملائكة لمعجزة خلق الإنسان ، زيادة فى إبراز أهميته ، وتوكيداً لتفرد هذه المعجزة بين المعجزات .

كل ذلك يعطى إيحاء بتفرد الإنسان .

ثم تبين الآيات — هنا وفى أماكن أخرى من القرآن — أن دور هذا الإنسان فى الأرض هو عمارتها . فالخلافة عن الله فيها معناها الإنشاء والابتكار والتعمير والتبديل والتغيير . وكلها من عمل الله ، الذى أعطى قبسة منه للخليفة الذى استخلفه فيها ، وزوده كذلك بالإمكانيات .

والإمكانية الكبرى هى المعرفة . . هى العلم . . « وعلم آدم . . . »

وهى إحدى المزايا التى يتفرد بها الإنسان . يتفرد بها حتى على الملائكة . فهو يقوم بدور فى المعرفة والعلم يعجز عنه الملائكة ، ويكون بمثابة « شهادة

---

(١) سورة التحريم [٦] .

الاستحقاق » التى يمنحها الله للإنسان . فيقرّ بها الملائكة ويسجدون لله المبدع القدير .

ولكن الطاقات الضخمة الممنوحة للإنسان . . ومن أبرزها طاقة المعرفة التى يسخر الله له بها السماوات والأرض : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه[1] » . . لا تمنعه من نقطة ضعف أصيلة فى كيانه هى حبه للشهوات : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين و القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا[2] » . إن « الشجرة » التى نُهى عنها أصبحت شهوة بالنسبة إليه . ولا يعنينا هنا — بصدد الدراسة النفسية — أن ندخل فى أى تفصيل عن هذه الشجرة : ما هى ؟ وما المقصود بها ؟ وأين مكانها . . الخ . إنما يعنينا فقط أنها كانت تجربة لإرادته الضابطة — وهى من بين الطاقات الممنوحة له — هل تستطيع أن تمتنع على « الشهوة » أم لا تستطيع . وفى هذه التجربة تبدو نقطة الضعف فى كيان هذا الإنسان المتفرد ! فهو لا يصمد فى كل حالة ، ولا تقوى إرادته الضابطة على المقاومة : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما[3] » .

ولكنه ليس ضعفا أبديا . ولا هى زلة لا قيام منها .

فهو يملك دائماً أن يفيق من زلته . بأن يرفع وجهه إلى خالقه: « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

وتلك قيمة رئيسية من قيم حياته . فهو عرضة للضعف أمام الشهوات .

---

(١) سورة الجاثية [١٣]   (٢) سورة آل عمران [١٤]
(٣) سورة طه [١١٥]

ولكنه كذلك مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا الضعف بالتوجه إلى الله. وفى صميم فطرته أن يفعل هذه وتلك : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها[1] » .

ثم هو مزود بالقدرة على الصراع : « قلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ».

وما دام هناك عداء ، فهناك ولا شك صراع وقدرة على الصراع .

والعداء مع الشيطان . مع قوى الشر المتمثلة فى شتى الصور والأشكال . ولكن الذى يعنينا هنا — مؤقتاً — ونحن نستعرض طاقات الإنسان، أن نثبت له هذه القدرة على الصراع . وأنها قيمة كذلك أساسية من قيم حياته ، ضرورية له فى أداء دوره على الأرض : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين[2] » .

ثم إن له فى الأرض قسطاً من الاستقرار والمتاع : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

فالاستقرار المؤقت والمتاع قيمتان رئيسيتان فى حياة الإنسان . مزود بهما كيانه ، كما هو مزود من الجانب الآخر بالقدرة على الصراع .

وفى النهاية فإنه يقوم بدوره فى الخلافة عن الله فى الأرض مزوداً من الله الذى أخلفه ، بدستور من الهدى الربانى : « فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى فطرته أن يستطيع التوجه إلى الله ، والاستمداد من هداه . كما أن فى فطرته أن يستطيع الابتعاد عن الله والكفر بآياته : « والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ».

* * *

(١) سورة الشمس [٧ — ١٠]　　(٢) سورة البقرة [٢٥١]

تلك هى الخطوط العريضة « للإنسان » .

فالآن نستطيع أن نأخذ فكرة عامة عن هذا المخلوق :

إنه مخلوق متفرد . فكل تفسير له يلحقه بغيره من الكائنات تفسير باطل من أساسه . سواء فى ذلك من يفسره بالتفسير الحيوانى أو التفسير الميكانيكى . أو يفسره بالتفسير الملائكى أو النورانى . أو غيرهما من التفاسير .

وهو مخلوق خطير الشأن فى دورة الحياة. أولى آيات خطره أن الله بنفسه سبحانه هو الذى يعلن نبأ مولده . ومن آيات هذا الخطر أن تسجد لخلقه الملائكة . وأن يسخر الله له السماوات والأرض جميعا . وأن يجعل الله إرادته العليا سبحانه مقضية عن طريق إرادة الإنسان ووجوده وأفعاله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[1] » . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض[2] » . « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس[3] » .

وهو مخلوق مزود بطاقات . من أبرزها طاقة المعرفة . وطاقة الإرادة الضابطة . وطاقة القوة الفاعلة المتضمّنة فى معنى الخلافة ومقتضياتها . وطاقة الصراع . والقدرة على التوجه إلى الله وتلقى كلماته وتتبع هداه . . والقدرة كذلك على الاستقرار والمتاع .

وهو مخلوق مشتمل على نقطة ضعف . هى حب الشهوات . ونسيان العهد ونسيان الهدى والكفر بآيات الله .

---

(١) سورة الرعد [١١]
(٢) سورة البقرة [٢٥١] .
(٣) سورة الروم [٤١]

وهو مخلوق ذو طبيعة مزدوجة . فيه القدرة على الارتفاع إلى أقصى المدى ، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض .

* * *

من هذه الفكرة العامة نستطيع أن نبدأ فى دراسة الإنسان ..

ولكننا قبل أن نبدأ بالدراسة يحسن أن نلم ببعض ما يقوله « العلم » فى باب تفرد الإنسان ، لأنه ذو دلالة واضحة فيما نحن بصدده من هذا البحث .

يقول چوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث «Man in the Modern World» فى فصل بعنوان « تفرد الإنسان » :

« لقد تأرجح رأى الإنسان كالخطّار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه . تفصل بينه وبين الحيوانات حيناً هوة سحيقة جداً ، وحيناً آخر هوة صغيرة جداً . .

« وبظهور نظرية دارون بدأ الخطّار يتأرجح عكسياً ، واعتبر الإنسان حيواناً مرة أخرى ، ولكن على ضوء العلم لا على الإحساس الساذج . وفى بادئ الأمر لم تتبين تماماً نتائج هذا الرأى الجديد .. إلا أن الخطّار وصل شيئاً فشيئاً إلى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض دارون . فالإنسان (أى فى رأى دارون) حيوان كغيره . ولذلك فإن آراءه فى معنى الحياة الإنسانية ، والمثل العليا الإنسانية ، لا تستحق بالنسبة لباقى الكائنات تقديراً أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتيريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى . ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية . ومن المسلم به أن

الإنسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات . ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر ..

« ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان نتيجة المبالغة فى إعطاء الحيوان صفات إنسانية ،وإنما نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية فى الإنسان . ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه فى الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمى .

« إن الخطار يتأرجح ثانية ، وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى . وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً . وفى حالات كثيرة لا مثيل له . ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام .

« وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً ، قدرته على التفكير التصورى ، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية ، فقل: استخدامه الكلام الواضح ..

«ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ..

« ومن أهم نتائج تزايد التقاليد — أو إذا شئت — من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ..

« وإن التقاليد والعُدد لهى الخواص التى هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية . وهذه السيادة البيولوجية فى الوقت الحاضر خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .. ولم يتكاثر الإنسان فحسب ، بل تطور ، ومد نفوذه ، وزاد من تنوع سبله فى الحياة .

« وهكذا يضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان . ومع ذلك هناك فروق ، وفروق هامة بعض الشيء ، بالنسبة لنظريتنا العامة . فمن وجهة النظر البيولوچية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس ، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوچية فى معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية . ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة فى تفاصيلها أو فى كثير مما تضمنته . ولكن كان لها أساس چيولوچى متين[1] .

« ولقد أدى الكلام والتقاليد والعُدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى ، التى لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى . ومعظمها واضح معروف . ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهى من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيراً ، لأن الجنس البشرى – كنوع – فريد فى صفاته البيولوچية الخالصة . ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق ، سواء من وجهة نظر علم الحيوان ، أو من وجهة نظر علم الاجتماع .

« . . . . . . وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره .

« . . . وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حى مسيطر هى التفكير المعنوى .

(١) چوليان هكسلى عالم ملحد ، لا يقر بوجود الله ! وهو يرى الحق أمامه ويكاد يسلم به ، ولكن تأخذه العزة بالإثم فيحاول النكوص عما يفرضه الحق الواضح المبين . ولكن يكفى على أى حال أن يقر بأن وجهة النظر الدينية لها أساس چيولوچى متين ! فما ينتظر من رجل ملحد أن يذهب إلى أبعد من هذا المدى فى الاعتراف بحقائق الدين !

« . . . يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان فى العقل أعظم بكثير مما يظن عادة .

« . . . ولهذه الزيادة فى المرونة نتائج أخرى — سيكاوچية — يتناساها رجال الفلسفة العقلية . والإنسان فريد أيضاً فى بعضها . وقد أدت هذه المرونة مثلا إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى لابد أن يتعرض للصراع النفسى .

« . . . وفى الحقيقة أن منع النزاع بين طرق العمل المتعارضة لظاهرة عامة جداً ، وذات منفعة بيولوچية ، وهى ليست إلا خاصية العقل البشرى الذى مكن الإنسان من التخلص من هذا النزاع .

« . . . وعندما نصل إلى المستوى الإنسانى نجد تعقيدات جديدة ، لأن من خصائص الإنسان كما رأينا التغلب على شدة الغريزة . . .

« . . . وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان — والتى يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوچية — تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

الثانية : التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« . . . ولكن لا يكفى هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط . ففى الحقيقة إن معظم أوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . ولذلك فهى مثلها فذة من الناحية البيولوجية .

« ثم إن التخاطب والألعاب المنظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم ، كلها نتائج ثانوية (لخصائصه الأصلية) والصعوبة فى الواقع هى إيجاد نشاط للإنسان لا يكون فريداً . بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسى زينها الإنسان بكل المحسنات الفريدة .

« وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد . . . . وبذلك قد يكون الإنسان فريداً فى أحواله أكثر مما نظن الآن »[1] .

* * *

تلك كلمة « العلم » من فم رجل ملحد لا يؤمن بالله !

ويتضح فيها الإقرار العجيب بالحقائق التى يذكرها كتاب الله . فالعلم — يوما من بعد يوم — يكشف عن معانٍ جديدة لتفرد الإنسان . وهى الحقيقة الكبرى التى قررها الدين عن الإنسان .

وقد أوردنا هذه المقتطفات الطويلة بعض الشىء لمعنى معين فى منهج البحث نريد توضيحه .

---

(١) ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر . مقتطفات متفرقة من ص ١ — ص ٣٦ .

إن « الحقيقة » هى كلمة الله .. والإقرار بها لا يمنع أن يأخذ البحث العلمى مجراه . بل إن البحث العلمى للكشف عن الحقيقة لهو الاستجابة لأمر الله للناس أن يفتشوا عن الآيات فى كل شىء : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم . . أفلا تبصرون ؟ »[1] . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم »[2] . . وفى النهاية تلتقى حقيقة الدين الكلية بحقائق العلم التفصيلية ويستقيم بذلك منهج الحياة .

* * *

والآن وقد عرفنا فكرة عامة عن « الإنسان » نستطيع أن نمضى فى البحث التفصيلى مطمئنين أننا لن نضل الطريق فى غمار الجزئيات والتفصيلات .

إن هذه الفكرة العامة لن تقيد حرية الباحث فى البحث . ولن تلزمه بسلوك خط معين . ولكنها ستذكره فقط فى كل خطوة بالمنهج الأصيل فلا يضل عن الطريق .

فحين يتذكر مثلا أن الإنسان كائن متفرد ، فلن يخطىء بتفسيره بيولوجيا أو سيكلوجيا بالتفسير الحيوانى كما جنحت الداروينية القديمة[3] وجنح من

---

(١) سورة الذاريات [٢٠ — ٢١]

(٢) سورة فصلت [٥٣] .

(٣) تمييزا لها من الداروينية الحديثة Neo Darwinism التى تبرز مابين الحيوان والإنسان من خلاف ، والتى من علمائها جوليان هكسلى الذى اقتطفنا منه المقتطفات فى هذا الفصل .

ورائها فرويد ، ولن تعمى عينه عن مظاهر التفرد الواضحة فى تركيب الإنسان البيولوجى والنفسى ليعتسف تفسيرا معيناً على هواه .

وحين يتذكر سعة الأفق الإنسانى وتعدد طاقاته وجوانبه فلن يخطىء بتفسيره بعامل واحد مفرد ، كما فسره فرويد بالجنس ، وأدلر بالتفوق ، ويونج بمركب النقص ، والتجريبيون بالنشاط الجثمانى ، والشيوعيون بحتمية المادة أو حتمية الاقتصاد . . . إلخ . فالإنسان أوسع من كل واحد من هذه العوامل المفردة ، لأنه يشملها جميعاً ، ويشملها متشابكة متداخلة بحيث يستحيل فك بعضها من بعض إلا فى نظريات الخيال !

طبيعة مزدوجة

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين،
فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين».
« صدق الله العظيم »

أبرز ما فى الكيان البشرى أنه كيان مزدوج الطبيعة .

وهو بهذا الازدواج كائن متفرد فى كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون ، التى تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة .

فالحيوان من جانب والملَك من جانب — وهما المخلوقان اللذان تجمعهما بالإنسان صلات — كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة .

الحيوان — حتى أعلى درجاته التى تشابه الإنسان فى تركيبه الجثمانى — مخلوق ذو طبيعة واحدة ، تتحدد بحدود الجسد والغرائز والتصرفات الغريزية . جسمه هو مصدر طاقته . وغرائزه هى الموجّه له . وتصرفاته الغريزية هى عالمه بأكمله .

يأكل ويشرب ويؤدى عملية الجنس بدافع جسدى بحت ، لا إدراك فيه لهدف ، ولا تصرف فيه فى وسيلة .

يأكل حين يدفعه الجوع . ويمسك حين تقرر له الغريزة حد الاكتفاء . وينشط نشاطه الجنسى فى موسم معين محدد ، لا يختار هو وقته ، ولا يحدد

هدفه ولا يدركه ، ولا يختار فيه سلوكا معيناً غير ما توحيه له غريزته . ثم يكف عن هذا النشاط جملة فى موعد كذلك محدد . لا يختاره هو ولا يدرك سره ، ولا يملك كذلك مخالفته .

وكذلك كل « تصرف » من تصرفاته . ليس تصرفاً ذاتيا نابعاً من إدراك أو إرادة . وإنما هو تلبية مباشرة لدفعة لا يملك الحيوان مقاومتها ، ولا يفكر فى مقاومتها كذلك . فهو بطبيعة تكوينه مستسلم لكل ما تمليه الغريزة عليه .

إنه مخلوق ذو طبيعة واحدة ، تعمل فى اتجاه الجسم .

والمَلَك — من وصفه الذى نعرفه به وإن كنا لا نراه — مخلوق ذو طبيعة واحدة كذلك وذو اتجاه واحد . مخلوق يعيش فى نطاق روحه ويطيع توجيهاتها بلا إرادة ذاتية ولا تصرف ذاتى . فالملائكة مخلوقات مفطورة على الطاعة المطلقة : « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون »[1] . وهى وإن لم يكن لها غرائز جسمية لأنها غير ذات أجسام مادية ، فإن لها «غرائز روحية» تعمل بوحيها فى كل أمر دون تفكير أو تصرف أو اختيار .

أى أنها ذات طبيعة واحدة تعمل فى اتجاه الروح .

والإنسان وحده — فيما نعلم من الكائنات — هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من اتجاه .

وهذا الازدواج هو طابع كيانه كله . وهو متغلغل فى كل أعماقه . فلا يوجد عمل ولا شعور ولا فكر ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذة

(١) سورة التحريم [٦] .

المتميزة . وسنستعرض فى الفصول التالية كثيراً من مظاهر هذا الازدواج وأثرها فى حياة الإنسان وتصرفاته . ولكننا نبدأ هنا بأول مظاهره وأوضحها ، وهو حقيقة الجسم والروح ، التى قد تكون هى الأصل الذى ينشأ عنه كل ما فى طبيعته من ازدواج .

* * *

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[1] .

الإنسان قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله .

قبضة من طين الأرض تتمثل فى حقيقة الجسد : عضلاته ووشائجه وأعضائه وأحشائه .

والعلم يقول إن جسم الإنسان مكون من ذات العناصر التى يتكون منها طين الأرض : الأكسجين والإيدروجين والكربون والحديد والنحاس والكلسيوم والزرنيخ والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم .. الخ .. الخ .

وتتمثل كذلك فى مطالب الجسد وألوان نشاطه . فالعلم يقول إن الجوع والعطش أمران يرجعان إلى التركيب البيولوچى للجسم . وكذلك النشاط الجنسى وأنواع النشاط الجسمى الأخرى التى يشترك فيها الإنسان مع الحيوان من حيث الدافع ، وإن لم يتماثلا فى الصورة التى يتخذها النشاط ، ولا الغاية التى يصل إليها .

(١) سورة ص [٧١ — ٧٢]

و « الشهوات » كلها ، أو الدوافع الفطرية ، أو القوة الحيوية للإنسان ، هى نشاط جثمانى ، أو نشاط قائم على قاعدة جسمية ، بحيث تتعطل أو تزول لو أزيل العضو الذى يقوم بها أو الغدة التى تبعث نشاطها .

ونفخة من روح الله تتمثل فى الجانب الروحى للإنسان . تتمثل فى الوعى والإدراك والإرادة . تتمثل فى كل « القيم » والمعنويات التى يمارسها الإنسان .

فالخير والبر والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمثل العليا والعمل على تحقيقها فى واقع الحياة . . كل ذلك نشاط روحى ، أو نشاط قائم على قاعدة روحية . وهو — مثلها — أمر معنوى لا تدركه الحواس ولكن تدرك آثاره الظاهرة فى الواقع المحسوس .

وهذان اللونان من النشاط البشرى حقيقة واضحة مشهودة .

والحقيقة الجسدية لا تحتاج إلى توكيد . فهى ظاهرة أمامنا نراها ونلمسها ، ولا نتعب فى تحديد حدودها وقياس أبعادها وطاقاتها . وإن كانت العلوم التى تبحث فيها تقر بعجزها الكامل عن استكناه كنهها الحقيقى ، وتكتفى بوصف مظاهرها ورسم أبعادها .

وإلا فأى سر يمنح الخلية الحياة بادئ ذى بدء ، فتتحول من مادة ميتة إلى خلية حية ؟

وأى سر يجعل تلك الحياة الممنوحة للخلية تتخذ نشاطاً معيناً منظما منسقاً مضبوطاً ؟

وأى سر يجعل مجموعة من الخلايا الحية تتخصص لتكون الأنف ، أو الفم ، أو العين ، أو القلب ، أو المخ أو الذراع أو الساق . . إلخ . وهى كلها فى الأصل متشابهة ومتماثلة ؟

وأى سر يجعل تلك المجموعة التى كونت الأنف أو الفم أو العين .. تأخذ شكلا معينا ذا شبه معين قريب أو بعيد من الآباء والجدود ؟

وأى سر يجعل العين — تلك المجموعة من الخلايا — ترى ، والأنف يشم والأذن تسمع والجلد يحس والعقل يفكر ؟

ومئات من الأسرار وألوف . . كلها مغلف بستار الغيب لا يصل « العلم » منها لغير المظاهر والسطوح !

أما الحقيقة الروحية فهى خفية . نعم . ولكن أى شىء فى الإنسان ليس بالخفى ؟ إنها مجهولة الكنه ، ولكن . . أيزيد جهلنا بها عن جهلنا بسر الحياة فى الخلية الحية ، وسر النمو ، وسر التخصص ، وسر التشكل ، وسر قيام الأعضاء بوظائفها المعقدة الشديدة التعقيد ؟

نعم إنها غير ظاهرة ، لا نستطيع تحديد حدودها ولا قياس أبعادها . ولكنا نرى آثارها وندركها . نراها متمثلة أحياناً فى وقائع ملموسة وأحياناً فى رغبات وأشواق . ومن ثم لا نستطيع أن نلغى من حسابنا وجود كيان معنوى للإنسان ، نسميه « الروح » اصطلاحا ، أو نسميه بأى اسم آخر . ولكنا نلتقى عند مفهوم معين واضح الحدود والسمات .

إن كل معنى من المعانى التى تعبر عن القيم العليا . . عن الحق والخير والجمال والحرية والإخاء والحب . . إلخ لهى دليل على هذا الكيان المعنوى للإنسان.وليس من الضرورى أن يمارس الناس كلهم هذه المعانى فى كل وقت . فيكفى أن يمارسها بعضهم فى أية لحظة لتكون واقعاً بشرياً موجوداً فى عالم الحقيقة . بل يكفى أن توجد فى اللغة البشرية (واللغة ذاتها من المعنويات التى اختص بها الإنسان) لكى يثبت ذلك وجودها الواقعى . فحين توجد فى اللغة

البشرية كلمة « الحب » أو « العدل » أو « الجمال » فيستوى أن تكون هذه القيم وقائع محسوسة أو حلما يشتاق البشر إلى تحقيقه . . يستوى هذا وذاك فى إثبات النشاط المعنوى للإنسان . . فالرغبة فى هذه القيم هى ذاتها نشاط معنوى واقعى ، سواء تحققت فى عالم الحس أو لم تتحقق . كما أن الرغبة فى الطعام مثلا دليل على وجود نشاط معين داخل الجسم ، سواء أدت إلى تناول الطعام فعلا أم لم تؤد إليه .

غير أننا نقرر أن هذه المعانى لم توجد فى قاموس البشرية إلا لأنها وجدت بالفعل — على درجة ما — فى واقع البشرية . فلو لم يوجد شخص يتعاون مع شخص آخر فى سبيل هدف مشترك لما وجدت كلمة « التعاون » ومشتقاتها فى اللغة . ولو لم يوجد شخص صادق أو عادل أو رحيم . . ما وجد فى القاموس البشرى ما يدل على هذه الصفات . والأفراد يتفاوتون بطبيعة الحال فى مدى وجود هذه الصفات فى كيانهم ، ولكن لا يوجد فى الحالة السوية شخص لا رصيد له منها البتة بحيث يعجز عن فهم مدلولها اللغوى .

وإذا كان للطاقات الجسمية مقاييس محدودة تقاس بها ، قوة وضعفا ، فللروح كذلك — أو الطاقة المعنوية — مقاييس تقاس بها ، ولكنها — مثلها — مقاييس معنوية . فهناك فى أذهاننا صورة للعدل والرحمة والبر والتعاون . . إلخ . تكونت بصورة ما . وبمقتضى هذه الصورة نقيس أعمال الناس و نعطيها درجة من القوة أو الضعف .

والذى يهمنا على أى حال فى هذا التمهيد أن نقرر وجود هذين اللونين من النشاط فى كيان الإنسان ، كمظهر من مظاهر الازدواج فى طبيعته ، وأن هذا الازدواج خصيصة تفرد بها الإنسان .

ولكن مجرد وجود هذا الازدواج لا يعطى صورة صحيحة عن الكيان البشرى المتفرد بين جميع المخلوقات . فهناك مظهر آخر لهذا الكيان ، تنبنى عليه فى الحقيقة كل حياة الإنسان .

إن هذا الكيان — مع ازدواجه — ليس مكوناً من عنصرين منفصلين ، يعمل كل منهما وحده فى اتجاه .

إنه ليس جسما وروحا منفصلين .

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ... »

إن هذه النفخة العلوية التى أعطت الإنسان روحه — وهى قبسة من روح الله — لم تظل عنصراً منفصلا عن الكيان المسوى من الطين ، ولم تتحيز فى حيز معين منه . وإنما سرت « فيه » . فيه كله من أوله إلى آخره ، وشملت كل كيانه ، فأصبح كياناً جسمياً روحياً فى ذات الوقت . لا ينفصل فيه عنصر عن عنصر ، ولا يستقل فيه كيان عن كيان .

إنه لم يعد طيناً بحتاً . . ولا يمكن أن يعود كذلك .

ولا هو أيضاً روح بحت . . ولا يمكن أن يكون .

فالعنصران مختلطان ممتزجان مترابطان . . يتكون منهما كيان موحد مختلط الصفات ، أو مزدوج الصفات .

وتلك حقيقة كبرى فى الكيان البشرى ، تنبنى عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته فى الحياة .

وقد انبنى عليها — بادئ ذى بدء — أن الإنسان — فى حالته السوية — يؤدى نشاطه الجثمانى على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان . ويؤدى نشاطه الروحانى على طريقة الإنسان كذلك لا على طريقة الملائكة .

أى أنه يؤدى كلا نشاطيه بكيانه المزدوج الموحد ، لا بأى من عنصريه منفصلا عن الآخر ومستقلا عنه .

الإنسان يأكل . . وتلك عملية مشتركة بينه وبين الحيوان . عملية يقوم بها الجهاز الجثمانى ، وتحكمها تفاعلات الكيمياء وعناصر الطين .

ولكن الإنسان لا يأكل على الطريقة الحيوانية .

ولا ينحصر الفارق فى تعدد أنواع الطعام التى يسيغها الإنسان وتنوعها ، بينما الحيوان لا يسيغ إلا نوعا محدداً من الطعام ، تحدده الغريزة لكل نوع معين على حدة ، فلا يتجاوزه ولا يتعداه . . وإنما تختلف كذلك « طريقة » الطعام و « أهدافه » .

أبرز وجوه الاختلاف أن الإنسان « يختار » سلوكه نحو الطعام .

صحيح أنه مدفوع إليه بدفعة الغريزة . دفعة المواد التى تتفاعل داخل الجسم . وأنه مضطر اضطراراً قاهراً أن يستجيب لهذا الدافع . ومع ذلك فهو « يملك» أشياء كثيرة فى أثناء الاستجابة لهذا الدافع القهرى . يملك أن ينظم مواعيد لتناول الطعام يختارها بمحض إرادته (فرداً أو جماعة) . ويملك أن يمتنع باختياره عن الطعام فترة من الوقت تطول أو تقصر (كفترات الصيام أو الحمية . إلخ) . ويملك أساليب شتى فى تناول الطعام يختار من بينها مايروق له : يتناوله — باختياره — التهاما شرها كالحيوان ، أو تناولا مهذبا لطيفاً ، أو تناولا متأنقا مبالغا فيه . . . ويتناوله حراما أو حلالا . ويتناوله فى عزلة أثِرَة أو فى صحبة مُؤْثِرَة . حسبما يتراءى له من « قيم » الحياة .

وإذن فهو يستجيب لنفس الدافع القهرى الذى يدفع الحيوان لتناول الطعام . ولكنه — فيما بين الدافع والاستجابة — يعبر طريقاً طويلا مملوءاً « بالاختيارات » . . نشأ من وجود الروح وامتزاجها بالطين وتلبسها به . « فالإرادة » و « الاختيار » صفتان من صفات الروح ، تتمثلان فى صورتهما

المطلقة فى ذات الله سبحانه ، الذى نفخ فى الإنسان من روحه . وتتمثلان فى صورتهما المحدودة المقيدة فى الإنسان ، بمقدار ما تطيق قبضة الطين أن تقبس من روح الله .

ويستجيب الإنسان لدافع الجنس .. وهو نفس الدافع العنيف الملح الذى يستجيب له الحيوان .

ولـكنه لا يستجيب له على طريقة الحيوان .

وليست المسألة هنا كذلك محصورة فى اتساع موسم النشاط الجنسى عند الإنسان حتى يصل إلى العام كله ، بينما يقتصر على موسم محدد عند الحيوان .. وإنما تختلف كذلك الطريقة والأهداف .

فـكما أن الإنسان يختار سلوكه نحو الطعام ، فهو كذلك يختار سلوكه نحو الجنس . ويملك نطاقا واسعاً للاختيار .

فالنفس الإنسانية — بادئ ذى بدء — تتسع لدرجات مختلفة من مشاعر الجنس لا تتسع لها نفس الحيوان التى لا تعرف إلا صورة واحدة من صور الإحساس الجنسى ، متكررة عند كل فرد ، ومتكررة فى كل فرد .

يعرف الإنسان درجات تختلف بين الشدة واللطف ، بين اللهفة والتمهل ، بين الغلظ والرقة ، بين العتامة والصفاء . أدناها شبيه بالحيوان ، وأعلاها صاف رائق جميل . درجات تبدأ عند الطرف الحيوانى من الإنسان ، فتغلب عليها حركة الجسد الفائرة المتلمظة ، وتنتهى عند الطرف الملائـكى من الإنسان ، فتغلب عليها رقة الروح ونورانية الشعاع :

« هناك الشهوة العارمة التى تتمثل فى الجسد الهائج والجوارح الظامئة ، والعيون التى تطل منها الرغبة الهائجة .

« وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة ، التي تعد العدة في ترتيب وأناة ، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال .

« وهنـاك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد ، ولـكنها تمر في طريقها على القلب ، فيصفيها من بعض مابها من « العكار » ويعطيها قسطاً من « العاطفة » تمتزج بصيحة الجسد الملهوف .

« وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب ، ولـكنها قد تمر في طريقها على الجسد ، فيمنحها بعض لهيبه المحرق ، وقد يخلط بهـا بعض العـكار ، ولـكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء .

« وهناك إشراقة الروح الحالمة ، قد صفيت من العكار كله ، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد ، وإشعاعة لا تعرف القيود . تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يُصبّ فيه !

« وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ ، ولا يقدر عليها التعبير ! »(١)

ويختلف الناس بين هذين الطرفين البعيدين . بل يختلف الشخص الواحد من حالة إلى حالة في اللحظة الواحدة أو في اللحظات المتفرقة . ولـكن يبقى بعد ذلك أن الجنس — في الحالة السوية — لا يمـكن أن يخلو عند الإنسان من « مشاعر » نفسية مصاحبة لدفعة الجسم . وهذه المشاعر — قلّت أو كثرت — هي النتيجة لامتزاج الروح بالطين في كيان الإنسان .

وعلى ذلك يستجيب الإنسان لدفعة الجنس القاهرة ، ولـكنه — منذ البدء — لا يستجيب لها على طريقة الحيوان ، الجسدية الخالصة ، النابعة من الـكيان الطيني وحده ، والتفاعلات الـكيميائية التي تحدث في ذلك الـكيان .

---

(١) من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

ثم يملك الإنسان بعد ذلك اختيارات شتى فى طريقة الاستجابة .

يملك أن يسرف وأن يخفف .

ويملك أن يشغل نفسه بالتفكير فى شئون الجنس ، أو ينصرف عن هذه المشغلة بأمور أخرى متصلة بكيانه الشامل المتكامل ، المتعدد الجوانب المتعدد الأهداف .

ويملك أن يحيل مشاعر الجنس إلى حركة جسمية ، يفرغ منها ويستريح ، أو يحيلها إلى حركة نفسية وعاطفية ، ينشىء بها فنوناً ، وأفكاراً ، ومشاعر ، وسبحات ، فتتسع رقعتها فى نفسه ، وفى الوقت ذاته تخف وتشف ، وتخرج من كونها ضرورة تُقْضَى ، إلى كونها جمالا يُحَسّ .

و يملك فى النهاية أن يمنع نفسه منعاً من الاستجابة لهاتف الجنس ، مهما ترتب على ذلك من مشقة وحرمان . .

هذا إلى اختلاف السلوك من فرد إلى فرد ، وإن اشتركت الأهداف وتشابهت الاتجاهات .

وهكذا يسير الإنسان بين الدفعة والاستجابة فى طريق طويل مملوء بالاختيارات ، أنشأه فى كيانه تلبس الروح بقبضة الطين ، وعدم انفراد الطين بالتصرف فى أمر من الأمور .

وهكذا جميع الدوافع القاهرة المشتركة بين الإنسان والحيوان ، يتعرض الإنسان لضغطها عليه بمثل ما يتعرض الحيوان ، ولكنه يختلف عنه فى طريقة الاستجابة ، اختلافا توجهه « الإرادة » ويعمل فيه « الاختيار » وهما صفتان مميزتان من صفات الروح .

* * *

ذلك من الطرف الحيوانى للإنسان .

والأمر من الطرف الملائكى بالمثل .

يحس الإنسان بأشواق عليا ، وتنطلق روحه مرفرفة خفيفة مشعة رائقة .

يحس برغبة فى الاتصال بالله ، ويتعبد إليه راغباً فى محبته ساعياً إلى رضاه . وقد تستغرقه العبادة فى لحظة فينسى نفسه . ينسى أنه على الأرض ، وأنه جسم ذو عضلات ووشائج وأعصاب ، وذو مطالب لا يطول سكوتها عن الإلحاح ، لأنه لا يحس فى تلك اللحظة بحدود هذا الجسم ، ولا يحس بما يفصل بينه وبين الله .

ويحس برغبة فى الاتصال بالكون ، ويروح يستجلى جمال الطبيعة ، ويتنقل من زهرة جميلة إلى جدول ، إلى جبل شامخ ، إلى سحاب مسخر بين السماء والأرض . وقد يستغرقه الإعجاب بالطبيعة لحظة ، فينسى أنه كائن ذو « حيز » محدد محسوس ، لأنه لا يحس فى تلك اللحظة بما يفصل هذا الحيز المحدود عن الكون الواسع الفسيح .

ويحس برغبة فى الاتصال بغيره من بنى الإنسان . يتعاون معهم ويتوادّ . ويقيم معهم موازين العدل والحق والإخاء والمساواة .. وقد تستغرقه هذه الرغبة لحظة فينسى كيانه الفردى ، وما يحمله هذا الكيان من مطالب ذاتية ورغبات ، لأنه لا يحس فى تلك اللحظة فاصلا بينه وبين غيره من الأفراد .

ويحس برغبة فى الاتصال بفرد من الجنس الآخر .. فى غير نطاق الجسد .. فى عاطفة شفيفة لا تتلامس فيها الأجسام ، وإنما تنتقل العواطف من قلب إلى قلب ، ومن كيان إلى كيان . وقد تستغرقه رفعة الحب لحظة فينسى كيان

جسده وما يحمل من كيماويات وتفاعلات .. لأنه لا يحس فى تلك اللحظة بحاجز الجسد يحجب روحه عن الانطلاق ..

كل تلك لحظات من لحظات الروح .. تسبح فيها سبحات طليقة من القيود.

وتلتقى تلك اللحظات بنورانية الأملاك عند الطرف الملائكى للإنسان.

ولكنها مع ذلك لا تقلب الإنسان إلى مَلَكٍ ، حتى وهو يمارس تلك الانطلاقات.

أول فارق بينه وبين ملك أن هذه اللحظات من جانب الإنسان « اختيار » .. بينما هى فى ملك جزء من طبيعته التى لا يملك الحيد عنها : « لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون »[1] . « يسبحون الليل والنهار لا يفترون »[2] .

وإلى جانب الاختيار هى مسالك متباينة ، يختلف فيها فرد عن فرد ، ويختلف الفرد الواحد من لحظة إلى لحظة بين الإقبال والإعراض.

ولكن أبرز الفوارق أن الإنسان لا يصبر على هذه اللحظات أكثر من لحظات ! ثم يعود إلى واقع الأرض المحدود المحسوس ، بحكم الضرورات القاهرة التى تتوالى على حسه من جوع وعطش وإفرازات ومطالب ورغبات .. ومهما حاول الإنسان أن يتسامى بروحه على الضرورة ، فإلى فترة محدودة من الوقت — تطول أو تقصر — ثم يعود. ولا محيص له من أن يعود..

وذلك أثر من آثار امتزاج الجسد بالروح ، وعدم انفصاله عنها ، فلا يمكن أن تنطلق انطلاقاً كاملا وهى مرتبطة فى الأرض بقبضة الطين .

---

(١) سورة التحريم [٦] (٢) سورة الأنبياء [٢٠]

وهكذا لا يصدر عن الإنسان شيء فى أية لحظة يكون فيه مماثلا تمـاماً للحيوان أو مماثلا للملك . وإنما هو فى كل حالاته إنسان ، يتصرف على طريقة الإنسان . وذلك أثر من آثار امتزاج الطين والروح فى كيانه بحيث لا ينفصلان.

* * *

وصحيح أن الإنسان « يجنح » بأحد جانبيه فى لحظة من اللحظات . .

يجنح تارة بجسده فى دفعات الحس الغليظة ، ويجنح بروحه فى لحظة الإشراق .

لحظات الضرورة القاهرة جنوح بجانب الجسد . . فالإنسان وهو يقضى ضروراته « البيولوجية » : وهو يفرز إفرازاته أو ينهمك فى حركات الجنس ، يكون الجانب الجسدى هو المسيطر على نشاطه وحركاته ، ويكون هو الجانب البارز من الـكيان .

وكذلك حين يهتاج الإنسان فيغضب ويبطش . . أو حين يستجيب لنزعة من نزعاته الفطرية بعد فترة من التعطش والحرمان . .

وكل متاع حسى هو نشاط يغلب عليه عنصر الجسد ، ويستجيب لقبضة الطين .

ولحظات العزوف عن متاع الحس ، والانصراف عن مطالب الجسد ، هى من الجانب الآخر جنوح بجانب الروح .

والإنسان يصنع هذا وذاك . . فنى طبيعته أن يجنح أحياناً هنا ويجنح أحياناً هناك . وذلك مظهر من مظاهر الازدواج فى تـكوينه الأصيل .

ولـكن علينا أن نلاحظ فى ذلك ثلاثة أمور :

أولا : أنه فى كلتا حالتيه — كما رأينا — إنسان . فما دام فى حالته

السوية — أى بريئاً من الخلل النفسى — فهو يمارس كل أنواع النشاط بكيانه المجتمع المترابط ، حتى ولو غلب جانب من جوانبه على جانب آخر فى لحظة من اللحظات . وفرق بين أن يبرز أحد الجوانب ، وبين أن ينفصل ويعمل مستقلا عن بقية الكيان .

ثانياً : أن هذا الجنوح — فى الحالة السوية — مؤقت لا يدوم . فالإنسان ينغمس فى نشاط الجسد ساعة ، ثم يعود إلى نشاطه الروحى أو المعنوى ساعة . ويتداول هذه الساعات على الدوام ، فلا يظل جانحاً بجانب واحد إلا فى حالات الاختلال .

ثالثاً : أن هذا التداول الدائم بين نشاط الجسم ونشاط الروح ، يساعد الإنسان على التوازن فى نقطة الوسط التى يلتقى فيها الجسم والروح على استواء . فهو كالذى يسير على عارض دقيق ، يميل مرة هنا ومرة هناك لكى يحفظ توازنه فى كل مرة ، ولا يمنعه الميل ها هنا وها هنا من الوصول إلى التوازن ، بل قد يكون هو الذى يعاونه على الاتزان .

* * *

هذا الكيان الإنسانى المتفرد ، لا نصل إلى كل قراره فى الحقيقة حين ندرك فقط أنه كيان مزدوج الطبيعة ، ثم ندرك أن هناك امتزاجاً بين عنصريه المكونين له ، يجعله وهو يجمع بين نشاط الملَك ونشاط الحيوان — يؤدى كلا منهما بطريقته الخاصة ، طريقة الإنسان ، التى تحمل مشابه من الملك ومشابه من الحيوان ، ثم تفترق فى النهاية عن الملك والحيوان .

ليس هذا هو القرار الأخير فى كيان الإنسان !

وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أنه فى الحقيقة كيان موحد ، برغم ما فى طبيعته هذه من ازدواج .

كيان موحد . . كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب !

أعمال الإنسان كلها ذات ترابط وثيق وإن بدت منفصلة فى بعض الأحيان.

النشاط المادى والنشاط المعنوى . .

النشاط العملى والنشاط التعبدى . .

النشاط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، والنشاط الفكرى والروحى..

النشاط الفردى والنشاط الجماعى . .

كل لون من ألوان النشاط هذه وما شابهها قد يبدو لأول وهلة نشاطاً منفصلا، متخصصاً ، مستغرقاً ، يقوم به الإنسان بجانب من جوانبه ، ولا يتصل ببقية الجوانب أى اتصال . .

وذلك وهم ظاهرى ، كوهم تجزؤ الإنسان إلى جسم وروح منفصلين .

وَهْمٌ يغرى به بروز أحد هذه الجوانب فى لحظة وتَوَارِى الجوانب الأخرى مؤقتاً وراء هذا البروز .

فحين يعمل الإنسان بجسمه ، ويستغرقه العمل ، يخيل إليه أن هذا النشاط المادى منفصل ومستقل ، وأنه فى لحظة الاستغراق هذه لا صلة له بأى شىء معنوى فى نفسه أو فى الحياة .

وحين يستغرق الإنسان فى لحظة تعبد ، فقد يخيل إليه أن هذا النشاط الروحى منفصل عن بقية كيانه ، وأنه فى لحظة الاستغراق هذه لا صلة له بشىء مادى فى نفسه أو فى الحياة .

والحقيقة أن هذا الانفصال لا يمكن أن يحدث . . وإن توارت الصلات أو نسيها الإنسان .

فهو حين يعمل بيديه ويستغرقه العمل . . قد ينسى « لماذا » يعمل . ولكن نسيانه للهدف فى لحظة الاستغراق لا يعنى أن الهدف غير موجود ، ولا أنه — حين بدأ العمل أول مرة — لم يكن عالماً بهذا الهدف ومدركا له . ومن ثم يرتبط العمل بالهدف فى عالم الحقيقة ، ويرتبط به كذلك فى داخل نفسه ، وإن نسى هو هذا الارتباط فى بعض الأحيان . ويصبح العمل — المادى — أمراً مادياً ومعنوياً فى ذات الوقت ، محققاً لكيان الإنسان الموحد المجتمع المترابط ، الذى لا يصدر فيه شىء عن الجسم وحده ولا عن الروح .

وحين يستغرق فى لحظة عبادة . . فقد ينسى أثر هذه اللحظة فى كيانه المادى — الجسمى — لأن جسمه فى هذه اللحظة مستريح . والجسم مكوّن بحيث لا يحس الإنسان بوجوده إلا إذا كان متألماً موجوعاً . أما فى حالته الطبيعية التى لا يتألم فيها من جوع أو عطش أو مرض أو تهيج ، فالإنسان لا يحس بوجوده على وجه التحقيق ! ومع ذلك فالجسم موجود ! وهو يتلقى وقع هذه اللحظة الروحية ويتأثر به نشاطاً وخفة إذا كانت فى حدود ما يَحْتَمِلُ . ويتأثر به ألماً وإجهاداً وإنهاكا إذا كان فيها مشقة — ولو لم يتحرك الجسم من مكانه ! — فالمشاعر ذاتها تجهد الجسم أحياناً إذا زادت عن احتماله . وهكذا يرتبط الجسم بالروح فى لحظة العبادة . . يرتبطان فى عالم الحقيقة وفى داخل النفس ، وإن سها الإنسان لحظة عن هذا الارتباط !

وقياساً على هذين المثالين تجرى الأمور كلها فى حياة الإنسان .

فقد يخيل للإنسان وهو يضع خطة اقتصادية . . أو يخيل إليه وهو يشاهد النشاط الاقتصادى للبشر على الأرض . . أن « الاقتصاد » قوة منفصلة فى كيان الإنسان ، أو منفصلة عن كيان الإنسان . وأنه لا صلة لها بعالم الفكر وعالم الروح ، ولا بالقيم الخلقية والمعنوية .

وهذا وهم مستحيل الحدوث . فالنشاط الاقتصادى تنشأ عنه علاقات معينة بين البشر بعضهم وبعض . علاقات مودة أو علاقات تنافس أو علاقات نضال وعداء . وفى كل حالة من هذه يرتبط النشاط الاقتصادى بالجانب « المعنوى » للإنسان ، ويكيف مشاعره وأفكاره وطريقة تناوله لشئون الحياة . ومن جانب آخر تؤثر الرغبات والنوازع الفطرية ، وما ينشأ عنها من أفكار وتصورات . . تؤثر فى توجيه الاقتصاد وجهة معينة فى أية لحظة من اللحظات . « فالرغبة » فى الاستحواذ والتملك . و « الرغبة » فى البروز . و « الرغبة » فى الترف . و « الرغبة » فى القوة والسلطان . و « الرغبة » فى استعباد الآخرين أو « الرغبة » فى التعاون مع الآخرين . . وما شابهها من رغبات سوية أو منحرفة ، صاعدة أو هابطة ، هى التى ترسم التوجيه الاقتصادى للمجتمع ، وتجريه فى حدودها وعلى مستواها . ومن ثم لا ينفصل الاقتصاد عن القيم الروحية والخلقية والمعنوية فى واقع الحياة وفى واقع النفس ، وإن خيل للناس أحياناً أنه قوة مستقلة عن كيان الإنسان .

وحين يتعبد الإنسان . . فهذه القيمة الروحية — البحتة فى ظاهرها — لا تنفصل عن القيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمادية . . وكذلك حين ينفر من التعبد ويحيد عنه . ففى كلا الحالين يتأثر سلوكه العملى بهذه العبادة . فحين يكون صادقاً فيها فهو يتقن عمله المادى إرضاء لربه الذى يتعبد إليه ، فيتأثر الإنتاج كماً ونوعاً بروح هذه العبادة . وكذلك تتأثر علاقات

الاقتصاد . فالمؤمن المتعبد لا يحب أن يحرم غيره من ثمرة عمله ، ولا أن يستأثر دونه بالكسب . فتنشأ روح من التعاون والتكافل تسيّر الاقتصاد فى طريق خاص . وحين لا يكون صادقاً فى تعبده ، أو يكون نافراً منه حائداً عنه ، فلن يهتم بالإتقان — ما لم تكن هناك عوامل أخرى تدفعه إليه أو تجبره عليه — كالرغبة فى الاستغلال أو الخوف من سلطان الدولة أو صاحب العمل — ولن تنبت فى نفسه مشاعر التعاون والتكافل ، ويسير الاقتصاد فى خط السلب والنهب والاغتصاب الذى يأخذ صورة الإقطاع أو الرأسمالية . . أو يأخذ خط العبودية للدولة صاحبة السلطان .

وهكذا ترتبط القيمة الروحية بالقيم المادية والاجتماعية والسياسية بلا انفصال .

وحين ينهمك شخص فرد فى نشاط جنسى حلال أو حرام فى لحظة معينة ، فقد يخيل إليه أن هذه اللحظة منفصلة عن كل « القيم » وأنها مجرد شهوة بدنية واستجابة لهذه الشهوة .

وقد مر بنا الحديث عن استحالة الانفصال بين الجسم والروح فى العمل الجنسى — فى الحالة السوية — مادامت هناك « مشاعر » تربط بين الجنسين ، وسع من دائرة العمل الجسدى .

ولكننا هنا نريد أن نعرض الأمر فى نطاق أوسع . . فهذا النشاط الجنسى الفرد ليس فرداً فى الحقيقة ، ما دام واقع البشر أنهم يعيشون فى مجتمع (وهذا المجتمع ذاته قد نشأ فى الأصل نتيجة للنشاط الجنسى للأفراد !) فكل نشاط جنسى فرد ، أياً كان نوعه ، يؤثر بالتالى فى المجتمع ، قيمه وأفكاره ومادياته ومعنوياته . ويتأثر به . فحين يحرص هذا الفرد على أن يكون نشاطه الجنسى

حلالا — أى فى الحدود المشروعة — فقد التزم منذ البدء « بقيمة » من القيم. وسواء تيقظ لهذه القيمة فى كل مرة أو كمنت فى حسه ، فهى موجودة ، وهو عالم بها ومدرك لها منذ أول الأمر . وحين لا يبالى بهذه القيمة ، ويقوم بنشاط غير مشروع ، فهنا كذلك لم ينفصل العمل عن القيمة المصاحبة له . وإنما الذى حدث أن هذا الشخص قد استبدل بالقيم العليا قيماً أخرى هابطة ، استمدها من رأيه الخاص أو من المجتمع من حوله . وسواء نسى قيمه الهابطة فى أية مرة أو تذكرها ، فهى موجودة فى حسه ، وهو عالم بها ومدرك لها منذ البدء . وعلى ذلك يرتبط هذا العمل الجسمى الخالص بالقيمة المصاحبة له . ولا ينفصلان .

ثم ينشأ عن كل من الأمرين آثار حتمية فى كيان المجتمع كله . فالمجتمع هو مجموع الأفراد . وحصيلة تصرفات الأفراد ، وأفكارهم ومشاعرهم ، والقيم التى يؤمنون بها ، والأعمال التى يقومون بها ، هى فى النهاية التى ترسم خط سير المجتمع وتحدد منهاجه . فحين يحرص الأفراد على أن يكون نشاطهم الجنسى فى دائرة النظافة المشروعة ، فإن المجتمع يأخذ صورة معينة من الترابط والقوة وانطلاق الطاقة الحيوية نحو العمل الصاعد النظيف . وحين ينغمسون فى نشاط دنس ، فإن صورة المجتمع تتحول إلى التحلل والتفكك ، وتنطلق الطاقة الحيوية فى سبيل الانحراف . وحين يكون الأفراد خليطاً من هؤلاء وهؤلاء ، فالمجتمع سائر فى طريق الضعف أو طريق القوة بمقدار ما يشير إليه اتجاه الأفراد : وهل هم يتزايدون فى طريق النظافة أو يتزايدون فى طريق الهبوط .

وهكذا يرتبط الفرد بالجماعة فى لحظة الجنس العابرة ، ارتباط العمل الجسمى بالقيم والأفكار.

ومن حيث استعرض الإنسان حقائق الحيـاة البشرية فهو لا بد واصل إلى هذه النتيجة فى النهاية ، وهى ارتباط النشاط البشرى كله بعضه ببعض ، وتأثره كله بعضه ببعض .

وهذه الحقيقة الواقعة فى الحياة هى انعكاس للحقيقة النفسية الداخلية العميقة . . وهى تَوَحُّدُ الكيان البشرى وترابطه ، برغم ما فى طبيعته من ازدواج .

الأمور كلها مرتبطة فى داخل النفس . وإشعاعاتها فى الحياة قد تصل إلى آماد واسعة وآفاق مترامية بعيدة جدا عن منبعها فى داخل النفس . ولكنها تظل مترابطة متشابكة ، لأنها صادرة عن كيان موحد مترابط متشابك معقد التركيب !

كل ما فى الأمر أنه يحدث فى لحظة من اللحظات بروز فى جانب من الجوانب فى حياة الإنسان :

يبرز العامل الاقتصادى فى لحظة . .

ويبرز العامل الروحى فى لحظة . .

ويبرز العامل الجنسى فى لحظة . .

وذلك انعكاس طبيعى لبروز بعض الجوانب الإنسانية وتَوَارِى بعضها الآخر . ولكن الحقائق الثلاث التى تصدق على عالم النفس تنعكس بدورها على الحياة البشرية : أن بروز هذا الجانب أو ذاك لا يفصله فى أية لحظة عن بقية الجوانب . وأن النفس تتداول البروزات والانحسارات على الدوام ، فلا تثبت على بروز واحد أو انحسار واحد إلا فى حالات الاختلال .

وأن هذا التداول المستمر يساعد على إحداث التوازن فى النفس . . وفى الحياة .

* * *

ومن ثم تبدو ضخامة الغلطة التى يرتكبها كل تفسير للنفس الإنسانية يأخذ فى حسابه جانبا واحدا من كيان الإنسان .

التفسير الحيوانى للإنسان . . والتفسير الروحانى الملائكى . . كلاهما مخطىء وبعيد عن الصواب .

التفسير الحيوانى الذى يهمل جانب الروح ، ويحاول أن يفسر الإنسان بجسده وحده : بلقمة الطعام ودفعة الجنس ومطالب المادة . .

والتفسير الروحانى الذى يهمل حقيقة الجسد ودلالتها ، ويحاول أن يفسر الإنسان بروحه وحدها : بإشعاعة النور والشفافية والطلاقة والإشراق . .

كلاهما يتحدث عن كائن وهمى بالنسبة للإنسان !

وكلاهما يرتكب خطأ جسيما فى حق الحياة وحق الإنسان !

وكل النظم التى لا تؤمن بوحدة النفس البشرية وامتزاج عنصريها الكبيرين تنحرف انحرافات خطيرة ، تؤدى إلى إحدى نتيجتين : إما كبت الجسد وإما كبت الروح . ثم تتعرج فى انحرافات تفصيلية كثيرة تندرج تحت واحد من هذين الاختلالين الرئيسيين .

هناك نظم فصلت بين القيم الروحية والقيم المادية ، فأهملت الجسد واحتقرته ونبذته ، وكبتت نوازعه الفطرية وضروراته القاهرة ، فلا تقضيها أصلا ، أو تقضيها بتقزز ونفور . ونشأ من ذلك اختلال فى داخل النفس

واختلال فى الحياة . فرانت السلبية على النفوس ، وتأخر المجتمع وانحسر عن التقدم والانطلاق .

وهناك نظم فصلت بين القيم الروحية والقيم المادية ، فأهملت الروح ، ونبذت كل ما يتصل بها من قيم ، فنشطت نشاطا جما فى عالم المادة وعالم الجسد ، ولكنها لفقرها الروحى انقلبت تتقاتل وتتنابذ ، فلم تعد تعرف الراحة ولم تعد تعرف السلام .

الهندوكية والبوذية وما نحا نحوهما من الديانات والفلسفات والعقائد ، كبتت الجسد لتعلى من شأن الروح ، فوصلت إلى السلبية المريضة وإلى الهزال .

والمادية الأوربية كبتت الروح لتعلى من الإنتاج المادى والمتاع الجسدى ، فوصلت إلى ما يشبه الحيوانية فى صلات الناس بعضهم ببعض : من استعمار و استعباد واستغلال . وهبوط خلقى وروحى فى أمور الجنس خاصة .. حيوانية لا تليق بالإنسان .

ثم إن أوربا المادية هى التى فصلت بين القيم المختلفة : فأقامت السياسة والاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية . وأقامت شئون الجنس بمعزل عن الأخلاق . وشئون الدنيا بمعزل عن الآخرة . وشئون الحياة بمعزل عن الدين . وكانت النتيجة تَصَادُم هذه القيم المقطوعة من جذورها المشتركة ، والصراع المدمر العنيف ، والشد والجذب فى داخل النفس بصورة تتلف المشاعر وتُمْرِضُ الأعصاب . فوصلت حوادث الجنون والانتحار وضغط الدم والأمراض العصبية والنفسية إلى درجة لا مثيل لها فى التاريخ .

وكل ذلك لأنها لم تتعرف على هذه الحقيقة النفسية ولم تُصِخ إليها : حقيقة توحد الكيان البشرى ، والترابط فى داخل النفس الإنسانية بين الروح والجسد ، والترابط فيما يصدر عنهما من إشعاعات .

والإسلام — كلمة الله إلى الأرض — هو وحده الذى تمشى مع الفطرة البشرية كما خلقها الله .

الفطرة البشرية هى قبضة الطين ونفخة الروح العلوية فى ذلك الطين ، وامتزاجها به وتوحدها فيه .

والإسلام هو النظام الذى يربط بين كل ألوان النشاط البشرى ، ويوحد بينها فى الاتجاه .

يربط بين الروح والجسد ويوحد بينهما فى كل ما يصدر عنهما من مشاعر وأفكار وأعمال .

الطعام والشراب يبيحه . . ثم يجعله باسم الله . . أى يجعل له قيمة روحية مصاحبة . وبهذا يجعل الطعام والشراب مسألة إنسانية لا حيوانية . ويقضيهما الإنسان على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان . ويكون بذلك متمشياً مع الفطرة السوية التى أودعها الله فى الإنسان .

وحين يجعلهما باسم الله ، فهى ليست كلمة تقال . . وإنما هى حقائق كثيرة تجعل الارتباط كاملا فيهما بين نشاط الجسم ونشاط الروح .

فالطعام ينبغى أن يكون من حلال : «يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً »[1] . « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً »[2] .

وأن يذكى هو ذاته قبل تناوله بقراءة اسم الله عليه ، أى بربطه بالله فى الوجدان : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق »[3] .

وألا يسرف الإنسان فيه بلا ضابط : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا»[4] .

---

(١) سورة البقرة [١٦٨]
(٢) سورة المائدة [٨٨]
(٣) سورة الأنعام [١٢١]
(٤) سورة لأعراف [٣١]

وألا يستأثر به وحده : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير »[1].

وألا يجعله همه الشاغل ، ولا هدفاً فى ذاته ، وإنما وسيلة لهدف : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[2].

وبهذا كله يصبح الطعام مسألة جسمية روحية فى ذات الوقت، وبتعبير آخر يصبح نشاطا إنسانياً صادرا عن الكيان الإنسانى الواحد المجتمع المترابط ، الذى لا ينفصل فيه كيان عن كيان .

والإسلام يبيح النشاط الجنسى . . ولكنه يجعله كذلك باسم الله .

فهو أولا يشترط أن يكون حلالاً طيباً لا عن طريق الفاحشة : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات . . . إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان . . . »[3].

ثم جرت السنة على قراءة اسم الله قبل العمل الجنسى ذاته ، أى ربط العمل بالعبادة والتوجه به إلى الله .

ثم يكون فى ذاته نظيفاً وطاهراً : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذًى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»[4].

ثم لا يكون عملا جسدياً خالصا على طريقة الحيوان :

فأولاً : تصاحبه أقوال ومداعبات تلطف من غلظ الحس . وفيما روت

(١) سورة الحج [٢٨] .
(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم .
(٣) سورة المائدة [٥] . (٤) سورة البقرة [٢٢٢] .

عائشة رضى الله عنها من حال الرسول صلى الله عليه وسلم معها ما يثبت هذا المعنى ويؤكده ، فقد روت من أنواع المداعبة الكثير .

وثانياً : يذكِّر الإنسان بأن الجنس وسيلة لهدف ، وليس هدفاً فى ذاته : « نساؤكم حرث لكم »(١) والإشارة فى الحرث واضحة إلى البذرة والإنبات .. أى النسل على طريق المجاز .

وثالثاً : يُجْعَل علاقة روحية ووجدانية إلى جانب كونه علاقة جسدية : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن »(٢) . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »(٣) .

وبهذا يصبح الجنس نشاطاً جسمياً روحياً ، أو « إنسانياً » بتعبير آخر ، صادراً عن الكيان المجتمع للإنسان .

* * *

ثم يجعل مختلف ألوان النشاط الإنسانى فى الحياة ممتزجة مترابطة على ما هى عليه فى حقيقة النفس :

العمل والعبادة أمران مرتبطان :

فكل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة . بل هو العبادة : « ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون(٤) » .

---

(١) سورة البقرة [٢٢٤]
(٢) سورة البقرة [١٨٧] .
(٣) سورة الروم [٢١] .
(٤) سورة البقرة [١٧٧]

والعبادة عمل يشترك فيه الجسم إلى جانب الروح :

فالصلاة — وهي عنوان العقيدة ولبابها — حركة جسم متطهر إلى جانب حركة روح متطلعة تحاول في خشوعها أن تتصل بالله . وهي لا تصح بأحد العنصرين دون الآخر . لا تصح دون تهيؤ الجسم لها بالتطهر والوضوء واشتراكه في الحركات والسكنات في القيام والركوع والسجود ؛ ولا تصح دون تهيؤ الروح بالوعي والخشوع والتطلع إلى الله : « فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون »[1] . « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون »[2] .

والصيام امتناع جسمي عن الطعام والشراب ، وتحمل للجوع والعطش ، إلى جانب تقوى المشاعر وانطلاقة الروح . ولا يصح بأحد العنصرين دون الآخر . لا يصح دون اشتراك الجسم بالامتناع عن المباح من الطعام والشراب والمتاع . ولا يصح دون اشتراك الروح بالتقوى ، والامتناع عما يفسد جو الصيام من قتال أو خصام أو فحش في القول أو فحش في النظر أو فحش في الفعل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »[3] .

« الصوم جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم ، إني صائم »[4] .

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »[5] .

والزكاة « أعمال » محسوسة تؤدَّى إلى جانب التطهر الروحي ، ولا تصح بأحد العنصرين دون الآخر . لا تصح بالنية الطيبة دون عمل حسي يؤدَّى ،

---

(1) سورة الماعون [4] (2) سورة المؤمنون [1 — 2]
(3) سورة البقرة [183] (4) أخرجه الستة
(5) رواه البخاري .

من إنفاق للأموال وبر بالفقراء بإعطائهم مما يملك الإنسان نقداً وعيناً. ولا تصح بالإنفاق دون طهارة النفس من الداخل والبذل عن طيب خاطر: « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[1]. « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر »[2]. « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون »[3].

والحج كذلك أعمال جسدية وحركة روحية. ولا يصح بأحد العنصرين دون الآخر. لا يصح بدون الحركة الجسدية من توجه وانتقال وسفر وتجرد من المخيط.. الخ. ولا يصح دون التزام التقوى والتطهر والخشوع: « الحج أشهر معلومات. فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج »[4].

وبذلك يرتبط العمل والعبادة ويمتزجان، كامتزاج الجسم والروح فى داخل الكيان.

والقيم المادية والقيم المعنوية مرتبطتان.

الإنتاج المادى والنظم الاقتصادية ليست منفصلة عن القيم المعنوية التى تحكمها:

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ».

والمال ينبغى أن يوزع على الناس: «كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم».[5]

والأخلاق عنصر مرتبط بكل العمليات الاقتصادية من بيع وشراء

(1) سورة التوبة [١٠٣]
(2) سورة البقرة [٢٦٤]
(3) سورة البقرة [٢٦٧]
(4) سورة البقرة [١٩٧].
(5) سورة الحشر [٧]

وتملك وإنتاج: «رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[1].

والربا يحرم تحريما شديدا لما يحمله فى طياته من الظلم الاجتماعى والاقتصادى، ويرتبط تحريمه بغضب الله، بل بالحرب من الله ورسوله: «الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بأنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله. ومن عاد فأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله. وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون[2]».

والاحتكار ملعون: «من احتكر فهو خاطىء»[3].

وبهذا ترتبط المعاملات الاقتصادية بالقيم الخلقية والروحية، كما هى مرتبطة فى داخل النفس وفى واقع الحياة.

* * *

وترتبط الدنيا بالآخرة والأرض بالسماء..

إن الدنيا ليست مملكة الجسم، والآخرة مملكة الروح.. بل هما مملكة الجسم والروح فى آن. وهى رحلة واحدة أولها فى الدنيا ونهايتها فى الآخرة بلا انفصال.. والإنسان يقطعها من أولها إلى آخرها وهو بذاته «الإنسان».

والإسلام فى هذه النقطة بالذات واضح شديد الوضوح. فتوجيهات القرآن كلها إلى الناس فى الأرض، ومشاهد القيامة التى تصف أحداث اليوم

(١) رواه البخارى والترمذى. (٢) سورة البقرة [٢٧٥ — ٢٨٠]

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

الآخر ، كلتاهما تربط ربطاً شديداً بين الدنيا والآخرة بحيث يقرّ فى قلب الإنسان أنهما شيء واحد متصل وليسا شيئين منفصلين :

كل عمل من أعمال الدنيا يقال للإنسان فيه اتق الله واليوم الآخر . وكل عمل فى الأرض يذكّر الإنسان فيه بالآخرة :

« ولتنظر نفس ماقدمت لغد »(1) .

« فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »(2) .

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً »(3) .

« أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة »(4) .

« يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(5) .

« سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »(6) .

« كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة »(7) .

« قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(8) ..الخ .الخ.

وحين يصنع الإسلام ذلك فهو يتمشى تمشياً كاملا مع الفطرة السوية التى خلق الله بها الإنسان . « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم »(9) .ويكون مطابقاً — بدرجة معجزة — للكيان الإنسانى الفذ ، الذى خلقه الله متفرداً بين جميع الخلق ، وأرسل له هذا المنهج المتفرد ، المفصل على قده ، المضبوط على كل دقائقه وتفصيلاته ، والشامل فى الوقت ذاته لكل نشاط فى الحياة البشرية منبثق عن كيان الإنسان .

(1) سورة الحشر [18]
(2) سورة آل عمران [25]
(3) سورة آل عمران [30]
(4) سورة البقرة [254]
(5) سورة آل عمران [114]
(6) سورة آل عمران [180]
(7) سورة آل عمران [185]
(8) سورة الأعراف [32]
(9) سورة الروم [30]

خطوط متقابلة فى النفس البشرية

فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصل بهذا العنوان يقع فى ٦٧ صفحة ، كان موضعه فى الحقيقة هنا فى هذا الكتاب ! ولكنه سبق مولد هذا الكتاب فى نفسى ، كما أنه يؤدى دوره الطبيعى هناك فى « منهج التربية » .. فالموضوعان متصلان ومتشابكان .

ولا أملك أن أعيد هنا ما قلته هناك بحذافيره ! ولكنى أعيد عرض الفكرة هنا بما يناسب الدراسة النفسية التى نحن بصددها فى هذا الكتاب .

* * *

قلنا فى الفصل السابق ونحن نستعرض الطبيعة المزدوجة للكيان البشرى ، إن هناك مظاهر كثيرة لهذا الازدواج . ثم بدأنا بأول هذه المظاهر وأوضحها وهو حقيقة الجسم والروح .

وهنا نتحدث عن الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية . وهى مظهر آخر من مظاهر الازدواج فى تلك النفس .

«إن من عجائب التكوين البشرى تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية ، كل اثنين منها متجاوران فى النفس وهما فى الوقت ذاته مختلفان فى الاتجاه : الخوف والرجاء . . الحب والكره . . الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال .. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية .. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس . . حب « الالتزام » والميل للتطوع . . الفردية والجماعية . . السلبية

والإيجابية . . إلخ . كلها خطوط متوازية ومتقابلة . وهى — باختلافها ذلك وتقابلها — تؤدى مهمتها فى ربط الكائن البشرى بالحياة ، كأنما هى أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله ، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط ! وفى الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه وتفسح مجال حياته ، فلا ينحصر فى نطاق واحد ولا مستوى واحد . وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد فى كل ما نعرف من مخلوقات الله . كيان يرجع فى النهاية إلى النشأة الأولى العجيبة المعجزة : قبضة الطين ونفخة الروح »[1] . . .

* * *

هذه الخطوط المتقابلة عجيبة من عجائب التكوين البشرى . وأعجب ما فيها هو الترابط القائم بين كل زوج منها رغم التقابل الكامل بينهما فى الاتجاه .

كيف نشأت هذه الخطوط فى نفس الإنسان ؟

هل نستطيع أن نقول إنها نتيجة مباشرة لقبضة الطين ونفخة الروح ؟

هل نستطيع أن نقول إن بعضها من طبيعة الطين وبعضها من طبيعة الروح ؟

علم ذلك عند الله ! وهو وحده الذى يعلم اليقين ! وما نملك هنا القطع بشىء كما قطعنا بالحقيقة الأولى : حقيقة الجسم والروح . فهناك نستمد اليقين من كلام الله ذاته . أما هنا فهو مجرد حدس قد يخطىء وقد يصيب !

حسبنا إذن أن نصف هذه الخطوط وآثارها فى كيان الإنسان وحياته .. دون أن نقطع فى أمر نشأتها الأولى بيقين .

* * *

---

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

كل خطين متقابلان فى الخلقة ، متضادان فى الاتجاه . . ومع ذلك فهما مترابطان . ويبلغ من ترابطهما أن يعملا معا أحيانا فى ذات الوقت وفى ذات المجال . .

وقد التفت فرويد إلى خطين اثنين فقط من هذه الخطوط المتقابلة ، هما خطا الحب والكره ، وراح ينشئ حولهما نظرية بأكملها سماها نظرية «الازدواج العاطفى Ambivilence » ويقصد به على وجه التحديد أن الإنسان يحس بالحب والكره معا وفى ذات الوقت تجاه كل شيء وكل شخص فى الوجود ! وبلا سبب واع ولا سبب معقول ! ففى اللحظة التى يولد فيها الحب فى النفس تجاه أى شيء أو أى شخص ، يولد معه الكره تلقائيا وبنفس القوة تجاه الشيء ذاته أو الشخص ذاته ! ولما كان من المستحيل أن يظهر الإحساسان معاً فى دائرة الشعور ، فإن واحدا منهما فقط هو الذى يظهر على السطح وهو الحب — لأنه هو الذى يسمح المجتمع بظهوره ! (ولم يقل لماذا !) — ويرسب الثانى — وهو الكره — فى اللاشعور . ومن ثم يصبح كل حب ظاهر على السطح « تمويها » عن الكره الراسب فى الأعماق ! وبمقدار ما يكون الحب الظاهرى قويا يكون الكره المكبوت فى اللاشعور ! وهكذا يكون ظاهر النفس الإنسانية هو الحب ، بينما الباطن — بلا سبب — مملوء بالأحقاد !

وقد استبعد فرويد — فى إصرار — كل حالة يكون فيها الكره المكبوت فى اللاشعور ناشئا عن سبب — أى سبب ! — كأن يكون الإنسان الذى تحبه قد تسبب فى إغضابك أو إيلامك أو إزعاجك ، فتكرهه لهذا السبب ، ولكنك تغلّب الحب على الكره ، « فتكبت » الكره فى اللاشعور . .

كلا لا يقصد ذلك ! فهنا « سبب » . . واعٍ أو غير واعٍ . . ولـكنه يصر على أن الازدواج العاطفى تجاه الشىء الواحد أو الشخص الواحد يحدث بلا سبب . . فهو هـكذا فى صميم الفطرة !

ومن هنا — وبلا سبب — يحب الولد أمه ويـكرهها . ويحب أباه ويـكرهه. والأم تحب ولدها وتـكرهه . والوالد يحب ولده ويـكرهه . والزوج يحب زوجته ويـكرهها . والزوجة تحب زوجها وتـكرهه . . إلخ . . إلخ !

ويقيم فرويد على هذه « النظرية » نصف تفسيره على الأقل للنفس البشرية ! فهذا الـكره المـكبوت — بلا سبب — هو الذى يوجه مشاعر الأفراد والجماعات ، ويؤثر كذلك فى العمل والسلوك . ومن هذا الـكره — أو بالأحرى من الصراع الدائر بين الحب الظاهرى والـكره المـكبوت — نشأ الدين والحضارة وتقاليد المجتمع . . وكل مظهر من مظاهر البشرية ! !

وهو تعسف وتعنت لا يحمل الدليل ! وما كان ينبغى « لعالِم » أن يلقى القول هـكذا على عواهنه بلا دليل !

ولقد كشف هو نفسه عن زيف هذه النظرية كلها فى سطرين اثنين من كتابه « Totem and Taboo » حيث قال فى ص ١٣٩ — دون انتباه منه لما سبق أن قرره فى هذا الـكتاب وفى كل كتاب سواه — : « إن الـكراهية التى تنشأ فى نفس الولد نحو أبيه بسبب منافسته على أمه ، لاتستطيع أن تستولى على نفسه دون أن تتعرض للمنع والحجر ، فإن عليها أن تصارع الحب والإعجاب اللذين نشآ قبل ذلك فى نفسه تجاه الشخص ذاته » (أى تجاه الأب) .

وهـكذا يقر — من حيث لا يدرى — بأن الحب والـكره لا ينشآن

نشوءا ذاتيا فى نفس الوقت . فقد كان الحب موجودا قبل ذلك بمفرده دون أن يصحبه الكره . ثم إن الكره لا ينشأ هكذا بلا سبب . فقد نشأ فى هذه الحالة — فيما يزعم فرويد — بسبب منافسة الأب للابن على شخص الأم !

ولو فتح فرويد بصيرته ، وتخلى عن الأوهام التى سيطرت عليه فى تفسير النفس الإنسانية ، لكان حريا أن يرى أولا أن الخطوط المتقابلة ظاهرة عامة فى الكيان النفسى ، وليست خاصة بالحب والكره . فقد أحصينا منها ثمانية أزواج هنا ، وربما يتسع البحث لمزيد ! وأن يرى ثانيا أنها ليست متزاحمة — رغم تقابلها — بحيث يظهر أحدها على السطح فيختفى الآخر فى اللاشعور ، فمن الممكن — كما سنرى — أن تظهر كلها فى دائرة الوعى بلا تعارض ولا اصطدام . وإن اصطدمت فلسبب يحملها على الاصطدام . وأن يرى أخيرا أنها فى حاجة إلى تفسير أشمل من تفسيره الذى يقتصر على خطين اثنين من خطوط النفس ، والذى يتعسف فيه كل هذا التعسف بلا دليل ، ثم ينقضه كله دون أن يتنبه فى سطرين من كتاب !

ولكننا مع ذلك نسجل الحقيقة الجزئية التى اهتدى إليها ، وهى اتصال خطى الحب والكره فى داخل النفس ، ثم نقول إنه ليس الحب والكره وحدهما هما الخطين المتقابلين فى النفس البشرية ، فهناك مجموعات عدة من الخطوط المتقابلة . وليس الاتصال والترابط قائما بين هذين الخطين وحدهما ، وإنما هى ظاهرة عامة تشمل كل الخطوط .

الخوف والرجاء

« خطان متقابلان من خطوط النفس ، يوجدان فيها متجاورين مزدوجي الاتجاه .

« إن النفس — بطبيعتها — لتخاف وترجو . هكذا ركب في فطرتها.. يولد الطفل وفيه هذان الاستعدادان متجاورين . يخاف الظلمة ويخاف الوحدة ويخاف السقوط ويخاف الاصطدام ويخاف المناظر التي لم يألفها والأشخاص الذين لم يألفهم . . ويرجو . . يرجو الأمان والراحة والدفء والاستقرار في حضن أمه وهو يرضع ، وبعد ذلك في حضن أمه وفي حجر أبيه وفي يد من يستريح إليهم من الناس . وينمو الطفل وينمو معه هذان الخطان المتقابلان . وتتنوع المخاوف ويتنوع الرجاء ،ولكن الخطين هما هما ، في تقابلهما وازدواجهما ، يحددان له مشاعر الحياة واتجاهاتها . يخاف الموت ، ويخاف الفقر ، ويخاف العجز ، ويخاف الخيبة ، ويخاف الخزى ، ويخاف الألم الحسى والمعنوى ، ويخاف المجهول . . كلها مخاوف . كلها أنغام مختلفة تصدر عن هذا الوتر الواحد الذى يعتبر — كزميله المقابل له — أقوى الأوتار و «أوسعها » من القمة إلى القرار . . وهو كذلك يرجو الاستقرار والأمن والراحة كما كان يرجوها وهو طفل ، ولكن على مستويات أعلى وأوسع ، ويرجو التوفيق ويرجو القوة ، ويرجو المكانة ، ويرجو الجاه ، ويرجو النعيم ، ويرجو آمالا شتى لا تنقضى .. ولا تحصى . كلما تحقق أمل جدّ أمل جديد .

« والخوف والرجاء بقوتهما تلك وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشرى كله في أعماقه ، يوجهان في الواقع اتجاه الحياة ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ، ومشاعره وأفكاره . فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف . . وعلى

قدر ما يرجو ، ونوع ما يرجو . . يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف[1] » .

* * *

هذان الخطان — فيما أرى — هما أوسع وأعمق الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية . أوسع وأعمق من خطى الحب والكره اللذين ركز فرويد عليهما انتباهه . فالطفل قبل أن يتعلم الحب والكره ، وهما شعوران يتجهان نحو الخارج — نحو الآخرين — نحو العالم الخارجى — يحس إحساساً فطرياً بالخوف على ذاته ، وإحساساً فطرياً آخر بالأمن على ذاته فى حضن مرضعته — وهى أمه فى الغالب . وهذا أمر منطقى . فذاته — فى مبدأ الأمر — هى عالمه كله ، والخوف عليها وطلب الأمن لها هما أول شعورين « منطقيين » مع هذا الكيان المركز فى الذات . وثدى الأم (أو المرضع) وحضنها ، هما أقصى ما « يرجوه » فى عالمه الصغير هذا المتصل اتصالا مباشراً بذاته . وذلك قبل أن « يعرف » من هى أمه أو مرضعته ، أو ما هو الثدى الذى يطعم منه ؛ وقبل أن يحس « بالحب » نحو شخص الأم . . والبعد عن الثدى أو الحضن هو أشد ما « يخافه » فى تلك الفترة ، قبل أن « يعرف » شيئاً يحس نحوه « بالكره » .

وإنما يجىء الحب والكره تاليين فى نفسه للرجاء والخوف . . حين يتسع عالمه قليلا ، ويشرع فى الخروج من ذاته ، فينشئ صلات « نفسية » بمن حوله وما حوله ، تَعْبُرُ على قنطرة الصلات « الجسمية » أولا ، على قنطرة الثدى والحضن ، ثم تستقل عنها ، فتصاحبها أو لا تصاحبها . . حسب الأحوال .

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

ومن هنا كان خطا الخوف والرجاء أعمق الخطوط لأنهما أول الخطوط تميزاً فى كيان النفس ، ولأنهما ألصق الخطوط بالذات . . .

وبصرف النظر عن طبيعة الصلة بين حقيقة الجسم والروح وبين خطى الخوف والرجاء ،ومدى نشوء الحقيقة الثانية من الحقيقة الأولى — وهى مسألة لانقطع فيها بيقين — فإن الخطين — كما رأينا — يعملان معاً مترابطين ومتصلين ، كالترابط القائم بين الجسم والروح !

يعملان معاً فى نطاق واحد وفى «موضوع» واحد ، هو فى مبدإ الأمر الثدى والحضن .. أو هو من ناحية أخرى تلك العملية «البيولوچية» المتصلة بالغذاء.

وعلى ضوء هذه الحقيقة تتضح لنا جملة أخطاء فى نظريات فرويد ، يحسن أن نلم بها قبل أن نمضى فى الطريق :

الخطأ الأول — وقد ذكرناه من قبل — أن خطى البشرية الأولين — قبل الحب والكره — هما الخوف والرجاء . ومن ثم لايجوز تفسير النفس البشرية من خطى الحب والكره دون خطى الخوف والرجاء . . على أنه من الخطأ فى الحقيقة تفسير النفس بأي من هذه الخطوط وحدها دون بقية الخطوط. فقد أكدنا هذه الحقيقة من قبل : أن النفس تعمل بمجموعها كله . وكل تفسير لها بجزء منها منفصل ومستقل ، هو تفسير مشوه وخاطىء . وإذا كنا نضطر هنا « لتفصيص » النفس وتجزئتها ، فتلك ضرورة من ضرورات البحث لا تعنى مطلقاً أن النفس هكذا فى حقيقتها . وكل الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية هى أجزاء من الكيان الشامل ، ولكنها — رغم وضوحها وتميزها الذاتى — لا تعمل وحدها أبدا ، ولا تعمل بمعزل عن بقية الخطوط . وإنما تعمل كلها متشابكة مترابطة متصلة — لا كل زوج بنفسه فحسب —

بل كل الأزواج فى وقت واحد وفى جميع الحالات ، مع بروز مؤقت لبعض الخطوط وانحسار مؤقت لبعضها الآخر .. ولكن دون استقلال ولا انفصال .

والخطأ الثانى : أن الخطين المتقابلين يمكن أن يعملا معاً وفى ذات الوقت فى دائرة الشعور والوعى — أو فى دائرة اللاشعور — دون أن يستلزم ظهور أحدهما « كبت » الآخر ودفنه فى اللاشعور ! فمخاوف الرضيع وآماله — كما رأينا — تدور حول الثدى والحضن والراحة والأمن .وهو إذ يتشبث بالثدى فهو «يرجوه» و « يخاف » أن ينتزع منه فى ذات الوقت بلا تعارض! فإذا اطمأن إلى وجوده فى شفتيه وراح يمتص منه رحيق الحياة فقد ينسى — مؤقتاً — خوفه على ضياعه . ولكنه لايحتاج أن « يكبت » هذا الخوف فهو موجود — مع الرجاء — فى دائرة الشعور . ثم إن الرغبة فى الثدى والخوف من انتزاعه ، قد يهبطان معاً إلى دائرة اللاشعور حين يكبر الطفل ، فيكونان معاً على درجة واحدة من الشعور أو اللاشعور .

وسنرى عند الحديث عن الحب والكره كيف يمكن أن يتصل هذان الخطان فى نطاق الشعور ، ونطاق اللاشعور ، على نسق ما يتصل خطا الرجاء والخوف سواء بسواء .

والخطأ الثالث : أن أول خطين يبرزان فى النفس البشرية ويأخذان فى العمل ، وهما الخوف والرجاء ، لا يتصلان أدنى اتصال بأسطورة الجنس التى بنى عليها فرويد كل أوهامه ، وراح يفسر بها فى تعسف كل كيان النفس وكيان الحياة ! فهما متصلان بالعملية البيولوجية الأولى وهى حفظ الذات عن طريق الطعام . ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون « جنسية » ما دام يستوى فيها الرضيع الذكر والرضيع الأنثى بنفس الصورة ونفس

التفاصيل . وحين يتمحل فرويد فيقول إن الإحساس البيولوجى عند الرضيع هو إحساس جنسى ، وإن كل لذة بيولوجية من طعام أو شراب أو تبول أو تبرز هى لذة جنسية ، فعليه وزر هذا التمحل وحده . . فليس له عليه من دليل ! والحيوان ذاته — أبو الإنسان فى رأى دارون وفرويد — لم يقل عنه أحد إنه يتناول طعامه بلذة جنسية ، فما بال الإنسان وحده هو الذى تنصب عليه لعنة الجنس من المولد إلى الممات ؟ !

. . وإذ تبينا هذه الأخطاء فى نظرية فرويد ، نمضى فى الحديث عن خطى الخوف والرجاء .

* * *

الطفل البشرى شديد الشبه بالحيوان .. فهو يعيش فى نطاق ذاته وفى نطاق جسمه .. ولكنه سرعان ما ينمو نفسياً وشعورياً ، لأن فى كيانه الاستعداد الفطرى لهذا النمو .

ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أنه يكون جسما خالصاً فى أية لحظة من اللحظات عند مولده !

ولكنه يعنى على وجه التحديد أن الجانب الواعى منه — الناشىء فى الفطرة من نفخة الروح فى قبضة الطين — يكون « كامنا » فى كيانه لم ينشط بعد ، ولم يبرز إلى عالم العيان . كما تكون « الرؤية » كامنة فى جهازه العصبى ولكنها غير ظاهرة فى عينيه فى الأيام الأولى من الميلاد(١) .

(١) رغم أن الطفل البشرى يولد بعينيه مفتوحتين إلا أنه لا يرى بهما شيئاً على الإطلاق فى الأيام الأولى . ثم يأخذ فى الرؤية بالتدريج ، ولكنه لا يستطيع أن يركز بصره بعينيه الاثنتين معا قبل نهاية الشهر الأول ، حيث يستطيع أن يرى أمه بوضوح ويعرفها .

ومن ثم فإن خطّى الخوف والرجاء يعملان بادئ ذى بدء فى نطاق الحس ثم يأخذان رويداً رويداً يعملان على مستوى الكيان المتكامل الذى يشمل الجانب الحسى والمعنوى ممتزجين متحدين .

فهو فى أيامه الأولى يخاف ويرجو — كما أسلفنا — فى نطاق الثدى والحضن الآمن فحسب . أى فى النطاق المحسوس وحده ، وفى النطاق المباشر. ولكنه بعد فترة . . بعد أن يعمل « الوعى » فى كيانه . . يأخذ يخاف من الظلمة . . ومن الوحدة . . ومن وجوه الآخرين ! وهى أشياء لم يكن ليخاف منها فى بادئ الأمر لأنه لم يكن على وعى بوجودها !

وإذا كانت هذه أموراً حسية ، ولكن على نطاق أوسع من الثدى والحضن ، فإنه بعد فترة أخرى يبدأ يخاف ويرجو على نطاق معنوى وإن كان — بعد — على مقربة من النطاق الحسى . فهو حين يخاف من الوقوع ،أو من الصعود على شىء مرتفع لا يكون الأمر حسياً بحتاً ، وإنما يصاحبه لون من « التصور » للمسافات والأبعاد ، والآثار الحسية التى تنجم من السقوط . بينما كان الفزع من الظلمة أو الوحدة فى المرحلة السابقة خوفا « غريزيا » لا ينشأ من تصور شىء معين بالذات (وهو يفترق طبعاً عن الخوف الذى يمارسه الأطفال الأكبر سناً من الظلمة والوحدة ، والذى ينشط فيه الخيال فيهيىء للطفل مئات من الكائنات المخيفة والحالات المفزعة تثير الفزع فى حسه) .

فإذا ارتقى درجة أخرى أصبح يخاف ويرجو فى نطاق المعنويات إلى جانب الحسيات . . « فيخاف » من تعيير الناس له إذا أخطأ فى أداء عمل معين . و « يرجو » أن يوفق فينال إعجابهم . ويخاف أن يحرم من رضا أبويه عنه إذا أتى عملا معيناً ينهيانه عنه ، ويرجو أن ينال رضاهما بإتيان ما يشجعانه عليه من الأعمال . .

وهنا يبدأ فى دخول عالم « القيم » . .

لقد بدأ مرحلة حاسمة من مراحل نضوجه .. فلم يعد العمل — أىّ عملٍ — مستقلا فى حسه وقائماً بذاته ، وإنمـا أصبحت تصاحبه « قيمة » من القيم . .

قيمة تبدأ على نطاق أشبه بنطاق الحيوان . . بطريقة الفعل الشرطى المنعكس .. طريقة التلازم اللاإرادى بين الفعل ورد الفعل [كما يُعَوَّدُ الكلب مثلا على أن يُدَقّ له جرس ثم يعطى الطعام . فيتلازم الجرس والطعام فى جهازه العصبى . فإذا سمع الجرس بعد ذلك سال لعابه حتى ولو لم يكن هناك طعام] !

ولـكنها سرعان ما تنتقل إلى دائرة الوعى . . و « يفـكر » فيها الطفل تفـكيراً ملياً .. و « يتعلم » أنه حين يقوم بعمل ممنوع يصيبه الأذى ، وحين يقوم بعمل مرغوب يصيبه ما يسره ويبهجه .

وهذه الخطوة ذاتها تبدأ أولا على نطاق حسى . . فاللذة والألم اللذان يتعامل معهما أولا ، واللذان يُنْشِئان « القيم » فى نفسه هما لذة وألم حسيان . ولـكنه بعد فترة يرتقى فتصبح اللذة المعنوية والألم المعنوى — كابتسام الأم وتشجيعها ، أو عبوسها وتأنيبها — حافزين واقعيين لإنشاء القيم وتعميقها فى النفس .

ثم تنمو نفسه وتتسع .. فيصبح الخوف والرجاء ملء عالمه كله ، مشتبكين بكل حسياته ومعنوياته ، بكل أعماله ومشاعره ، بكل أفـكاره ومبادئه . . بكل لحظة تمر عليه فى هذه الحياة !

* * *

وسوف نتحدث بقدر من التفصيل عن بقية الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية . ولـكن لا يفوتنا هنا أن نلاحظ ملاحظة هامة ورئيسية ...

فقد رأينا ونحن نستعرض خطّى الخوف والرجاء ، أننا لا نستعرضهما وحدهما فى الحقيقة ! فقد لمسنا معهما صراحة أو ضمنا أزواجاً أخرى من الخطوط المتقابلة فى النفس . . دون أن نقصد !

لمسنا صراحة خطّى الحسية والمعنوية ونحن نشرح مراحل النمو فى خطّى الخوف والرجاء ! وكذلك خطّى الواقع والخيال وما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس ! [سنعود إلى هذه الخطوط بالتفصيل لنبين ما بينها من فوارق دقيقة] ولمسنا ضمنا خطّى الحب والكره وإن لم نشر إليهما إشارة واضحة . فالحب والكره شديدا الصلة بالرجاء والخوف . كل ما يرجوه الإنسان وكل من يرجوه فهو يحبه ، وكل ما يخافه ومن يخافه فهو يكرهه (على وجه التقريب) . [وإن كانت هنا فروق مميزة بين الخطين سنشرحها فى الفقرة التالية] كما أن كل الخطوط الأخرى التى ذكرناها فى مقدمة الفصل من فردية وجماعية وسلبية وإيجابية والتزام وتطوع ، متضمّنة فى بعضها البعض ، بحيث يستحيل فصل أيها عن الآخر رغم تميز بعضها عن بعض فى « اختصاصاتها » .. كما يستحيل فصل عضو من الجسم عن عضو آخر — رغم تميزه فى اختصاصه — بسبب ترابط الأعضاء كلها فى النهاية لتكوين جسم الإنسان .

وهذا دليل آخر نضيفه إلى ما سبق أن ذكرناه على توحد الكيان النفسى للإنسان بالرغم من ازدواج طبيعته ، وما ينشأ عن هذا الازدواج من تشعب وتعدد واتساع !

الحب والكره

الحب والكره خطان شديدا العمق فى النفس الإنسانية ، حتى ليبدو لأول وهلة — كما بدا لفرويد — أنهما الخطان الأولان فى كيان النفس . ولكننا رأينا فى الفقرة السابقة ونحن نتدرج مع الطفل منذ مولده ، أن خطى الخوف والرجاء أسبق ظهوراً ، لأنهما ملتصقان بذات الطفل ، قبل أن يعرف الحب والكره ، اللذين يربطان بينه وبين عالم خارج عن كيان ذاته . .

ومن ثم يبقى الخوف والرجاء — المتصلان بالذات — أعمق خطين فى الكيان البشرى وأوسع خطين ، رغم السعة والعمق اللذين يتصف بهما خطا الحب والكره فى كيان الإنسان !

ويكاد الحب والكره يشملان نفس المجال الذى يشمله الخوف والرجاء ، ولكن هناك فوارق فى « الشكل » وفى « الموضوع » !

فالدائرتان لا تنطبقان انطباقاً كاملا .. وإنما تشتركان فى جزء كبير منهما ، ثم تختص كل منهما بجانب لا تشاركها فيه الأخرى . فالخوف والرجاء يشتركان مع الكره والحب فى نطاق معين .. ولكنهما يفترقان بعد ذلك . فقد يحب الإنسان شيئاً أو شخصاً لا « يرجوه » لشىء معين . وقد يكره شيئاً أو شخصاً لا يخاف منه . وإنما يحبه لأن هناك « انسجاما » و « توافقاً » و «التقاء » و « امتزاجاً » بينهما . ويكرهه لأنه لا التقاء بينهما ولا انسجام . وفى الوقت ذاته قد يحب الإنسان شيئاً يخافه ، كما يحب الإنسان المخاطر ، وقد يكره شيئاً ويرجوه ! كما يرجو لنفسه السلامة فى موقف معين ، ثم يكره ما يصيبه من خزى فيه ! هذا إلى جانب أن هناك فارقاً أساسياً فى « طعم » كل من الشعورين

واتجاههما : الخوف والرجاء أمران لاصقان بالذات ، متمركزان حولها ، واتجاههما نحو الداخل . نحو المركز . أما الحب والكره فشعوران نابعان من الذات ولكن متجهان نحو الخارج .. نحو الآخرين .

* * *

ومن العسير وصف هذه المشاعر الأولية .. سواء الخوف والرجاء أو الحب والكره . . وهي من بديهيات النفس التي لا تحتاج إلى وصف ، وإنما يدركها كل إنسان كما يدرك الجوع والعطش واللذة والألم بمجرد أن يمارسها في واقع كيانه . ولكن ربما كانت « الجاذبية » في الطبيعة ، وهي ظاهرة تجاذب الأجسام [أو تنافرها] ، هي أقرب الصور للحب والكره في النفس . وهناك — في هذا الشأن بالذات — مشابه عجيبة بين الجاذبية وقوانينها في الطبيعة ، وبين الحب والكره ومظاهرهما في الإنسان :

فالذي يرقب قطعة الحديد الموضوعة أمام المغنطيس ، كيف تهتز وتضطرب ، ثم تتجه إلى المغنطيس في قوة متزايدة حتى تلتصق به .. ثم يرقب كيف تهتز نفس بشرية تجاه نفس اهتزازة الحب ، ثم تتجه نحوها في قوة متزايدة حتى تلتصق بها ولا تريد أن تفارقها . .

والذي يرقب تنافر القطبين المتماثلين في المغنطيسية . . كيف يهتز أحدهما أو كلاهما في حركة نفور وتباعد حتى ينتهي بهما الأمر على وضع من النفور .. ثم يرقب شعور الكراهية في نفسين بشريتين : كيف تهتز إحداهما أو كلتاهما في حركة نفور وتباعد حتى يستقر الأمر بينهما على النفور . .

الذي يرقب هذه العملية وتلك يجد مشابه عجيبة بين هاتين العمليتين في عالم المادة وعالم النفس ، حتى ليعجب بادئ ذي بدء :هل الحب والكره —

فى صورتهما الحسية على الأقل — ميراث ورثته النفس من مادة الكون ؟ !

والذى يدرس ظاهرة الجاذبية من داخلها [وإن كان لا يصل إلى كنهها ، فتلك من المجاهيل التى لم تكشف للإنسان] ، ويعرف سلوك الأمواج الكهرطيسية [الكهربائية المغنطيسية] التى تسبب التجاذب أو النفور ، ثم يرقب « الأمواج الشعورية » التى تختلج بها النفوس فتكره أو تحب . .

الذى يدرس هذه الظاهرة وتلك ، يجد مشابه عجيبة بين عالم الإشعاع فى الكون وبين النفوس البشرية ، حتى ليعجب : هل الحب والكره — فى صورتهما النفسية — ميراث ورثته النفس من عالم النور وعالم الإشعاع ؟ !

والذى يدرس التنويم المغنطيسى — وهو ظاهرة معترف بها — ويرقب كيف تنتقل الأفكار والمشاعر والأحاسيس من نفس إلى نفس مع الأمواج المحسوسة الصادرة من المنوِّم إلى المنوَّم . . يعجب لهذا الامتزاج بين الحسىّ والمعنوى فى كيان الإنسان !

* * *

وكما ينشأ الخوف والرجاء فى نطاق المحسوس أولا ، ثم يرتقيان إلى نطاق المعنويات . . فكذلك ينشأ الحب والكره فى نطاق المحسوس ثم يرتقيان إلى نطاق المعنويات .

وكما يَعْبُر الخوف والرجاء قنطرة الثدى والحضن ، ليصلا من الحسىّ إلى المعنوى ، فكذلك يعبر الحب والكره القنطرة ذاتها ليصلا من الحسىّ إلى المعنوى .

أول حب يحسه الطفل هو حبه لأمه . . التى ترضعه وتحتضنه . فالحب — كما ترى — متصل اتصالا كاملا فى أول ظهوره بالثدى والحضن .

وقد زعم فرويد بطبيعة الحال أن هذا الحب جنسى ! وتعسف وتمحل ليقول إن كل لذة بيولوجية — من طعام أو شراب أو تبول أو تبرز أو حركة عضلية — هى لذة جنسية ، على أساس أن الكيان البيولوجى ذاته مصبوغ بصبغة جنسية ، فكل ما يصدر عنه ملوث بلوثة الجنس !

وبصرف النظر عن هذا التعسف « الاستبدادى » الذى لا يحمل دليله فى هذا الفرض .. فإننا نتمشى مع فرويد خطوة أخرى لنكشف زيف نظريته على نطاق أوسع . .

فالحب — دون شك — يتعدى بعد قليل نطاق اللذة البيولوجية ، فيتجه « لشخص » الأم ذاتها حتى فى غير ساعات الثدى والحضن . . إنه يعبر القنطرة كما قلنا ويصل إلى نطاق « المشاعر » . . والطفل يحب أمه قطعا لأنها هى التى ترضعه وتحتضنه .. ولكن امتداد الحب إلى ما بعد لحظة الرضاعة والاحتضان هو بدء الدخول فى العالم المعنوى ، الذى ينبنى على أساس حسى ولكنه ليس حسيا خالصا على أى حال .

فى هذه المرحلة . . التى لا يكون فيها الحب بيولوجيا بحتا . . . حين يبدأ الحب يصبح أمرا « نفسيا » أكبر من الكيان البيولوجى . . كيف يتجه الطفل الذكر والطفلة الأنثى نحو أمهما بالحب ، إذا كان هذا الحب مسألة « جنسية » كما يزعم صاحب التفسير الجنسى للسلوك البشرى ؟ !

ثم إن الذى يثبت لنا أن هذا الحب « حب » لا « جنس » .. أن الطفل بعد فترة يأخذ فى الارتياح إلى أشخاص آخرين غير أمه . . منهم الأب ، ومنهم الأقرباء والأصدقاء . . فيلصق بهم ويهفو إليهم .. وإن كان أحد منهم لا يغنى — بعد — عن الأم . وإنما هو مجرد مظهر لاتساع الحب فى نفس

الطفل مع اتساع إحساسه بالكون الخارجى ، الذى يقع خارج نطاق ذاته . وفى هذا يستوى الطفل والطفلة بلا تمييز . مما يثبت أن أسطورة الجنس فى هذه المرحلة من العمر غير قائمة على أساس !

إنما يجىء الحب الجنسى فى مكانه الطبيعى من مراحل النمو ، حيث تحتاج إليه البنية النفسية للكائن الحى ، ليؤدى دوره البيولوجى المقسوم .

* * *

هل يظهر الحب وحده فى عالم الطفل دون الكره فى مبدإ الأمر ؟

لقد قال فرويد نفسه فى كتاب «Totem and Taboo» إن حب الطفل لأبيه يسيطر على نفسه وحده لفترة من الوقت ، قبل أن يظهر الكره فى عالمه الشعورى تجاه الأب — فيما يزعم — بسبب منافسته على الأم .

ويبدو على أى حال أن الحب — وهو فى عالم الطفل الرضيع عبارة عن « الالتصاق » — يكون أول الخطين المتقابلين فى الظهور . ويكون الخط المقابل له كامناً فى النفس لأنه لا يجد بعد ما يثيره . ولكنه ولا شك موجود. فهو يكره مثلا أى شخص يحاول أن ينتزع الثدى من فمه . ولو كانت أمه ذاتها التى يحبها . ويكره أى شخص يحاول أن ينتزعه هو من حضن أمه . ولو كان أباه الذى يحبه [حتى يألفه بالدرجة التى يستريح فيها إليه كما يستريح للأم ، أو يكون راغباً من تلقاء نفسه فى الذهاب إليه] . ثم هو فى مبادئ مرحلة الوعى هذه يكره وجوهاً معينة وأشخاصاً معينين بغير سبب ظاهر . . ولو توددوا إليه . وكل ذلك يثبت وجود الكره فى النفس فى تلك المرحلة المبكرة ، ملازما لظهور الحب أو لاحقاً له بقليل .

ولكن الأسطورة التى رددها فرويد فى معظم كتبه عن الازدواج

العاطفى Ambivilence بمعنى نشوء الحب والكره نشوءاً ذاتياً فى وقت واحد تجاه كل شىء وكل شخص يقع فى عالم الإنسان . . أسطورة لا دليل عليها من الواقع . . إلا هذه الظاهرة الخادعة ، وهى أن الإنسان كثيراً ما يكره الشخص أو الشىء الذى يحبه دون أن يعى الأسباب الدافعة إلى هذا الكره .

وهى ظاهرة خادعة كما قلنا لأن الكره فى كل حالة له سبب .وحين يحدث أن يختفى السبب فى اللاشعور فليس معناه أنه لم يكن موجوداً بادئ ذى بدء فى نطاق الشعور ، أو أنه نشأ نشوءاً ذاتياً من الحب وبسبب الحب كما يزعم فرويد .

فالطفل يكره أمه — التى يحبها حباً لا شك فيه — لأنها تنزع الثدى من فمه [حين ترى أنه يحسن كفه عن الرضاعة] بينما يحس هو — من وجهة نظره — أن الثدى ملكه هو ، وهو صاحب التصرف فيه ، وهو الذى ينبغى أن يعلن الاكتفاء منه حين يريد! ويكرهها لأنها تنزع عنه ملابسه حين تتسخ وتلبسه ملابس غيرها ، فى حركات تضايقه وتحز فى نفسه كما تحز فى جسمه ! ويكرهها لأنها تبل جسمه بالماء حين تحممه ، ولا تصيخ لصراخه فتكف عنه هذه المهمة الثقيلة ! ويكرهها لأنها تكفه عن لمس أشياء يرى هو أن من حقه أن يلمسها ، أو قضم أشياء [ضارة] يرى هو أن من حقه أن يختبرها بأسنانه « ليعرفها » . . إلخ . . إلخ . . وكلها أسباب تنشئ الكره . ويتبدى هذا الكره فى ضرب الطفل لأمه على وجهها وما يطوله من جسمها فى أثناء الرضاع أو فى غير الرضاع . ولكن هذا الكره كله لا يقوى على مواجهة الحب العميق العنيف الذى يحس به نحو أمه . ومن ثم يكون مؤقتاً ، وفى صورة نزوات ، ويظل الحب — قبلها وبعدها — هو المسيطر على مشاعره

تجاه أمه . وسواء رسب هذا الكره فى اللاشعور أم بقى فى دائرة الشعور [وهذا ممكن] فهو كره مسبب ، وليس بلا سبب كما يزعم فرويد .

ويكره الطفل أباه — الذى يحبه حباً لا شك فيه — لأنه تتمثل فيه القوة الآمرة الناهية ، التى تضع حداً لتصرفات الطفل السائبة بلا حدود . فهو يمنعه من الإمساك بهذا الشىء أو ذاك . أو يمنعه من قضمه . أو ينهره بشدة إذا أتى عملا لا يرضى عنه . أو يضربه . أو يمتنع عن حمله . أو يتركه ويخرج لعمله وهو متعلق بحضنه .. إلخ . . إلخ . . وكلها أسباب تنشئ الكره . ويتبدى الكره كذلك فى ضرب الطفل لأبيه أو عضه له ! ولكن هذا الكره كله لا يقوى على مواجهة الحب العميق العنيف الذى يحسه نحوه . ومن ثم يكون -- ككرهه لأمه —مؤقتاً وفى صورة نزوات. ويظل الحب هو المسيطر . وسواء رسب الكره فى اللاشعور أم بقى فى دائرة الشعور فهو كره مسبب ، ليس ناشئاً نشوءاً ذاتياً من الحب ، وليست المشاعر الجنسية تجاه الأم داخلة كذلك فى أسبابه . . إلا فى مظهر واحد خادع . . فالطفل يغار على أمه حقاً لأنه يشعر بالامتلاك الكامل لها . فهو يكره أن ينافسه فيها أحد البتة . يستوى فى ذلك أبوه أو أى أحد غيره .. ولكن أشد من يكره منافسته ليس أباه . . وإنما هو الطفل الوافد بعده ، الذى يخلفه على الثدى والحضن ، وينتزعه من مملكته وينزله من عرشه ! ذلك هو الذى لا يطيقه الطفل بحال !

أما أسطورة العشق الجنسى للأم ، وكراهية الأب بسبب منافسته عليها ، فالذى يهدمها من أساسها أن الطفلة كذلك تشعر بالامتلاك الكامل للأم ، وتكره كل من ينتزعها منها وبخاصة الوافد الجديد !

والحالات التى أفنى فرويد عمره فى تحليلها ليثبت أن كراهية الطفل لأبيه عميقة جداً فى لا شعوره ، ومرتدة إلى أيام الطفولة الأولى . حالات نحن على

استعداد كامل للتسليم بها ، سواء كانت شاذة أو سوية .. ولكن الذى لا نسلم به — لأنه لا يحمل أى دليل علمى — هو أن سبب الكره هو العشق الجنسى للأم [عقدة أوديب] والشعور بمنافسة الأب — جنسياً — فى الاستيلاء على الأم .

يقول فرويد إن الأحلام التى يرى فيها الطفل حيواناً مزعجاً يهجم عليه ويهم بافتراسه هى تعبير لا شعورى عن كراهية الأب . .

ويروح « يتعمق » جداً فى البحث ، فيقول إن حلول الحيوان محل الأب فى الرمز اللاشعورى الذى يستخدمه العقل الباطن فى الحلم ، سببه أن البشرية الأولى قتلت أباها لتستأثر بأمها (! !) ثم أحست بالندم على ذلك فقدست ذكرى الوالد وعبدته تكفيراً عن خطيئة القتل . ثم استبدلت به عبادة الحيوان . ومن ثم رسب فى لا شعور البشرية استبدال الحيوان بالأب . وصار اللاشعور — حين يحب أن يرمز إلى كراهية الأب — يرمز لذلك بحيوان مفترس هاجم على الطفل .

وهذه اللفة الطويلة الملتوية التى يلفها فرويد .. سنفترض جدلا أنها صحيحة بحذافيرها !

فلماذا تحلم الطفلة الأنثى كذلك بحيوان مفترس هاجم عليها ؟ ! بينما هى — فى زعم فرويد تعشق أباها عشقاً جنسياً ، وتكره الأم التى تنافسها فى هذا العشق [عقدة إليكترا] والأم لم يقتلها أحد ، ولم يقدس ذكراها أحد تكفيراً عن الخطيئة ، ولم يستبدل بها أحد عبادة الحيوان ؟ !

* * *

أما الكره الموجه للناس عامة .. « للآخرين » كلهم .. فله كذلك أسباب !

سببه هو الوجود ذاته !

فالطفل — أو الإنسان عموماً — يكره الآخرين لأنه يحب ذاته ! ويحب الخير لذاته : « إنه لحب الخير لشديد »[1] « وأحضرت الأنفس الشح »[2]. وما دام متمركزاً حول ذاته ، شاعراً بوجودها شعورا مبالغا فيه ، فإنه يكره الآخرين لمجرد وجودهم ! لأنه يحس وجودهم ضاغطاً على وجوده ،مضيقا عليه.

وهذا هو « الغل » الذى يقول القرآن إن الله سينزعه من قلوب المؤمنين يوم القيامة [أى أنه موجود فى قلوبهم فى الدنيا !] : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل، إخوانا فى سرر متقابلين »[3] .

وسنتحدث فى نهاية الفصل عن « التهذيب » الذى يشمل الخطوط النفسية كلها ، وبخاصة خطّى الخوف والرجاء ، والحب والكره ..

وهو تهذيب — كما سنتبين — ضرورى للحياة البشرية فى مجموعها .

ولكننا نود أن نشير هنا إلى أن الكره لا يكون وحده مسيطراً أبداً على النفس السوية .. ولا يتحول إلى حقد إلا فى النفوس المريضة المنحرفة .. لأن الحب الذى يحسه الإنسان للناس عامة .. للآخرين كلهم.. هو حب فطرى وعميق . وهو يعمل على موازنة الكره فلا يطغى على الإنسان ، حتى مع شعوره بذاته ، وحب الخير لنفسه .

وإنما يعمل التهذيب على التقليل إلى آخر مدى من ذلك « الغل » الموجه للآخرين ، بوسائل سنذكرها فى أثناء التعقيب على الخطوط المتقابلة. ولكنه لا يفرض على الإنسان شيئاً من خارج نفسه ، ولا « يكبت » طاقة الكره

(١) سورة العاديات [٨]   (٢) سورة النساء [١٢٨]
(٣) سورة الحجر [٤٧]

بحيث تحتدم — مكبوتة — فى داخل النفس وتوجه خط سير الحياة من وراء الستار كما زعم فرويد فى كتبه كلها ، وخاصة كتاب « Totem & Taboo » الذى يصف فيه الحياة الاجتماعية والوجدانية والدينية والفكرية للبشرية من خلال عقدة أوديب والازدواج العاطفى الذى سبقت الإشارة إليه ، والذى يزعم فيه أن الكره ناشئ من الحب — ضريبة مفروضة بغير أسباب !

* * *

هذا الحب . . الذى يبدأ متصلا بالثدى والحضن ، ثم يعبر هذه القنطرة إلى عالم « المشاعر » والمعنويات . . . إنه عالم عجيب جدا . . رائع جدا . . ونبيل جدا :

إنه يظل يرتفع ويتسع .. من نقطة الثدى الصغيرة التى تكوّن عالم الطفل كله . . حتى يشمل العالم كله .. حقيقة لا مجازا .. يشمل الكون كله والحياة كلها والإنسان . . ويصل إلى الله .

إنها طاقة ضخمة جدا . . وذات استعداد عجيب للسعة والارتفاع . .

فبعد أن يحب الطفل أمه كلها . . لا ثديها وحضنها فحسب . . بل هى كلها كذات مستقلة عنه ، حبيبة إليه ، وبعد أن يحب أباه كذلك ، ويحب من حوله من الناس ممن يلاطفونه ويلاعبونه ويعاونونه على الحركة والسير والكلام والتفكير . .

يتسع عالمه الحسى ويتسع معه كذلك نطاق الحب ومستواه .

لقد أصبح يحب أمكنة معينة وأشياء معينة . . و « مواقف » معينة .

يحب اللعب وأدوات التسلية والحلوى والطعام . . . إلخ .

ويحب أن يُحْمَل .. وأن يدلل .. وأن يناغَى .. وأن يُبْتَسَم فى وجهه .. وأن يشجّع . .

هذه ليست مسائل حسية . . أو ليست حسية خالصة . فهى مواقف « معنوية » . إنها – فى عالمه — قيم وأعمال . . وليست أعمالا فحسب .

وطبيعى أن « القيم » التى يحبها بادئ ذى بدء هى القيم اللاصقة بذاته ، التى تحدث له المتعة والسرور .

ولـكن عملية النمو العجيبة التى وهبها الله للإنسان ، تخرج به من حدود ذاته المفردة ، على خط « الجماعية » الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، فيحب الآخرين ، ويحب — بالتدريج — قيما تستلزمها الحياة مع الآخرين . .

ونمو هذه القيم ليس أمرا هينا فى مبدئه . . بل إنها لتكون كريهة فى بادئ الأمر . . تقع فى دائرة الـكره لا فى دائرة الحب . .

ورويدا رويدا تنتقل . . فتنزلق من خط الـكره . . حتى تصل إلى خط الحب . . ثم تصعد معه درجة درجة حتى تصل إلى أعلى الآفاق . .

عندئذ يحب الإنسان « العدل» و«الرحمة » و« الصدق » و«الشجاعة » و « الإنسانية » . .

ويحب الـكون . . يحب « الطبيعة » . .

ويحب الجمال .

ويحب الحياة والأحياء . .

ثم يصل إلى القمة القصوى فيحب الله . .

ويعود هذا الحب العلوى فينشر ظلاله على كل أنواع الحب . . فيربطها بالله . .

وتلك قمة الحب فى النفس البشرية حين تصل غايتها من الصفاء . . عند الطرف الملائكى من الإنسان . .

ثم تحدث عجيبة من العجائب فى خط الحب . .

لقد قلنا إن خطّى الحب والكره هما الخطان الثانيان فى تكوين النفس .. والخطّان الأولان هما الخوف والرجاء ، اللصيقان بذات الإنسان .

ولكن الحب .. هذا العنصر النورانى الشفيف .. يصنع أحيانا المعجزة .. يرفع الإنسان على ذاته .. يرفعه على ذاته فيغيّر — مؤقتا على الأقل — تركيب نفسه . . ويصبح الحب هو الخط الأعمق والأوسع ، حتى ليغلب فى نفسه خط الخوف وخط الرجاء . . وعندئذ يضحّى الإنسان نفسه ، اللصيقة بالخوف والرجاء ، فى سبيل « القيم » . . فى سبيل الله !

ليس هذا هو الإنسان « العادى » . . فنى الإنسان العادى يكون ترتيب الخطوط كما ذكرنا ؛ الخوف والرجاء أولا ، ثم الكره والحب . . ولكن الإنسان الذى يرتفع على الخط العادى تتسع دائرة الحب فى نفسه ، ويكون ارتفاعه بمقدار اتساع هذه الدائرة ، حتى تغلب فى النهاية الخوف والرجاء الأرضى كله . . ويتبقى الخوف والرجاء من الله وحده . .

والقمة البشرية فى هذا الأمر هم الأنبياء .. الذين يغلب الحب فى نفوسهم على كل ما يتصل بأشخاصهم من الخوف والرجاء . .

* * *

وينبغى قبل أن نختم هذه الفقرة أن نسجل لفرويد الحقائق الجزئية التى اهتدى إليها بشأن هذين الخطين المتقابلين فى النفس البشرية ، وهما اللذان صرف إليهما كثيرا من جهده وأبحاثه ، وإن كان قد تعسف كما رأينا فى وضع الأساس الذى يفسر به هذه الجزئيات .

فقد اهتدى إلى الترابط الوثيق بين خطّى الحب والكره . وإن كان لم يدرك أنها ظاهرة شاملة لكل خطوط النفس المتقابلة .

واهتدى إلى اجتماع الحب والكره أحيانا تجاه الشىء الواحد أو الشخص الواحد [Ambivilence] وإن كان أصر على أن هذه هى الحالة الدائمة ، وأصر كذلك على تفسيرها بأنها ظاهرة طبيعية لا أسباب لها ! وقد رأينا أنها حالة ذات أسباب ، ومن ثم يمكن على الأقل تعديل المقادير بحيث يكون الحب هو الأقوى والأدوم والأعمق .

واهتدى أخيرا إلى أن الإنسان ينتقل أحيانا — بلا سبب ظاهر — من حب شىء أو شخص إلى كراهيته والنفور منه فجأة أو تدريجا . وتلك ملاحظة صادقة ولاشك . ولكنه اتخذ منها دليلا على وجود الكره تلقائيا مع الحب — بدون سبب — تجاه كل شىء وكل شخص [Ambivilence] ، وقال إنها مجرد انقلاب للوضع ، بحيث يتحول الكره الذى كان مكبوتا فى اللاشعور إلى كره واعٍ على السطح ، ويكبت الحب المقابل له فى اللاشعور !

ولا نستطيع أن نؤيده فى هذا التفسير . . ففضلا على أنه لم يفسر الظاهرة ذاتها ، لم يفسر سبب هذا الانقلاب المفاجئ أو التدريجى . . سبب تحول اللاشعور إلى شعور . . إذ أنها ليست ظاهرة دائمة ولا شاملة ولا عامة عند جميع الناس.. وإنما هى حالات فردية فى المشاعر وفردية عند الأشخاص..

فضلا عن أنه لم يفسر الظاهرة ذاتها وإنما سجل حدوثها فقط ، فإنه اتخذ منها دليلا اعتسافياً لإثبات أمر لا تثبته بالضرورة .. فهو كـكل شيء مما تناوله فرويد ، يحتمل أكثر من تفسير .

أما نحن فلا نقول فى هذه الظاهرة إلا ما قال الله سبحانه فى كتابه : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه[1] ». وإلا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفها كيف يشاء[2] .

فكل شيء يمكن أن يفسر بالعلم والمنطق . إلا تحوّل القلوب !

* * *

الحسية والمعنوية

هذان الخطان .. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية فى الإنسان ينبعان بصورة ظاهرة من حقيقة الجسد والروح التى بنينا عليها ازدواج الطبيعة البشرية .. وإن كان ينبغى أن يقر فى أذهاننا دائماً أن الإنسان كيان موحد بالرغم من ذلك الازدواج .

«الطاقة الحسية هى طاقة الجسد المتصلة بالحواس والأعصاب والكيماويات والبيولوجيات والفسيولوجيات . والطاقة المعنوية لا يدرى أحد على وجه التحديد « مكانها » و « ماهيتها » ولكنها هى التفكير التصورى التجريدى الذى يدرك « الكليات » و « المعنويات » . يدرك « الفضيلة » . يدرك « القيم العليا » . يدرك « العدل » . يدرك « الحق » . يدرك « الجمال » .. وما إلى ذلك من كليات ومعنويات وتجريدات »[3] .

(١) سورة الأنفال [٢٤] (٢) حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده

(٣) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

يقول چوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » فى فصل « تفرد الإنسان » : « أول خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً قدرته على التفكير التصورى . . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة . . »

ويقول فى موضع آخر من نفس الفصل : « وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان والتى يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية ، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبى لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية) ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان ، وهى بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية ، ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية والتذوق والإبداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالى » .

* * *

الطاقة الحسية هى طاقة الجسم . . المتمثلة فى الطعام والشراب والجنس . . والطاقة العضلية المتحركة المنتجة فى عالم الحس وعالم المادة .. طاقة « العمل ».

وواضح أنها الطاقة الأولى التى تولد فى الإنسان ، والتى تكون — فيما

عدا طاقة الجنس — قد نمت نمواً ظاهراً مطرداً ملموساً، قبل أن تأخذ الطاقة المعنوية فى النمو . .

وليس معنى ذلك — كما أشرنا آنفا — أن الإنسان يولد وهو طاقة حسية فحسب . أى يولد جسداً خالصاً .أو حيواناً خالصاً . وإنما توجد فى داخل كيانه الطاقة المعنوية المقابلة والمكملة للطاقة الحسية . ولكنها ، كما مثلناها من قبل ، تكون كامنة كالقدرة على الإبصار التى لا تنمو إلا بعد حين .

يولد الطفل بحواس — تقوى تدريجياً — وعضلات — تقوى كذلك تدريجياً — وأجهزة جثمانية تأكل وتشرب وتفرز . . وهذا هو الكيان الحسى للإنسان .

طاقة الجنس وحدها — من بين الطاقات الحسية — هى التى تتأخر فى الظهور ، فتظل كامنة فى الجسم حتى يأتى دورها المقدور .

ولذلك حكمته عند الخالق المبدع القدير . .

فالإنتاج الجنسى — حتى عند الحيوان — يستلزم قدراً معيناً من النمو الجسدى و « النفسى »[1] ليتحمل الكائن — ذكراً كان أو أنثى — ما يتطلبه اللقاء الجنسى من جهاد وبحث وكد حتى يتم ؛ ثم يحتمل ما يترتب عليه من نتائج : الذرية وما تستلزمه من إطعام وعناية وتربية ورعاية .. الخ .

ومن ثم ينبغى أن يكون الكائن قد نضج فى المجال الجسدى والنفسى ليصبح صالحاً للإنسال . ولا يصلح أن يكون أداة للنسل ، بينما هو طفل بعد يعوله غيره فى أمور جسده ، ونفسه ، ولا يحتمل المشقة والجهد والتبعات .

ومن أجل ذلك يصبح ظهور الطاقة الجنسية فى الطفولة الباكرة أمراً

(١) نستخدم النفس عند الحيوان مجازا ، وعند الإنسان حقيقة .

لا مقتضى له ولا مبرر .. لأنه لا يؤدى فى ذلك الوقت أية وظيفة للكائن الحى .

والخالق المبدع القدير يضع كل شىء فى مكانه المقدر المضبوط ، حسب حكمته العليا التى لا يسبقها علم ولا يعلوها علم . . والتى تتنزه عن الخطأ والعبث والإسراف : « إنا كل شىء خلقناه بقدر[1] » « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت[2] » .

والدقة المتناهية المضبوطة فى الكون العريض كله ، التى تنتظمه من أوله إلى آخره فلا يختل توازنه ولا يخرج عن مداره قيد شعرة ولا مترا من سرعة الشعاع ! هذه الدقة هى التى تضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، وتضع الجنس فى مكانه الصحيح من كيان الإنسان وحياته .

لذلك كان عجباً ما زعمه فرويد من أن الكيان الجنسى يولد نشيطاً مع الطفل ، ويتخذ صوراً متعددة حتى يصل إلى مرحلته الطبيعية . وهى الميل إلى الجنس الآخر فى مرحلة البلوغ !

وكل الأدلة التى حشرها فرويد حشراً ليدلل على صحة قوله . . أدلة مردودة ، لأن تفسير فرويد لها ليس هو التفسير الوحيد ولا التفسير الرشيد ! وإنما التفسير الأصح هو الذى يشمل ظواهر أكثر والذى يكون أكثر تمشياً مع النواميس العامة . وهذه كلها تشير إلى أن ظهور طاقة الجنس فى أية صورة فى مرحلة الطفولة الباكرة أمر لا معنى له ولا ضرورة .

وسنتحدث بشىء من التفصيل عن طاقة الجنس فى الفصل القادم ، ونحن نتحدث عن « الدوافع والضوابط » . . فنكتفى هنا بأن نقول إنها طاقة تظهر متأخرة فى المجال الحسى — والنفسى كذلك — لأن دورها فى حياة

---

(١) سورة القمر [٤٩]   (٢) سورة الملك [٢] .

الإنسان يتأخر إلى ما بعد مرحلة الطفولة . . فلا قيمة لظهورها قبل الأوان .

ولا ينفى هذا أن الطفل الصغير يأخذ فى «التعرف» على جسده وأعضائه الجنسية فى مرحلة مبكرة . . ولكن هذه العملية — كما يقول علماء النفس جميعاً — لا تحمل طابع الجنس . وإنما هى كما قلنا عملية تعرّف . . وحتى حين يكتشف الطفل بعبثه الصبيانى أن هذه المنطقة ذات حساسية خاصة ، فيزداد عبثاً بها ليزداد إحساساً بما تحدثه من لذة . . فهى مسألة لا علاقة لها بمشاعر الجنس فى تلك المرحلة التى لا يدرك فيها الطفل معنى الجنس .

وحتى حين ينحرف الطفل انحرافاً شاذاً بتأثير التوجيه الفاسد من الكبار أو الأقران ، فيعرف عملية الجنس كلها قبل أوانها ، ويعرف ما يستخدم فيها من الأعضاء ، ويشير إلى ذلك فى كلامه وألفاظه وحركاته ، فكل ذلك إرهاص فقط وليس حقيقة . . إرهاص بالدور المقبل . لا يزيد عن لعبة « الفروسية » التى يستخدم فيها الطفل عصاه على أنها حصان . . لا تحمل من معانى الفروسية الحقة ومشاعرها أكثر من الإرهاص !

وليس معنى ذلك كله أن الطفل لا يدرك شيئاً من مشاعر الجنس حتى البلوغ . فالخالق المبدع القدير قد جعل عملية النمو كلها تدريجية بطيئة . . ولم يجعلها مفاجئة إلا فى بعض « مظاهرها » دون حقيقتها . . ومن أجل ذلك يأخذ الطفل فى لمحات متوالية يدرك مشاعر الجنس . . ولكن على غير طريقة فرويد التى تنسب كل شىء إلى مشاعر الجنس ، من رضاعة وتبول وتبرز ومص إبهام وحركة عضلية وحب للأم !

حرام . . أن نلقى القول على عواهنه هكذا بغير دليل ! (١)

---

(١) حالات الشذوذ النفسى التى اتخذها فرويد دليله الأوحد فى متاهة الجنس هذه، سلناقشها فى الفصل القادم .

يولد الطفل بطاقته الحسية — فيما عدا الجنس — مستعدة للعمل ، إما مباشرة ، وإما فى الأيام أو الأسابيع الأولى على أكثر تقدير . .

ومن طريقها يتصل بالحياة ويمارسها ويأخذ خبراتها . .

فهو يرى الأشياء ويسمعها ويتحسسها ويذوقها — وقد يشمها — ليتعرف عليها . وتعرفه عليها يمنحه خبرة بها ، ثم يجعله — بالتدريج البطىء — يدرك أنواعاً من الترابط بينها .

ومن هنا تبدأ الطاقة المعنوية فى العمل ، مستندة فى أساسها على الطاقة الحسية .

وتلك نقطة الوسط . . نقطة التحول ، أو القنطرة التى يعبرها الطفل ليصل إلى الطرف الآخر . . إلى الأمور المعنوية الخالصة .

وقد تتبعنا من قبل — ونحن نتحدث عن خطّى الخوف والرجاء والكره والحب — بعض أنواع النمو من الحسىّ إلى المعنوى . وهنا نقول إنها ظاهرة عامة لا تختص بهذا الخط أو ذاك . . وإنما تشمل كل النشاط البشرى . كله يبدأ فى نطاق الحس . . ثم يعبر القنطرة ويصل إلى النطاق المعنوى . . ثم يظل فى حياة الإنسان كلها يتأرجح بين هذه النقطة وتلك ، ويعبر القنطرة ذاهباً وآيباً ، فى لحظات البروز والانحسار الدائمة التداول فى الكيان البشرى.. ولكنها لا تكون قط حسية خالصة ولا معنوية خالصة إلا فى ظاهرها . . أما حقيقتها فهى أنها مزيج تتعدد نسبه وأشكاله ، ولكن لا تتغير حقيقته المكونة من عنصرين ممتزجين .

الطعام وهو ألصق الأشياء بالطاقة الحسية — الخالصة — يعبر القنطرة فيصبح « مواعيد » و « آدابا » و « معانى » مختلفة : من اختيار ، ومشاركة ، وتقصٍ للطيب والحلال . .

والجنس — وهو ألصق الأشياء كذلك بالطاقة الحسية — يصبح مشاعر وعواطف و « مشاكل » نفسية وعاطفية وفكرية واجتماعية واقتصادية . . الخ .

وتلك هي معجزة هذا الكائن البشري ! أنه يمارس كل نشاط الحيوان الحسي ، ومع ذلك يمارسه على طريقة أخرى غير طريقة الحيوان . . يمارسه على طريقة الإنسان !

ولكن المعجزة الكبرى — التي أشار إليها جوليان هكسلي فيما نقلناه عنه في هذه الفقرة — هي ارتقاء الإنسان إلى مرحلة التفكير المجرد ، وما ينشأ عنها من عقائد وأفكار وعلوم وفنون ومشاعر ، وتنظيمات اجتماعية وسياسية واقتصادية وحضارية وثقافية .. إلخ . وارتقاؤه إلى إدراك «القيم» و « الفضائل» والإيمان بتلك القيم والفضائل ، والتمسك بها .

حقاً إن هذه هي القمة البشرية . .

هي أبدع ما في كيان الإنسان .

ولسنا نعلم شيئاً عن كنهها وماهيتها . كيف تنشأ ؟ وكيف تعمل ؟ في أي مكان تسكن في الكيان البشري ؟ !

وقد كان هذا الجهل بكنهها وماهيتها حافزاً لبعض المدارس النفسية [التجريبية والسلوكية والميكانيكية من بينها] وبعض المذاهب الحضارية إلى إغفالها جملة ، أو تفسيرها بالتفسير المادي !

ولكن — كما سبق أن أشرنا — ما المعلوم في كيان الإنسان ، حتى نلغي هذه لأنها مجهولة الكيان ؟ !

ما المعلوم فى جهاز الهضم وجهاز التنفس وجهاز الحس وجهاز الإنسال ؟

هل يتجاوز المعلوم عالم الظاهر إلى حقيقة الكيان ؟

هل الخلية الحية الواحدة المفردة — حتى قبل أن تتخصص إلى فم أو معدة أو عصارة هاضمة أو بويضة أو حيوان منوى — هل هى شىء معروف لنا إلا من الظاهر وحده؟

هل نعلم كيف تنشأ ؟ وكيف تعمل ؟ والسر فى نشاطها ، أو السر الذى جعل أوضاعا طبيعية أو كيميائية معينة تثير فيها نشاطها وحركتها ؟ !

كلا . لا نعلم !

فإذا كنا نجهل كذلك ماهية الطاقة المعنوية فى الإنسان . . فلماذا نفرق بين جهل وجهل . . فننفى « الوجود » عما نجهله فى ناحية ، بينما نثبت الوجود لما نجهله فى ناحية ثانية . . ومدى الجهل واحد فى الحالتين ؟ !

كلا ! وإنما قصارى ما نفعل أن نكف — حين نتعب — عن البحث فى ماهيات الأشياء ونكتفى بدراسة مظاهرها . . وحينئذ نجد مظاهر الطاقة المعنوية ظاهرة حتى للماديين كجوليان هكسلى وغيره من العلماء « الواقعيين » !

وإنما يعنينا هنا — فى هذا الاستعراض — أن نثبت اتصال الطاقتين فى كيان الإنسان ، وأنهما معاً يمسكان الإنسان من طرفيه ، أو يمدان له جناحيه . . فيمشى بجسده على الأرض وروحه محلقة فى السماء !

أو الإيمان بالمحسوس ، والإيمان بالغيب . .

خطان آخران من الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية . .

أحدهما يؤمن بما تدركه حواسه من سمع وبصر ولمس وشم وذوق . . والآخر يؤمن بما وراء الحس . . مما لا يُرى ولا يُسمع ولا يلمس ولا يذاق ولا يشم . .

وهما خطان يسيران مقاربين لخطّى الحسية والمعنوية . . ولكنهما ليسا هما بالضبط ، وإنما شبيهان . .

فهناك تحدثنا عن «طاقات» حسية ومعنوية .. عن طاقة عضلية جسمية ، وطاقة فكرية معنوية . . وعن المجال الذى تعمل فيه تلك الطاقات .

وهنا نتحدث عن « الإيمان » بالمحسوس و « الإيمان » بالغيب . .

إن « الإيمان » داخل كله من حيث الشكل فى نطاق الطاقة المعنوية ، فالطاقة الحسية « تمارس » النشاط ، ولكنها ليست هى الموكلة « بالإيمان» . . ولكنه من حيث الموضوع يمد جناحيه معاً فيشملان ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس . وذلك — فى أبسط صورة ممكنة — توضيح لمدى التعقد والتشابك والترابط فى كيان النفس البشرية ، وفى خطوطها المتقابلة بصفة خاصة . . إنه لا شىء من هذه جميعاً يوجد منعزلا بمفرده ، أو يعمل منعزلا بمفرده . . وإنما تعمل كلها جميعاً بطريقة معقدة متشابكة ، كما يعمل الجسم كله مترابطاً متكاملا ، وإن سهل علينا التمييز — فى العمل — بين عضو وعضو . ولكن على أساس الترابط لا على أساس العزلة والانفصال . حتى الأعضاء

المتخصصة جداً ، والتى لاتعمل — فى الظاهر — بصفة دائمة كجهاز الإنسال . . حتى هذه تأخذ من الدم غذاءها لحظة لحظة . . وتصب فى الدم هرموناتها لحظة لحظة .. فلا تنفصل عن بقية الجسم فى أية لحظة ، ولو كانت — فى فترات — لا تمارس نشاطها الكبير !

والنفس كالجسم فى ذلك ولكن على صورة أشد فى الترابط والتشابك والتعقيد !

* * *

يؤمن الإنسان بما تدركه حواسه .. كذلك فطرته .

فهو — دون كد منه ولا بحث ولا سؤال — يؤمن بأن ما يراه وما يسمعه وما يلمسه وما يشمه وما يذوقه كله موجود .

ولا يتردد — إلا فى الخبل الفلسفى الدائر فى الأبراج العاجية لا فى حقيقة الواقع ! — لا يتردد فى الإيمان بوجود هذه الأشياء كلها التى تدركها حواسه ، والتى اصطلح على تسميتها بالكون المادى .

وقد يدور الجدل فى مدى انضباط الحواس وهى تتلقى . . وهل ما تتلقاه هو « الحقيقة » كما هى موجودة فى الواقع « المطلق » . . أم هو صورة مشكّلة بحسب طبيعة الحواس وعلى صورتها .

ولكن الإنسان — فيما عدا الخبل الفلسفى الدائر فى الأبراج العاجية — لا يساوره الشك فى وجود الأشياء بالفعل ، حتى وإن ساوره الشك فى وجود فارق بين وجودها الحقيقى المطلق ، ووجودها الذاتى النسبي كما يتشكل فى داخل الحواس . .

ولا يعنينا هنا — ولن نصل فيه إلى دليل قطعى — أن نبحث فى كيفية

إدراك الإنسان لما تدركه حواسه وكيفية إيمانه بما تدركه الحواس . . فقصارى ما نصل إليه فى هذا الشأن هو تسجيل الظاهرة وتتبع مظاهرها . أما كنهها وماهيتها فأمر لم يصل العلم فيه إلى شيء ، وما أظنه يصل فى أى يوم . . وهو لم يصل إلى كنه المادة ولا الطاقة ولا الإشعاع !

يعنينا فقط أن نسجل أن فى فطرة الإنسان أن يؤمن بوجود ما يصل إليه عن طريق الحواس .

وفى فطرته كذلك أن يؤمن بوجود أشياء لا تصل إليه عن طريق الحواس . .

وتلك مزيته الكبرى على عالم الحيوان . .

الحيوان يتعامل مع الوجود بحواسه وحدها — فيما نعلم نحن عن ظاهر حياته — ولا يتعامل معها فيما وراء الحس .

وقد تكون له أجهزة حسية لا نعلمها ، يدرك بها حدوث الزلازل والعواصف وانفجار البراكين قبل أن يحسها الإنسان .. أجهزة تتلقى الأمواج الكهرطيسية لهذه الأحداث وتترجمها بصورة ما ، كما تترجم العين إشعاعات الضوء ، وكما تترجم الأذن اهتزازات الصوت .

ولكنه فى هذه الحالة أيضاً يكون إدراكاً حسياً ، وإن اختلفت الحاسة عما يعرف الإنسان فى نفسه من حواس .

ولكن الإنسان بعد ذلك يتميز بإدراك وجودٍ لأشياء لا تصل إليها حواسه ، والإيمان عن وعى بوجود هذه الأشياء .

والقرآن يستخدم لوصف هذا المفهوم لفظ الإيمان « بالغيب » .

« ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ... »[1].

« ليعلم الله من يخافه بالغيب . . »[2].

« جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب »[3].

« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب »[4].

وقمة الإيمان بالغيب هى الإيمان بالله . .

وسنتحدث فى فصل « الدين والفطرة » عن « الدلائل » التى تهدى الفطرة إلى وجود الله . الدلائل الحسية وغير الحسية . .

ولكن وجود هذه الدلائل ليس هو الذى ينشئ تلك الطاقة التى نحن بصددها : طاقة الإيمان بالغيب . .

فلو كانت هى بذاتها التى تنشئ الإيمان بالغيب ، لتساوى الناس كلهم — بصورة آلية حتمية — فى الإيمان بالغيب .

والواقع ليس كذلك . . فمن الناس من يزيد عنده الإيمان بالغيب ومنهم من ينقص . . ومنهم من يكون مهتدياً فى الإيمان بالغيب ومنهم من يضل . فليست طاقة الإيمان بالغيب إذن مترتبة على وجود دلائل الإيمان الحسية أو غير الحسية . .

إنما هى طاقة موجودة داخل الكيان البشرى ، سواء وجدت الدلائل أم لم توجد . . وهى تهتدى وتضل سواء وجدت الدلائل أم لم توجد .

---

(١) سورة البقرة [١ — ٢]

(٢) سورة المائدة [٩٤] .

(٣) سورة مريم [٦١]

(٤) سورة الحديد [٢٥] .

إنها طاقة فطرية فى الإنسان . . فى كل إنسان ! ولكنها ككل طاقاته الأخرى تهتدى وتضل . . وتزيد عند هذا الشخص وتنقص عند ذاك .

تهتدى فتؤمن إيماناً غيبياً بوجود الله . وهو غيب بطبيعة الحال . فالله لا تدركه الأبصار . . ولا أى حاسة من الحواس . .

وتضل ، فتؤمن — إيمانا غيبياً — بالطبيعة أو بأية قوة أخرى تسوس الكون وتدبره . .

وفى كلتا الحالتين هى طاقة فطرية موجودة فى كل إنسان . . تجعله يؤمن بأشياء لا تدركها حواسه ، ولا يدركها عقله كذلك إلا فى حدود .

ولقد كفرت بعض المذاهب والنظم بهذه الطاقة التى تؤمن بالغيب . . ولكنها نسيت أنها طاقة فطرية ! وأنها حين لا تتوجه إلى الإيمان بالله — وهو مجالها الأكبر والأعلى — فإنها تتوجه وجهات أخرى ضالة منحرفة ولكنها لا تُكبت ولا تموت ! ولو قاومتها الدولة وسخرت منها الدعايات !

ولطول ما هرب الأوربيون من الله . . إلى « الطبيعة » . . أو بالأحرى من الكنيسة التى كانت تمارس معهم صنوفا من الاستبداد والإذلال والمهانة الروحية والفكرية والمادية . . لطول ما هربوا من فكرة الله الكنسية إلى فكرة الطبيعة ، نسوا أن هذه الطبيعة ذاتها غيب . . وإلا فما هى على وجه التحديد ؟ ! وكيف تعمل ؟ وما كنه الطاقة التى تشتمل عليها ؟ وما كنه « القوانين الطبيعية » ؟ . . كيف نشأت ، وكيف التزم بتنفيذها الكون ؟ وهل هى — هذه الطبيعة — قوة مسيطرة أو قوة مسيطرٌ عليها ؟..إلخ..إلخ.

كل ذلك غيب . . إنه غيب ضال منحرف . . ولكنه غيب . . لا تُدرَكُ حقيقته ولكن تدرك فقط آثاره. ومن ثم فهذا الإيمان الضال « بالطبيعة »

هو — من حيث جوهره — إيمان بالغيب . . عن طريق تلك الطاقة الفطرية التي تؤمن بما لا تدركه الحواس !

وهكذا تظن أوربا أنها تهرب من « الغيبيات » فتلاحقها الغيبيات في مهربها . . ولكن في صورة ضالة تناسب ما هي عليه من ضلال وانحراف .

بهذه الطاقة الفطرية إذن يؤمن الإنسان بوجود الله .. ثم يعبده أو لا يعبده . تلك خطوة أخرى !

ويؤمن بالبعث واليوم الآخر . . حين تتفتح بصيرته للإيمان بالله . . بل لقد آمن بهما حتى وهو ينحرف في طريقة عبادته لله !

ويؤمن بوجود كائنات خفية عن حواسه : الملائكة والجن والشياطين .. وغيرها من الكائنات .

وبصرف النظر عن الاتجاه المادي الحالي في الغرب ، الذي يريد أن يقصر الإنسان على ما تدركه حواسه فحسب — أي على الجانب المادي الحيواني منه — فإن البشرية في أعصرها كلها قد آمنت بوجود كائنات خفية لا تدركها الحواس ، وتصورتها في صور شتى بما تملي لها طاقة الخيال[1] .

ويكفي أن نثبت أن هذا الاتجاه المادي ذاته لم يستطع أن يقتلع من كيان الإنسان إيمانه بما لا تدركه الحواس . . فقد لجأ إلى لون من ألوان الغيب يسد به الفراغ الناشيء من الإيمان بالله . . حين آمن بالطبيعة أو غيرها من القوى الغيبية التي تحكم الكون .

ويعنينا هنا فقط — ونحن نستعرض الخطوط المتقابلة في النفس — أن نثبت وجود الطاقتين في كيان الإنسان . ونثبت أنهما متصلتان .

(١) نتحدث في الفقرة التالية عن خطي الواقع والخيال .

فنحن نؤمن بما لا تدركه الحواس ثم نحاول تفسيره أو تصوره فى صورة تدركها الحواس ! ! نتصور صورة حسية للملاك والشيطان . . ونتصور صوراً شتى لليوم الآخر والقيام والبعث والحساب .

وفى مجال التنزيه المطلق يكف الإنسان عن التصور . .ولكن بجهد . . بأن يطرد من خياله كل صورة يتصورها لذات الله ، سبحانه وتعالى عما يصفون! ليس كمثله شيء .

فالطاقتان إذن متصلتان من هذا الجانب .

ومتصلتان بالقنطرة التى تتصل عن طريقها كل الخطوط المتقابلة . .

فعالم الحواس ينشأ أولا . . ثم تقوم القنطرة الحسية المعنوية التى ينتقل بها إلى عالم ما وراء الحواس . .

ومتصلتان أيضاً بأنهما — معاً — توصلان إلى كيان الإنسان المجتمع المترابط مدركات متنوعة — حسية وغير حسية — يتكون منها فى النهاية عالمه الشامل الكبير .

الواقع والخيال

خطان متقابلان فى داخل النفس . . قريبان فى ظاهرهما من خطّى الحسية والمعنوية ، وخطّى الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب . . ومع ذلك فكل من هذه الأزواج الثلاثة ذو كيان متميز .

وقد رأينا فى الفقرة السابقة الفارق بين خطّى الحسية والمعنوية وخطّى الإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب . وهنا نبين الفرق بين الأزواج الثلاثة المتقاربة :

الخطان الأولان طاقتان فى الكيان البشرى إحداهما الطاقة الحسية المتمثلة فى الجسم : الطعام والشراب والجنس . وهى الطاقة العضلية المتحركة المنتجة . . طاقة «العمل» . والأخرى الطاقة المعنوية التى تدرك المعانى الكلية والمعانى المجردة . تدرك الفضيلة والقيم العليا والحق والعدل . . . وتقوم على التفكير التصورى التجريدى .

والخطان الثانيان هما خطا الإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب . الإيمان بأن ما يصل للنفس من طريق الحواس موجود فى عالم الحقيقة. والإيمان كذلك بأن ما يصل للنفس من وراء الحس موجود أيضاً فى عالم الحقيقة .

والخطان الثالثان اللذان نحن بصددهما فى هذه الفقرة هما الطاقة التى تتصل بواقع الأرض المحسوس فتعمل فيه وتحقق إنتاجاً واقعياً ملموساً . والطاقة التى تتخيل أشياء أخرى غير ماتراه فى الواقع ، وهى عالمة بأنه خيال .

ولا شك أن هناك تداخلا وتشابكا بين هذه الأزواج الثلاثة شديد التعقيد والتركيب . . ولكنى أود أن أؤكد حقيقة تميزها رغم تشابكها وتشابهها .

فقد يبدو أن طاقة الواقع هى ذاتها الطاقة الحسية [فى الزوج الأول] وهى ذاتها طاقة الإيمان بما تدركه الحواس [فى الزوج الثانى] وأن طاقة الخيال هى ذاتها الطاقة المعنوية فى الزوج الأول وطاقة الإيمان بالغيب فى الزوج الثانى .

وليست الحقيقة كذلك . .

فطاقة الواقع تشمل — مع تميزها — الخطوط الأربعة الأولى جميعا !

الطاقة الحسية بكاملها داخلة فى طاقة الواقع. لأنها جزء من الواقع .والطاقة المعنوية القائمة على التفكير التصورى التجريدى ، داخلة كذلك فى طاقة

الواقع . فحين يفكر الإنسان فى العدالة . فى الحق . فى الصدق . فى الفضيلة . فى الشجاعة .. الخ فإنه يفكر تفكيراً تجريدياً نعم . ولكن على أساس الواقع . على أساس أن العدالة واقع . والحق واقع . والصدق واقع . والفضيلة واقع . والشجاعة واقع . . الخ. إنه لا يفكر فيها على أنها خيالات . بل إنه فى الحقيقة لم ينشئ الصورة التجريدية إلا من « الوقائع » التى مارسها أو شاهدها بالفعل، وجمع بعضها إلى بعض ، وأنشأ منها صورة تجريدية . وهو « يتخيل » هذه الصورة التجريدية . نعم . ولكن دور الخيال فيها ليس هو إنشاءها إنشاء من الخيال . وإنما تجميعها من الواقع . ولصق أجزائها بعضها إلى جوار بعض لتتكون منها « الفكرة » المجردة . وحين يطالب الناس فى الأرض « بتحقيق » العدالة أو الفضيلة . . وحين يطالبون بعضهم بعضاً بأن يكونوا شجعانا أو صادقين أو ملتزمين للأخلاق .. الخ فهم لا يطالبون بخيالات مجردة يعلمون سلفاً أنها لا تقبل التحقيق فى عالم الواقع ، أو غير موجودة فى عالم الأرض . . وإنما يطالبون بما يعتقدون أنه حقيقة قابلة للتطبيق . . وهم يعلمون أن الناس ليسوا سواء فى هذه الفضائل والقيم . . وأنهم لا يثبتون عليها ، وإنما يهبطون ويتعثرون فى الطريق . . ولكنهم يعلمون كذلك أن فى كل إنسان قدراً من الفضيلة يزيد أو ينقص ، ولكنه موجود . . ومن ثم فالأمر كله — من حسيّ وتجريدى — يقع فى نطاق الواقع لا فى نطاق الخيال .

وكذلك الإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب . . كلاهما داخل فى نطاق الواقع .

والخيال يعمل فى تصوّر ما وراء الحواس . نعم . ولكن دوره مقصور على محاولة التصور . ولا يتعداه إلى إنشاء شيء من عالم الخيال .

وحين يؤمن إنسان بالله — بالغيب — فهو يؤمن به على أنه — سبحانه — حقيقة موجودة واقعة.

وحين يؤمن بوجود الملائكة ، فهو يؤمن بأنهم موجودون حقا فى عالم الواقع ، وإن كانت حواسه لا تدرك هذا الوجود ، ولا تدرك حتى آثاره..

وكذلك إيمانه بأى شيء فيما وراء الحواس.. هو إيمان الواقع لا إيمان الخيال ، مادام يؤمن به بالفعل.

أما الخيال فيعمل فى نطاق آخر..

إنه خيال يعلم أنه خيال..

إن الإنسان ابتداء.. يتخيل.. أى ينشئ صورا لا وجود لها فى عالم الواقع.. لا فى العالم الذى تدركه الحواس ولا العالم المغيّب عن الحواس.. ولا فى نطاق الطاقة الحسية ولا الطاقة المعنوية [وإن كان متصلا بها جميعا كما سنرى بعد لحظة].. ويعلم — فى أثناء عملية التخيل — أنه ينشئ هذه الصور إنشاء فى عالم الخيال ، وهو مدرك بأنها ليست حقيقة واقعة وأنها قد لا تتحقق أبدا فى يوم من الأيام!

أعتقد أن الفروق قد صارت الآن واضحة بين كل من هذه الأزواج الثلاثة المتشابهة[1]..

---

(١) يمكن أن نضيف هنا زوجا آخر من الخطوط المتقابلة قريبى الشبه بهذه الأزواج الثلاثة ولكنهما متميزان عنها ، هما خطا « الاعتقاد والتجربة » أو «الاعتقاد والتعلم». وقد يبدو لأول وهلة أنهما هما خطا « الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس ». وحقاً إنهما يتداخلان معهما بعض الشيء ، ولكنهما يتميزان بعد ذلك. فى النفس ميل إلى «الاعتقاد» بطريق غير طريق التجربة والتعلم ، وميل آخر إلى المعرفة عن طريق التعلم والتجربة. وهما فى النفس السوية متوازنان. فهى « تعتقد » فيما هو موضوع اعتقاد ، كالإيمان بالله. وتطلب التجربة فيما مجاله التجربة كمعرفة أحسن الطرق لزرع نبات أو إقامة بناء.. أو معرفة عناصر الكون المادى وشكله وظواهره. وكلاهما أمر ضرورى لحياة الإنسان ، ونشاط سوى من مناشطه.

فإذا كان ذلك .. فنعود الآن إلى بيان ما بينها من تشابك وتداخل وتعقيد !

لقد قلنا إن الخطوط الأربعة الأولى جميعا — الطاقة الحسية والطاقة المعنوية ، والإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب — داخلة جميعها فى نطاق الواقع .. فالآن نقول إنها — جميعا — متصلة كذلك بطاقة الخيال !

إن الخيال لا ينشئ شيئا من « العدم » ! ولو أنه خيال !

إنه فى صوره التى يتخيلها يستند أساسا على الموجود فى عالم الواقع ! ويزيد عليه أو ينقص منه أو يعدل فيه ويشكل ، لكى ينشئ الصور الخيالية التى ينشئها ! ولكنه لا يصنع شيئا من « لا شيء » !

وهو — ككل الطاقات المعنوية الأخرى — يبدأ من عالم الحس .. ثم يعبر القنطرة . . ثم يصل إلى المعنويات . .

حين يتخيل الطفل أن عصاه حصان ، ويركب حصانه هذا الوهمى ويجرى به ، فهو يأخذ خياله من الصورة الواقعية التى تدركها حواسه ، وهى الحصان الحقيقى والركوب الحقيقى . وحين يتصور الجن أو الغول أو العفريت . . الخ . فهو ينشئ من صورة واقعية بادئ ذى بدء ثم يزيد عليها . يزيد عليها اتساعا مرعبا فى العينين . ولكن العينين ذاتهما حقيقة مستمدة من الواقع . وطولا بشعا فى الشعر ولكن الشعر ذاته حقيقة مستمدة من الواقع . وضخامة رهيبة فى الجثة . ولكن الجثة ذاتها حقيقة مستمدة من الواقع . .

وحين يتخيل حيوانا يطير . . أو يتكلم . . أو يؤدى أعمالا أخرى فهو يركّب صورا جديدة من صور قديمة موجودة ومحسوسة فى عالمه .

ثم يكبر الطفل ويصبح إنسانا ناضجا ، ويتغير طابع خياله .. فيتخيل — مثلا — عالما مثاليا [يوتوپيا] كل ما فيه كامل وكل ما فيه جميل . . ولكن

طريقة عمل الخيال لا تتغير . فما زال يركّب صورا جديدة من صور قديمة موجودة ومحسوسة فى عالمه . ومازال يستند على الموجود فى الواقع ويزيد عليه أو ينقص منه أو يعدل فيه . . ولكنه لا يصنع شيئا من لاشىء .

وهكذا يتصل الواقع والخيال أحدهما بالآخر كخطين متقابلين ، ثم يتصلان معا ببقية الخطوط النفسية فى تشابك وتداخل وتعقيد . .

ولا يقف الاتصال والتداخل عند هذه النقطة التى تتصل بطبيعة الخطين ..

وإنما يمتد الاتصال والتداخل فى الواقع الحيوى للإنسان . .

فطاقة الواقع هى التى تشتبك بالعالم المادى المحسوس ، وبالعالم «الواقعى» على نطاق واسع [بما فى ذلك من قيم — معنوية — وإيمان بالغيب على أنه واقع].

هى طاقة « العمل » و « الإنتاج » الواقعى .. سواء كان الإنتاج فى عالم المادة أو عالم الروح .

الطاقة التى تتناول الواقع المادى فتحوله من مادة خامة إلى مادة مصنعة . الطاقة التى تزرع الأرض وتفلحها . الطاقة التى تحاول التعرف على أسرار الكون بما فيه من عناصر وطاقات ، لتستفيد منها فى استغلال الأرض وعمارتها .. وتتناول كذلك الواقع الروحى والمعنوى . . فتنشئ « النظم » الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وتنظم العلاقات بين الناس فى الأرض . وتقيم حياتهم على مبادئ معينة تعتنقها وتعمل على تحقيقها فى دنيا الواقع .

هى باختصار الطاقة التى « ينفّذ » بها الإنسان مهمة الخلافة عن الله فى الأرض .

ولكن طاقة الخيال ليست بعيدة عن ذلك كله !

إن الإنسان وهو يتخيل — وهو عالم بأنه يتخيل — لا ينقطع فى الحقيقة عن عالم الواقع !

فحين يتخيل الكمال المطلق . . بقدر ما يطيق خياله . . فهو يستعين بذلك على تصور الحقيقة الإلهية التى يتمثل فيها الكمال المطلق . . ومن ثم يدخل هذا التخيل فى نطاق العقيدة . . التى هى جزء من الواقع !

وحين يتخيل الكمال فى عالم الإنسان . . فهو يتمثل الصورة التى « ينبغى » — فى تصوره — أن تكون موجودة بالفعل فى عالم الواقع . ويستعين بهذا الخيال على محاولة تحقيق هذه الصورة المثالية . . فيتحقق منها شىء بالفعل وترتقى البشرية صعدا ، بمقدار ما تستطيع أن تتخيل الكمال .

وحتى حين يتخيل لذات التخيل . . فى متعة الفن أو فى ساعات الاسترخاء أو لحظات « الهروب » من الواقع . . فهو يصل إلى نتيجة « عملية » فى عالم النفس . إنه يوسع حدود العالم الذى يعيش فيه . يوسعها «بالفعل» .. فلا فارق فى الإحساس النفسى بين الخيال والواقع حين يوجد كل منهما فى النفس ! كل خيال وجد بالفعل فى النفس فهو حقيقة شعورية ونفسية .. تؤدى إلى نتيجة فعلية : من غم أو فرح أو نشاط أو تقاعس . . ومن ثم يعيش الإنسان — عن طريق الخيال — فى عالم أوسع من العالم « الواقعى » المحدود .

هذا ولا نحتاج بطبيعة الحال أن نتحدث عن الخيال الذى يؤدى إلى اكتشاف الكشوف العلمية واختراع المخترعات . . فصلة هذا الخيال بالواقع واضحة لا تحتاج إلى بيان . وإنما الذى يحتاج إلى بيان وتوكيد أنه حتى الخيال الذى لا غاية له أبدا — فى ظاهر الأمر — يتصل فى النهاية بالواقع ، فيختلطان ويمتزجان !

* * *

وطاقة الواقع — من حيث النشأة — هى السابقة فى الظهور .

فالطفل الرضيع يعيش شهوره الأولى فى عالم الواقع . . الواقع القريب الذى يتعامل معه . . واقع الثدى والحضن . . ولم ندخل بعد — بأجهزتنا الحالية — إلى عالمه النفسى لنعلم هل « يتخيل » وهو فى هذه الشهور الأولى ؟ وإن كان من الثابت أنه يحلم . . فيحرك شفتيه وهو نائم حركة الرضاعة . فهل يعمل الخيال فى يقظته أيضاً فيتصور الثدى مثلا عالما ضخما لا أول له ولا آخر ولا حدود . . ويتصور الحضن جزءاً متصلا بكيانه لا منفصلا عنه ؟ ! نحتاج فى هذا الأمر إلى تليفزيون إلكترونى يصور الأفكار من داخل النفوس ! [وهذا خيال « علمى » قد يتحقق فى القريب !] .

ولكن طاقة الخيال سرعان ما تنمو حتى تغطى فى نفس الطفل على طاقة الواقع !

فهو فى سنوات الطفولة الأولى واسع الخيال جداً .. يستطيع بسهولة أن يتخيل كل شىء وأى شىء . . ويعيش فى خيالاته كأنها واقع .. بل هى الواقع الذى يأنس إليه أكثر مما يأنس إلى واقع الكبار ذى النطاق المحدود !

والخيال فى هذه المرحلة يؤدى مهمة حيوية فى حياة الطفل .. فعن طريقه ينمى الطفل مداركه الذهنية .. وكأنما يمهد الأسس التى تنبنى عليها الوقائع فيما بعد . . فكل خيال طائر يرسم مكانا فى الذهن يمكن أن يقام عليه فى المستقبل بناء !

ورويداً رويدا تُلْقِىَ « الحقائق » الواقعة فى « بحار » الخيال فَتَرْدِمُها ، وتظهر جزر من اليابسة فى غمار المحيط !

تُلقَى من العالم الخارجى الذى يزيد تعامل الطفل معه باستمرار ، ويزيد

وقعه المحسوس على فـكره وحسه ومشاعره ، كما تلقى بالتلقين والتعليم من جانب الـكبار . .

وفى عملية التشوق الدائم « للمعرفة » . . تبرز هذه الجزر فى المحيط ، وتظل تنمو حتى تصبـح قارات واسعة متشابكة . ولـكنها قط لا تملأ المحيط !

ينمو الواقع .. ولا ينتهى الخيال .

ثم يعود الطفل فى فترة المراهقة إلى موجة جديدة من الخيال ، بعد أن كان قبل سنوات قد أصبح أميل إلى الواقعية .ولـكنه هنا خيال من نوع جديد .. ليس خيال الجن والغيلان والطيور المتكلمة والحيوانات المتعلمة ! وإنما هو خيال عاطفى شاعرى وجدانى .. يتصل بالقيم والعواطف والأحاسيس .

ولئن كانت دفعة الخيال الأولى تؤدى مهمتها فى حياة الإنسانية بتنمية قوى الطفل الذهنية . . فهذه الدفعة الثانية تؤدى مهمتها بتنمية القوى العاطفية والوجدانية ، التى يقوم عليها فيما بعد التعامل « المعنوى » بين بنى الإنسان .

ثم تجىء موجة أخرى من الواقعية فى مرحلة الشباب . . لمواجهة واقع الحياة ومشاكلها . .

ورويداً رويداً ينضب الخيال وتظهر الصخور الناتئة فى الماء الراكد الذى لا يمور .. صخور المشاكل والعقبات والتبعات والهموم . . !

ولـكن الماء لا ينضب أبدا على أى حال . .

فحين يجف الماء تموت النفس ولا يعود لها بالحياة اتصال . .

وبعض الناس تبقى طاقة الخيال عندهم على حالها من الحركة والإبداع . . أولئك الفنانون . أما بقية الناس . . فمهما نضب الخيال فى نفوسهم ، فهم على الأقل يقتاتون أعمال الفن هذه ليشبعوا ما بقى فيهم من طاقة الخيال !

ويظل الخيال والواقع من البدء للنهاية متصلين أحدهما بالآخر .. ومشتبكين ببقية الخطوط .

الالتزام والتحرر

« فى الكائن البشرى خطان متناقضان متقابلان ، يعجب الإنسان لأول وهلة كيف يوجدان بتناقضهما ذلك متجاورين فى النفس الواحدة . والواقع أن الازدواج هو السمة العامة للكيان البشرى كله ، الناشئة فى الأصل من ازدواج منشئه من قبضة الطين ونفخة الروح . ومن ثم فلا موجب للعجب مما يحويه الإنسان فى كيانه من متناقضات ظاهرية . . .

« فى الإنسان ميل للالتزام . ميل لأن يلتزم بأشياء معينة وينفذها . ولو وجد نفسه طليقا من كل التزام خارجى لفرض على نفسه أموراً معينة والتزم بها .. إرضاء لما فى طبيعته من ميل للالتزام ! ومن ثم فالفوضى المطلقة لا وجود لها ، ولا يمكن أن توجد . لأنها ليست جزءا من طبيعة الإنسان !

« ومع عمق هذا الميل للالتزام فى الطبع البشرى ، فإن فيه إلى جانب ذلك ميلا للإحساس بأنه غير ملتزم ! وأنه يؤدى الأشياء لأنه هو يريد أن يؤديها لا لأنها مفروضة عليه !

« كلا الخطين أصيل وعميق . وكلاهما يؤدى دوره فى فطرة النفس وواقع الحياة »[1] .

* * *

كلاهما يؤدى دوره فى حياة البشرية . .

لا شيء مما أودعه الله فى فطرة الإنسان قد أودع عبثا بلا غاية ! « ما ترى

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

فى خلق الرحمن من تفاوت »[1] « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! »[2] « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا »[3] « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين »[4] .

الالتزام هو الذى « ينظم » حياة البشرية . .

فحياة الفرد لا تنتظم إلا بالتزامه نظاما معينا فى معيشته . . نظاما يشمل كل شىء وكل سلوك . يشمل موعد اليقظة وموعد النوم . وموعد تناول الطعام . وموعد العمل . وموعد الراحة .. إلخ . ويشمل طريقة أداء كل عمل من هذه الأعمال . . ويشمل إنشاء علاقات منظمة بأفراد الأسرة وأفراد المجتمع .. والتزام هذه العلاقات ..

وحياة المجتمع لا تستقيم كذلك إلا بالتزام نظام معين ، يشمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسلوكية والخلقية والروحية . . إلخ .

ولأن هذه بديهيات فى حياة البشرية فالإنسان لا يحس بقيمتها ولا بضخامتها !

ولكن عليه — لكى يحس بحقيقتها — أن يتصور الحياة بغير هذا الالتزام !

فليتصور حياة فرد لا ضابط له ولا نظام فى نومه وصحوه وطعامه وملبسه ومسكنه وعمله وعلاقاته بالأفراد !

مرة ينام بالنهار ومرة ينام بالليل ! مرة يذهب إلى عمله ومرة لا يعمل ! مرة يأكل ومرة يمتنع عن الطعام ! مرة يسكن فى مسكن ومرة يأوى إلى غير

---

(١) سورة الملك [٤]
(٢) سورة آل عمران [١٩١]
(٣) سورة ص [٢٧]
(٤) سورة الدخان [٣٨].

مكان ! مرة يوادّ أصحابه ومرة يثور فى وجههم بلا أسباب ! مرة يتعبد إلى الله ومرة يفجر ويفسق ! مرة يطيع أوامر الدولة ومرة يخرج عليها بلا سبب مفهوم ! . . إلخ . . إلخ . .

كيف تصبح صورة الحياة بالنسبة لهذا الفرد ؟

وليتصور الإنسان مجتمعاً بلا نظام ولا رابط . . مرة ينشىء نظاماً للزواج ومرة يفك الروابط ويطلق الناس يقضون حوائج الجنس بلا قانون . مرة يقيم حكومة ومرة يفك روابط السياسة ويترك كل إنسان على هواه . مرة ينظم علاقات العمل وعلاقات الاقتصاد ، ومرة يترك الناس يقتتلون بلا نظام !

كيف تصبح صورة الحياة بالنسبة لهذا المجتمع ؟

وحقيقة إن قدرا من هذه الفوضى تحدث بالفعل فى حياة بعض الأفراد وبعض المجتمعات . . ولكن هذه حالات اختلال منحرفة . . نتحدث عنها فيما بعد . . ولكن الذى لا مراء فيه أن الفرد أو المجتمع الذى يحدث هذا الاختلال فى كيانه ، مهدد بالدمار . . وعلى قدر ما تكون الفوضى يحدث الدمار .

فالميل للالتزام إذن يؤدى مهمته الحيوية فى تنظيم الحياة . .

والميل للتحرر يؤدى كذلك مهمته الحيوية فى الحياة . . وهى ليست مهمة واحدة وإنما جملة مهام :

يؤدى مهمته أولا فى أن يَحُول بين الالتزام وبين الآلية الجوفاء . . التى تحيل الحياة إلى جمود وتحجر ، وتفقد التصرفات والأعمال والمشاعر حيويتها ودلالتها ، وتحول البشر إلى آلات [كما صنعت الحضارة المادية الحديثة حين قتلت الجانب الروحى فى الإنسان ، وهو الجانب الذى ينشأ عنه الميل للتحرر والانطلاق !] .

ويؤدى مهمته ثانياً فى تطوير الحياة . . فالالتزام الدائم يقف بالحياة عند نقطة لا تغادرها . . كما يقف عالم المادة وعالم الحيوان . . وليست هذه إرادة الله بالإنسان ، خليفته فى الأرض ، المكلف بتطويرها وعمارتها . . فلا بد — إلى جانب الالتزام — من عنصر آخر يمنع الوقفة الآسنة ، ويحرك الحياة باستمرار ، لتصل إلى جديد فى عالم الإنتاج المادى ، وجديد كذلك فى عالم الفكر والروح ، يضيف رصيداً جديداً إلى الرصيد الموجود ، ويزيد من سعة الحياة وثرائها ، واستمتاع الإنسان بما فيها من ثمرات .

ويؤدى مهمته ثالثاً فى إعطاء الحياة — مع تطويرها — دفعة حية متحركة تزيد من حيويتها ، وتضمن لهذا التطور ذاته ألا يذبل ويضمر ويموت .. فليس يكفى أن يحدث الإنسان فى حياته جديداً كل حين . وإنما ينبغى أن يكون لهذا الجديد من القوة الدافعة ما يمكّن له فى الوجود .

وهكذا يتصل الالتزام والتحرر فى داخل النفس وفى واقع الحياة ، ويتعاونان معاً فى أداء مهمة مشتركة ، ولو بدا لأول وهلة أنهما متضادان ومتناقضان !

* * *

ينشأ الالتزام أولا فى نفس الطفل . . فعالم الطفل هو عالم الضرورة . . والضرورة تعنى الالتزام .

ضرورة الطعام — بالرضاعة — وضرورة الإفراز ،وضرورة النوم.. إلخ.

كلها ضرورات يلتزم بها الطفل . . ويتعود الالتزام بها . . فالجهاز العصبى مكوّن بحيث يترك كل عمل أثراً معيناً فيه . . وبتراكم هذه الآثار تتكون « عادة » يلتزمها الجهاز العصبى ويرتاح إلى أدائها ، ويتعب من تغييرها . .

ولـكن الالتزام لا يظل وحده المسيطر على عالم الطفل .

فما إن يبدأ القدرة على الحركة ، حتى يحس بالرغبة فى التحرر من القيد !

يحرك يديه ورجليه ، وبوده لو يتخلص من قيد ضعفه الذى يجعل يديه لا تطولان شيئاً ، ورجليه عاجزتين عن حمله والتحرك به حيث يريد !

ويلاحظ هنا — كما رأينا فى الخطوط السابقة — أن كلا من خطّى الالتزام والتحرر يبدأ فى عالم الحس ، ثم يعبر القنطرة إلى عالم المعنويات .

الالتزام جثمانى كله فى مبدإ الأمر . . ثم تتـكون عنه « عادات » . . جثمانية نفسية . . ثم عادات نفسية فى نهاية الخط . . كعادة الصدق وعادة الشجاعة وعادة الإيثار . . أو ما يقابلها من الـكذب والجبن والأنانية .. إلخ.

والتحرر يبدأ انطلاقه من عضلات الجسم . . ثم تتسع دائرته حتى يصبح فى نهاية الخط تحرراً روحياً وفـكرياً شاملا لـكل المعنويات . .

ومن هنا يلتقى الخطان بخطى الحسية والمعنوية ، كما يلتقيان مرة أخرى بخطّى الواقع والخيال . فيلتقى الالتزام بالواقع ، ويلتقى التحرر بالخيال . ثم تعود الخطوط كلها فتشتبك وتتداخل ، فيدخل الالتزام والتحرر كلاهما فى دنيا الواقع ، ينظمانه من ناحية ، ويدفعانه إلى الحيوية والتطور من ناحية ؛ ويدخلان كلاهما فى عالم الخيال . . فيلتزم الخيال — بحكم العادة — بأخيلة معينة من جهة ، وينطلق متحرراً من جهة أخرى ؛ كما يبدو فى إنتاج الفنانين ، حيث تتلازم الصور والأخيلة وتتـكرر فى إنتاج كل فنان ، ومن ناحية أخرى يأتى بأخيلة خاصة لاتشبه أخيلةغيره من الناس لأنها تتحرر من تقليد الآخرين!

وهذا لون من التشابك والتداخل والتعقيد فى كل كيان الإنسان !

السلبية والإيجابية

خطان متقابلان فى النفس قريبا الشبه بخطى الالتزام والتحرر . . ولـكنهما لا يتطابقان . فالالتزام قد يكون سلبياً [آليا] وقد يكون إيجابيا نتيجة تصميم وإصرار . كما أن التحرر — وإن غلبت عليه صفة الإيجابية — قد يكون أحياناً تحررا ظاهريا من القيد ، رغبة فى الانسياق السلبي وراء الشهوات !

وهـكذا تتداخل الخطوط وتتشابك ، حتى لا يتميز أحدها عن الآخر إلا بجهد جهيد !

والأقرب إلى الظن أن تـكون السلبية ناشئة من حقيقة الجسد ، والإيجابية ناشئة من حقيقة الروح . فقبضة الطين سلبية تخضع للقوانين المادية خضوعا كاملا — إلا ما شاء الله — ولا تملك التغيير ولا تفكر فيه . ونفخة الروح إيجابية . . فهى نفخة من روح الخالق المنشىء المدبر المبدع المريد . . تحمل إلى الإنسان من مظاهر الإرادة والإبداع والإنشاء والحرية والاختيـار والتوجه والفعالية . . . بقدر ما قسم الله للإنسان .

ومع ذلك فليس فى كيان الإنسان شيء باق على « خامته » الأولى ، دون امتزاج وترابط وتشابك وتعقيد !

الخط — فى ظاهره — ينبع من هنا أو ينبع من هناك . ولـكنه لا يسير خطوة واحدة حتى يكون قد امتزج بهذا الخط أو ذاك . لأنه لم يعد يوجد فى الواقع « هنا » خالصة أو « هناك » خالصة . . وإنما كل شيء من هنا ومن هناك فى ذات الوقت !

وقد قلت عن هذين الخطين فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » ما يأتى :

« ولولا أننا مشغولون هنا ببحث تربوى لا سيكلوچى ولا بيولوچى ، لوقفنا طويلا عند تلك الحقيقة العجيبة فى الخلقة ، وهى أن الجنين يتكون من التقاء خليتين : البويضة الأنثوية والحيوان المنوى . وأن لكل من هذين طريقة فى السلوك مخالفة للأخرى . فالبويضة فى مسارها من المبيض إلى الرحم تسير « مع التيار » ، بينما الحيوان المنوى فى مساره من عنق الرحم إلى الأغشية الداخلية ليلتقى بالبويضة ويلقحها ، يسير « ضد التيار » ، وفى فطرته القدرة على المغالبة والاقتحام والمسير ضد التيار ليؤدى مهمته . والجنين هو خلاصة هاتين الطاقتين ! خلاصة السلبية والإيجابية معاً وفى ذات الوقت !

« إنها حقيقة عجيبة فى الخلقة . . توحى بالظن أنها هى منشأ هذين الاستعدادين النفسيين المتناقضين ! والله أعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير » .

إنها فعلا حقيقة تلفت النظر . . .

ولا يمتنع أن تكون حقيقة السلبية والإيجابية ناشئة من حقيقة الجسد والروح ، ثم تكون حقيقة البويضة والحيوان المنوى توكيداً آخر لها ، يحمل فى ذاته مزيجا من الجسد والروح ، لأنه صدى لحقيقة « الإنسان » المكون من قبضة الطين ونفخة الروح ! الإنسان الذى لا ينشأ فقط من التقاء البويضة والحيوان المنوى ، بل يحمل كل جنس من جنسيه كذلك أعضاء الذكر والأنثى ، وطبيعة الذكر والأنثى ، وإن كانت إحداهما تغلب فتقرر صورة

الجنس ، والأخرى تظل ضامرة فى صورتها الجنينية . . تشير فقط إلى حقيقة التكوين !

الله أعلم بمن خلق . .

ليس لنا سبيل إلى اليقين القاطع . . وإنما نستعرض الظواهر بقدر ما تنكشف للإدراك البشرى المحدود .

* * *

السلبية والإيجابية استعدادان فطريان يؤدى كل منهما مهمة معينة للحياة .

ونحن فى حديثنا هنا كله نتحدث عن الصورة الفطرية السوية ولا نصف الانحرافات — التى سنفرد لها حديثا خاصاً . وكل الخطوط المتقابلة . . وكل شىء فى النفس البشرية . . قابل للانحراف كما هو قابل للاستواء [وهذا نفسه مظهر من مظاهر الطبيعة المزدوجة فى كيان الإنسان] ولكننا حين نتحدث عن المهمة التى يؤديها كل خط من الخطوط وكل طاقة فى النفس فإننا نتحدث بطبيعة الحال عن الصورة الصحيحة السوية ، لأنها هى الأصل ، وليس الأصل هو الانحراف[1] !

وعلى هذا الأساس نقول إن السلبية تؤدى مهمتها فى الحياة البشرية كالإيجابية سواء .

السلبية — بمعنى الطاعة — ضرورية فى حياة الطفل ليمتثل لتوجيهات الكبار ، التى لا يمكن بدونها أن تنمو فى نفسه القيم المختلفة ، فينشأ وقد غلبت عليه الأنانية والاستجابة السريعة للنزوات — الحسية أو المعنوية — أى أنه ينشأ على مقربة من عالم الحيوان !

---

(١) سنعالج هذه الفكرة فى فصل « الانحراف والشذوذ » وفصل « الخير والشر »

وهى — بمعنى الطاعة كذلك — ضرورية فى حياة الإنسان البالغ ليستطيع الحياة فى المجتمع ذى الأوضاع المنظمة والقواعد الثابتة والأركان الراسخة . . وإلا ظل ناشزا لا يطيع نظاما ولا يخضع لقانون ، فتضطرب الأمور فى المجتمع وينتهى إلى الدمار .

وهى — بمعنى حب الخضوع والاستسلام — ضرورية كذلك فى حياة الطفل وحياة الإنسان البالغ ، لتعطف قلبه للآخرين . . فيحبهم . . ويسلم عواطفه لهم . . فتنشأ الروابط الضرورية بينه وبين الآخرين . . الروابط التى لا تقوم بدونها الحياة .

أما الإيجابية — بمعنى الإرادة والإقدام والفعالية والإبداع والإنشاء والتوجّه — فتؤدى مهامها فى حياة الإنسان بما يشبه مهام « التحرر » التى ذكرناها من قبل .. وإن كانت متميزة عنها فى الموضوع والاتجاه .

أولى المهام هى موازنة السلبية فلا تصل إلى الضعف المعيب وانعدام الشخصية [أى منعها من الانحراف] .

وثانية المهام مقاومة الشر فى النفس والمجتمع . . فلو كان الإنسان سلبياً لكل شىء ، لتفشت الأمراض والشرور دون أن يقاومها أو يغيّر ما فيها من منكر . وتخضع النفوس للفساد والظلم . وينتهى الأمر بالبوار والدمار .

وثالثة المهام إبداع النظم الجديدة التى تدفع البشرية إلى الأمام ، دون خوف من الخروج على « مألوف » الناس حين يفسد هذا المألوف ويصبح مصدراً للفساد .

وكلها أمور حيوية بالنسبة للفرد والمجتمع والحياة . .

ويلتقى الخطان — من طرفيهما — بخطى الالتزام والتحرر . وإن كان فى كل منهما من التخصص ما يجعلهما استعدادين متميزين .

فالالتزام كما قلنا قد يكون سلبيا وقد يكون عن رغبة وتصميم .

والتحرر قد يكون انسياقا سلبيا مع الشهوة وقد يكون عن إرادة وإيجابية واقتحام .

والالتزام رغبة فى اتخاذ سلوك معين محدد مكرر .. بينما السلبية رغبة فى عدم المقاومة للقوى الخارجية (أو الداخلية) التى تفرض وجودها على النفس.

والتحرر رغبة فى الانفكاك من القيد .. بينما الإيجابية رغبة فى البروز إلى الأمام .

ويكفى هذا للتمييز بين الخطين المتشابهين .. وإن كانت بعد ذلك تشتبك الخطوط كلها وتتعقد أشد تعقيد !

* * *

السلبية هى الطور الأول من أطوار النفس ..

فالطفل فى أيامه الأولى مسلوب الإرادة ، خاضع لكل ما يملى عليه من الداخل أو الخارج سواء .

يجوع فيرضع الثدى .. عملية سلبية .

يُرْفَعُ أو يُحَطّ .. فلا يملك أمره .

ولكن بعد فترة بسيطة تنمو الإيجابية التى كانت كامنة — أو عاجزة — من قبل .

يجوع فيطلب الثدى بنفسه أو يطلب الطعام .. ويصرخ حين لا يعطى ما يريد ..

ويرفع أو يحط .. فيقاوم حين لا يريد .

وفى هذه المرحلة تكون السلبية والإيجابية كلتاهما فى نطاق المحسوسات .

ثم تعبران القنطرة إلى الشاطىء الآخر . .

يكون سلبياً فى إطاعة الأوامر الصادرة إليه من الكبار ..

ويكون إيجابياً فى التصرف بما يهديه إليه تفكيره ومزاجه الخاص ..

وسنتكلم فى نهاية الفصل عن التهذيب الضرورى للسلبية والإيجابية .. ولجميع الخطوط والطاقات .. فنكتفى هنا ببيان أنهما خطان فطريان فى الخلقة ، وأنهما — فى صورتهما السوية — يؤديان مهمة ضرورية فى الحياة .

الفـــردية والجماعيـــة

هذان الخطان من أخطر الخطوط فى حياة البشرية . .

فعليهما — فى صورتهما الصحيحة أو المنحرفة — تقوم نظم الحياة كلها ، صالحها أو فاسدها ، وعلاقات الحياة كلها ، سويها أو منحرفها ، وسلوك الأفراد والجماعات . .

وعنهما وحولهما دارت مناقشات كثيرة فلسفية واجتماعية ونفسانية ، وانبنت مذاهب فكرية وسياسية واقتصادية . . بل بتأثيرهما قامت فى البشرية حروب وحدثت اهتزازات واصطدامات ورجات !

والخطان فطريان . .

ففى كل نفس سوية ميل للشعور بالفردية المتميزة . . بالكيان الذاتى . وميل مقابل للاندماج فى الجماعة والحياة معها وفى داخلها .

ومن هذين الميلين معا تتكون الحياة !

ومن ثم لا يكون الإنسان فرداً خالصا ، ولا يكون أيضاً جزءاً منبهما في كيان المجموع .

إنه يحس بفرديته دون شك . يحس بحدود كيانه . يحس « بالأنا » التي يشتمل عليها. يحس برغباته الخاصة وأشواقه الخاصة ومطالبه الخاصة وضروراته الخاصة . يحس بها إحساسا واضحاً محدداً لا لبس فيه ولا إبهام .

فحين يجوع فهو الجائع . وحين يتألم فهو المتألم . وحين يفرح فهو الفرحان . وحين يؤدى عملا فهو بشخصه بفكره بعضلاته بكيانه المحدد الذي يقوم بالعمل . وفي كل حالة يحدث تياران من المشاعر : من الإنسان وإليه ، كما يحدث تياران في الأعصاب من المخ وإليه . . ينشأ نتيجتهما إحساس الإنسان بما يشتمل عليه كيانه في تلك اللحظة من فكر أو عمل أو شعور . .

وهذا هو الكيان الفردي المحدد الحدود .

ومع ذلك فليس هذا هو كل الإنسان ، وإنما هو واحد فقط من جانبي الإنسان .

والجانب الآخر أنه من أعماق فرديته هذه ، المحددة الواضحة الحدود البارزة السمات ، يهفو إلى الآخرين . .

يهفو إلى الجنس الآخر بدافع الجنس . .

ويهفو إلى الذرية . .

ويهفو إلى الأصدقاء . .

ويهفو إلى الزملاء . .

بل يهفو كذلك إلى وجود أعداء أو منافسين يصارعهم ويتغلب عليهم!!

وكل هذه روابط جماعية . . تعبر عن رغبته فى الارتباط بالآخرين بأنواع مختلفة من الرباط . .

وهى رغبة أصيلة جداً وعميقة جداً فى باطن النفس . . نابعة من الكيان المفرد للإنسان !

وهى — فى النهاية — التى تنشىء المجتمع وتنظم ما فيه من روابط ونظم وصلات .

ومن هنا يختلط الفرد والمجتمع فى كيان النفس وفى كيان الحياة !

* * *

لا تمر على الإنسان لحظة واحدة يكون فيها فرداً خالص الفردية قائماً بذاته .

ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون جزءاً من القطيع غير متميز الكيان .

عملية مستحيلة . . غير قابلة للتحقيق . .

فى أشد اللحظات فردية يحمل الإنسان فى قلبه «مشاعر» تربطه بالآخرين .

وفى أشد اللحظات جماعية يحس بأنه — على الأقل — هو الذى ينفذ رغبة الجماعة بذاته . . بكيانه الفردى .

كل ما فى الأمر أن هذه النزعة أو تلك تبرز فى لحظة — أو يُسْمَح لها بالبروز — فتتوارى الأخرى حتى تبرز من جديد . فى عملية مستمرة التداول بين البروز والانحسار .

والإنسان بفطرته تلك — بطبيعته المزدوجة — يعيش . يعيش حياة سوية طبيعية صالحة نافعة .

يستمد من نزعته الفردية .. من إحساسه بذاته .. من حبه للبروز بكيانه..

من حب الخير لنفسه « وإنه لحب الخير لشديد[1] ».. من حرصه على منفعته .. من سعيه لتحقيق رغباته وإثبات ذاته . . يستمد من ذلك جميعاً دافعاً للحركة والنشاط والإنتاج ، والتقدم إلى الأمام .

ويستمد من نزعته الجماعية . . من ميله للوجود مع الآخرين ، والفناء فيهم أحياناً .. من سلبيته إزاءهم .. من ضعفه إليهم وحاجته إلى معاونتهم والأنس بهم.. يستمد من ذلك كله مُعيناً له على قطع بيداء الحياة الموحشة — لو انعزل كل إنسان عن الآخر — وعلى أداء الأعمال التى لا يقدر عليها بمفرده . وعلى التقدم بالحياة كلها إلى الأمام .

ومن ثم تؤدى النزعتان معاً دورهما فى الحياة البشرية ، وتكونان معاً ضروريتين لكيان الإنسان .

* * *

« ولقد اضطربت كثير من النظم وكثير من الفلسفات بين هذه النزعة وتلك . بعضها يوسع دائرة الفردية حتى تصل إلى الأنانية المرذولة ، وتفكيك روابط المجتمع ، وتشتيت طاقاته . وبعضها يوسع الدائرة الجماعية حتى تقضى على كيان الفرد وتكاد تلغى وجوده إذ تعتبره ذرة ضئيلة تافهة لا يستمد كيانه إلا بوصفه فرداً فى القطيع .

« ونحن نرى فى هذه اللحظة على وجه الأرض مذهبين متنافرين ، كل منهما يقوم على اتجاه .

« الرأسمالية فى الغرب قائمة على أساس فردية الإنسان . فتوسع له فى حدود فرديته ، وتترك له حرية التصرف فى كثير من الأمر ، حتى يصل إلى

---

(١) سورة العاديات [٨] .

حد إيذاء نفسه وإيذاء الآخرين ، فلا تحرّج على نشاطه الزائد عن الحد ، ولا تقفه عند حد معقول . يطلق لنفسه عنان الشهوات والأهواء . . ويحطم الأخلاق والتقاليد . . ولا يعترف بحق أحد فى توجيهه وضبط تصرفاته . . ويحول أمواله إلى أداة لاستغلال الآخرين ، وامتصاص جهدهم ودمائهم وتحويلها إلى ترف فاجر ومتاع حسّى غليظ . . ويفسد سياسة الحكم وسياسة المجتمع ، ويفسد تصور الناس للحياة . . ومع ذلك فهو يمارس « حريته الشخصية » وليس لأحد عليه سلطان !

« والشيوعية فى الشرق قائمة على أساس جماعية الإنسان . فتوسع فى دائرة الجماعة — أو فى الحقيقة الدولة — وتحجر على كل نشاط للأفراد — اللهم إلا نشاطهم الحسّى الغليظ فتتركه لهم مباحا للتنفيس عن الطاقة المكبوتة ! — فتمنع اشتراك الناس الفعلى فى سياسة الحكم وسياسة المجتمع ، وتفرض عليهم النظم والترتيبات بحجة أنها أعرف منهم بمصالحهم . فتعيّن لهم أعمالهم ، وأماكن إقامتهم ، كما تعيّن لهم أفكارهم ومشاعرهم وطريقة إحساسهم . . بالأمر . ولا تترك لهم سبيلا للاختيار . وتحكمهم بالحديد والنار والتجسس . وتعتبر كل نصيحة للدولة أو القائم عليها خيانة تعاقب « بالتطهير » لأنها نزعة فردية آثمة ، موجهة ضد كيان الجماعة المقدس ، من فرد لا قداسة له فى ذاته ولا كيان !

« والفلسفات كذلك تخبطت كثيراً فى هذه الأمور . ولم يستطع كثير منها أن يَخْلُصَ إلى حقيقة بديهية بسيطة يؤيدها الواقع المشهود .

« إن هذه الفلسفات تفترض أنه إذا كان الإنسان فردى النزعة فالمجتمع إذن مفروض عليه من خارج نفسه ، متحكم فيه بغير إرادته ، ضاغط على كيانه ، محطم لشخصيته ، ومن ثم فهو مكروه . وتفتيته وتفكيكه حلال !

« أو . . أن النزعة الجماعية هى الأصل . فالطفل يولد ضعيفاً لا حول له ولا قوة . ولا كيان . . ولولا وجوده فى الجماعة ما استطاع أن ينمو وأن يعيش . . وهو فى حاجة دائمة للجماعة لـكى يستمر فى وجوده ، وإذن فالنزعة الفردية رجس ينبغى أن يقاوم . . ينبغى أن تُسحق هذه الرغبة وأن تُزال !

« لماذا ؟ !

« إن هذه الفلسفات لا تنتبه إلى الطبيعة المزدوجة فى هذا الـكيان البشرى. التى تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح . ولـكنها مع ذلك مترابطة . وهى تؤدى مهمتها فى حياة الـكائن البشرى بتناقضها ذلك وترابطها . كما يؤدى مهمتَه الحبُّ والـكره ،والرجاء والخوف ، والسلبية والإيجابية ، والحسية والمعنوية والإيمان بالواقع والإيمان بما وراء الواقع . . ويخرج لنا فى النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الـكيان !

« إن فى صميم الفطرة هذين الخطين . . كل منهما حقيقة . وكل منهما أصيل . والتناقض يحدث فى باطن النفس كما يحدث الاضطراب فى واقع الحياة ، حين تزيد النسبة المقررة لـكل واحد فينحرف عن مساره ، ويعتدى على مسار الآخر ويشده إليه . أما حين يأخذ كل منهما مداره الصحيح ، فلن يحدث التنافر بين الفرد والجماعة أو يحدث الشقاق .

« . . . وهذه فطرة الإنسان : فرد داخل فى المجموع . أصيل الفردية ، أصيل فى الميل للمجموع . وهو دائم التقلب بين نزعتيه المتناقضتين ، كما يتقلب فى نومه من جنب لجنب ليستريح ! ولـكنه فى كل لحظة شامل لجانبيه معاً على اختلاف فى النسبة والمقدار »[1] .

---

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

والمعقول أن تكون الفردية هى الإحساس الأول الذى يخطر فى النفس ..

فالطفل يحس — حين يبدأ فى الإحساس — بأنه موجود كفرد محدد الكيان . وهو إحساس مبهم بكل تأكيد فى مبدإ الأمر . فكل أجهزة الإحساس عند الطفل لا تكون عند مولده تامة التكوين . ولكنه يحس أنه جائع.ويحس هذا الجوع فى داخل كيانه الفردى المحدد . ويحس حين يرضع بلذة فى الرضاعة ، ورضا واكتفاء . ويحس آلاما فى جسمه من تأثير الجو أو من تأثير وضع غير مريح فيصرخ . . حتى يجاب إلى ما يريد . . وهكذا يتضح له كيانه الفردى رويدا رويدا وتتحدد معالمه وتبين . .

ومع ذلك فهو منذ اللحظة الأولى عاجز عن الاستقلال بكيانه الفردى ! محتاج أشد الحاجة إلى مدد من الخارج يأتيه فى صورة الثدى والحضن . . وهما كل ما يتبينه من معنى « الأم » !

فهو إذن — بحكم الضرورة ذاتها — محتاج إلى « المجتمع » الخارجى فى شخص الأم .

وإحساسه بهذه الحاجة مبهم فى مبدإ الأمر كإحساسه بذاته ! فربما يخيل إليه أن الثدى قطعة منه هو لا من شخص آخر ! تنفصل عنه وتتصل به لأسباب لا يدركها ، ولكنها مكملة لكيانه غير منفصلة عنه ! وربما خيل إليه كذلك أن حضن أمه إطار خارجى لكيانه هو ، وليس قطعة من شخص آخر . ويكون « المجتمع » المتمثل فى شخص الأم قطعة حقيقية من نفسه لا شيئا منفصلا عنه !

ويكبر إدراكه بعد فترة ويتحدد . . فيحس بكيانه المفرد على حقيقته ، ويحس بأن الأم كيان منفصل عنه ، يروح ويجىء ، ويبعد ويقترب .. ولكن تشبثه بهذا « المجتمع » المتمثل فى شخص الأم يظل على شدته . .

ثم تزداد رغبته فى رؤية الآخرين والأنس بهم . . حتى تقوى رجلاه على حمله فينتقل هو إليهم ليشعر « بوجوده » معهم . . ويكون كيانه الفردى عندئذ ممتزجا بكيانه الجماعى غير متميزين .

واللعب . . وهو نشاط الطفولة ، مظهر بارز لاختلاط الفردية والجماعية فى نفس الطفل . فهو يلعب مع الآخرين ليثبت ذاته ويكمل وجوده الفردى بوجودهم . . وحتى حين يلعب وحده فهو ينشىء فى خياله مجتمعا من الناس يتحدث إليهم ويتخيل أنهم يتحدثون إليه ويشاركونه مشاعره وأفكاره . فهو فى « مجتمع » دائم لا ينعزل بشخصه فى لحظة من اللحظات . .

وحين يشتد إحساسه بذاتيته المفردة . . وحين يأخذ فى العناد مع أبويه ومع الآخرين لإثبات ذاته .. وحين يصل الأمر إلى الأنانية الشديدة أحيانا .. « أنا » أريد كذا . . لا بد من كذا لأننى « أنا » أريده . . حتى فى هذه الفترة من العمر فلا انفصال بين نزعتى الطفل — الممثلتين لنزعتى الإنسان كله — وإنما هناك فقط بروز فى إحدى النزعتين يلونهما كليهما ! فحين تبرز النزعة الفردية إلى هذا الحد فهى لا تقتل النزعة الجماعية وإنما تلونها بالصراع ! فهو يريد المجتمع . . ولكنه يريده خاضعا لنزعاته ، ملبيا لطلباته .. ولا يحب أن ينعزل عنه ليبقى فردا بلا زملاء وأصدقاء . . أو بلا منافسين وخصماء !

وهذه المرحلة طبيعية فى حياة الطفل وإن كانت فى حاجة إلى الرعاية الدائمة والتوجيه لكيلا تزيد عن الحد ، ولكيلا يثبت عليها الطفل فينشأ منحرفا . . جانحا بأحد جانبيه . .

وهى تؤدى مهمتها فى حياته . .

فكما رأيناه من قبل يتداول الحسية والمعنوية فى حياته ، لينمو كل جانب منهما فى فترة من الوقت استعدادا للحياة المقبلة . .

وكما رأيناه يتداول الحب والكره والخوف والرجاء لينمو كل منهما فى فترة معينة استعداداً للمستقبل . .

وكما رأيناه يتداول الواقع والخيال . . والسلبية والإيجابية . . كل منها تبرز فى فترة معينة لتتدرب للمستقبل . .

فكذلك الفردية والجماعية تتداولان البروز فى كيانه . . تنمو هذه مرة وتنمو الأخرى مرة ليكون عند نضجه قد تدرب على جميع المشاعر وجميع الاتجاهات !

فهو يعود فى فترة المراهقة جماعيا بصورة بارزة ، بعد فترة الفردية السابقة .. وإن كان — كما سبق أن بيّنا — لا يفقد أياً من عنصريه فى لحظة بروز العنصر الآخر . وإنما ينحسر الآخر انحساراً مؤقتا ولا يزول .

ثم يستوى فى مرحلة الشباب والنضج على وضعه الطبيعى الذى يقضى به بقية حياته بعد أن تدربت كل جوانبه من قبل . . وفى هذا الوضع الطبيعى تعمل النزعتان معا .. ولكن على صورتهما الطبيعية التى تجعل هذا الجانب يبرز فى لحظة وذاك فى لحظة . . فى تداول مستمر مدى الحياة .

وفى كل شأن من شئون الحياة يواجه الإنسان الأمر بكيانه كله . . أياً كان الجانب البارز منه فى هذه اللحظة أو تلك . . ولا يواجهه مرة واحدة بجزء واحد من كيانه ، فهذا أمر مستحيل !

يكبر الإنسان .. ويتزوج ويكوّن أسرة . . ويشارك فى تسيير دفة المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وفكريا وروحيا بصورة من الصور . . وهو فى كل

ذلك إنسان ذو نزعتين ، فردية وجماعية .. متشابكتين ومجتمعتين .. لاتنفصل إحداهما عن الأخرى ما دامت الحياة . .

* * *

لذلك كان عجبا ما يراه فرويد وغيره من التحليليين . . من أن الفرد هو الضحية الدائمة للمجتمع . . وأن المجتمع شيء مفروض على الإنسان من خارج كيانه ، وضاغط عليه وكابت لرغباته ، ومعوّق لنموه الأصيل !

عجب . . وقد تبينا كيف ينشأ المجتمع من داخل كيان الفرد . . من أعمق أعماقه . . من رغبته فى الاجتماع بالآخرين !

ولا نتحدث هنا عن المجتمع المنحرف الذى يضغط كيان الفرد ضغطا زائدا عن الحد [وفرويد لا يتحدث عن المجتمع المنحرف ، وإنما يتحدث عن كل مجتمع . . عن المجتمع إطلاقا !] وإنما نتحدث عن المجتمع « الطبيعى » الذى ينشأ حتما من تلاقى الأفراد ، والذى يعيش فيه الفرد بالقدر المعقول من الحرية والانطلاق [فى الحدود التى لا تدمر المجتمع ، لأن تدمير المجتمع هو بالتالى تدمير للأفراد !] هذا المجتمع ليس مفروضا على الإنسان من خارج نفسه ، وليس راغبا فى قتله ، وليس معوّقا لنموه الطبيعى . . بل هو التكملة الطبيعية للفرد [ما دامت نابعة من داخل نفسه] وهو الامتداد الطبيعى الذى يجد فيه الفرد وجوده المتكامل السليم .

وعجب كذلك ما يراه علماء الاجتماع — الجماعيون [دركايم وأمثاله] الذين يرون المجتمع قوة قائمة بذاتها ، غير نابعة من كيان الأفراد ، ومؤثرة فى الأفراد بإرادة مستقلة عن إرادتهم ! أين توجد هذه القوة إذن ؟ ! فى أى فراغ مطلق تقيم ، ومن أى فضاء تؤثر فى حياة الأفراد وتوجههم ؟ !

هؤلاء وهؤلاء ينحرفون فى تصورهم للأمر ، لأنهم يأخذون الإنسان من أحد جانبيه دون الآخر ، وينظرون للحياة من زاوية رصد منحرفة لا ترى إلا جانباً واحدا من الجانبين . .

ولو رأوا الإنسان على طبيعته . . الفردية الجماعية معاً فى ذات الوقت . . ولو لاحظوا أن هذا الازدواج طبيعة شاملة . . وأن الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية ظاهرة تشملها كلها . . إذن لعرفوا أن الفرد أصيل كالمجتمع سواء !

* * *

هذه الخطوط المتقابلة التى استعرضناها تفصيلا من قبل . . إنها مجتمعةً تؤدى مهمة معينة فى حياة الإنسان ! إنها تمتد — متقابلة — على جانبى نفسه ، وتشتبك وتختلط فى داخلها ، كما تشتبك الأعصاب وتمتد فى داخل الجسم والأطراف ، لتؤدى فى كيان النفس مهمة شبيهة بمهمة الأعصاب فى كيان الجسم !

إن امتداد الأعصاب فى الجسم كله وتداخلها واشتباكها مهمته أن ينقل « الحس » من المخ إلى جميع أجزاء الجسم ومن جميع الأجزاء إلى المخ ، فيحس الإنسان « بكل شىء » يقع فى نطاق حسه ، ويدرك — عن هذا الطريق — كل ما يتاح له إدراكه .

و « الأعصاب النفسية » إذا جاز لنا استخدام هذا اللفظ . . وهى الخوف والرجاء ، والحب والكره ، والحسية والمعنوية . . الخ . . الخ . . تمتد إلى كل جزء من أجزاء النفس ، ثم تتجمع فى الكيان النفسى الموحد ، لكى تنقل الإشارات من هذا الكيان الموحد إلى الأجزاء ، ومن الأجزاء إلى الكيان الموحد ، فيحس الإنسان بكل شىء يقع فى نطاق شعوره ، ويدرك — من هذا الطريق — كل ما يتاح له إدراكه .

تلك هى المهمة الأولى لهذه الأعصاب النفسية . .

ومن هنا يتضح أنها — بتعددها ، واختلاف أنواعها ، وامتدادها ، وتشابكها — تعطى سعة عظيمة للنفس الإنسانية ، هى مظهر من مظاهر القدرة التى وهبها الله للإنسان وهو يمنحه الخلافة عنه فى الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1] . .

فقد لمحنا — فى أثناء الاستعراض التفصيلى لكل زوج من الخطوط — أنها تتداخل ، فينتج من تداخلها مزيج جديد غير المزيج الأصلى لكل زوج من الأزواج بمفرده !

الخوف والرجاء زوجان من الخطوط . . يعطيان — منفردين — لونا معينا من الشعور .

ثم يختلط الخوف والرجاء بالحسية والمعنوية . . فينتج خوف حسى — يتصل بالجسم وبالمحسوس — وخوف معنوى يتصل بالمشاعر والقيم والأفكار . . ورجاء حسى يتصل بنعيم الجسم ولذائذه ، ورجاء معنوى يتصل بالسعادة الشعورية والفكرية والروحية .

ويختلطان بالحب والكره . . فإذا هناك خوف مكروه . . وخوف محبوب ! خوف مكروه يخافه الإنسان ويكرهه فى ذات الوقت ، كما يخاف الموت ويكرهه . ويخاف الألم ويكرهه . . وخوف محبوب ، كالمخاطر ، والمغامرات التى يخشاها الإنسان ومع ذلك يحبها ويقبل عليها . . بل قد يندفع إليها ولو أدت إلى الموت ! وإذا هناك رجاء محبوب ورجاء مكروه . رجاء محبوب يرجوه الإنسان ويحبه ، كما يرجو النعيم ويحبه . . وكما يرجو لقاء الأحباب

---

(١) سورة البقرة [٣٠].

ويحبه . . ورجاء مكروه . . كما يرجو الإنسان النجاة والأمن لنفسه أحيانا ببذل شيء من كرامته أو إنسانيته أو حريته . . فهو يحب النجاة ولكنه يكره مجيئها إليه بهذه التضحية المزرية ، ويختلط الشعوران معاً فإذا هو رجاء مكروه !

ويختلطان بالواقع والخيال . . فإذا هناك خوف واقعى ، ناشيء من شيء موجود فى عالم الواقع ، وخوف خيالى ناشيء من أشياء متخيلة أو موهومة . . وإذا هناك رجاء واقعى ، متصل بأمر واقعى ، ورجاء خيالى يعيش فى عالم الوهم !

ويختلطان بما تدركه الحواس ومالا تدركه الحواس . . فإذا هناك خوف متصل بالعالم المحسوس ، وخوف متصل بالغيب . . خوف متصل بالله ، وخشيته وتقواه . . وإذا هناك رجاء متصل بالعالم الأرضى المحسوس ، ورجاء متصل بعالم الغيب . . رجاء فى الله .

ويختلطان بالسلبية والإيجابية . . فإذا هناك خوف سلبي . . يجعل الإنسان يجمد مكانه ولا يتحرك . . وخوف إيجابى ، يجعل الإنسان يقتحم الأمر المخيف المرهوب . . وإذا هناك رجاء سلبى . . رجاء الاسترخاء والتواكل البليد . . ورجاء إيجابى يسعى لتحقيق مايريد .

ويختلطان بالفردية والجماعية . . فإذا هناك خوف فردى يتصل بذات الإنسان المفرد . . وخوف جماعى يتصل بإحساس الإنسان بالجماعة التى يعيش فيها وخوفه عليها من أن يصيبها مكروه . وإذا هناك رجاء فردى يتصل بذات الإنسان وحده . . ورجاء جماعى ، حين يرجو الإنسان الخير للجماعة التى يعيش فيها ولها .

وهكذا . . وهكذا ينشأ مزيج جديد فى كل مرة يختلط فيها خطا الخوف والرجاء بخطين آخرين من خطوط النفس !

وذلك مثل واحد . . يتكرر مع كل زوج من الخطوط نبدأ منه ونركب الآخرين عليه ! وهو مثل بسيط لاتعقيد فيه . . مكون من زوجين اثنين فى كل مرة . . يمكن أن نتدرج معه بمزج ثلاثة أزواج مرة واحدة . كما يختلط خطًا الخوف والرجاء بالفردية والجماعية بالحسية والمعنوية . . فيخاف الإنسان على نفسه فرداً فى محيط الحس ، ويخاف على نفسه فرداً فى نطاق المعنويات . ثم يخاف على الجماعة فى محيط الحس ، ويخاف على الجماعة فى محيط المعنويات !

ثم نظل نتدرج حتى نصل — إذا استطعنا — إلى تصور الخطوط كلها ممتزجة متشابكة تعمل فى وقت واحد وفى نطاق واحد . . فهذه إذن هى النفس الإنسانية ! !

* * *

بهذه « الأعصاب النفسية » المتداخلة المتشابكة المتعددة المتنوعة ، « يتذوق » الإنسان عدداً لايحصى من مشاعر الوجود !

وتلك إحدى نعم الخالق عليه . . إحدى المواهب التى كرمه بها وفضله على كثير ممن خلق : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] .

هذه السعة النفسية — الفريدة فى كل ما نعلم من خلق الله — هى التى تعطى الحياة البشرية تلك السعة والتنويع اللذين تتميز بهما حياة الإنسان عن غيره من المخلوقات .

هى التى تعطيه موهبة الحياة على مستويات متعددة وفى اتجاهات متعددة : حسية ومعنوية ، مادية وروحية ، فرديةواجتماعية ، اقتصادية وسياسية وفكرية وفنية وعلمية وعملية . . .

---

(١) سورة الإسراء [٧٠] .

هى التى تجعله ينشىء الحضارات ، بكل ما تشتمل عليه الحضارة من إنتاج فى عالم المادة وعالم الفكر وعالم الروح . .

هى التى تجعل يديه تعملان فى المادة ، ونفسه تعمل فى القيم ، وروحه تعمل فى العقيدة . .

هى التى تجعله يأكل ويشرب ويقضى ضروراته كلها فى عالم الحس ، ثم يسبح بروحه فى ملكوت الله الواسع ، ثم تنبض مشاعره بأحاسيس فنية يسجلها فى قصيدة أو لوحة أو لحن أو ما شاء من الفنون . .

هى التى تجعله يدخل الحرب ويعقد السلم . . يقتل ويسفك الدماء ، ثم تشف روحه بالحب كأنها شعاع من النور . .

هى التى تجعله يكشف ويخترع ويصل كل يوم إلى جديد . .

وهى موهبة موهوبة له من الخالق . . لأمر أراده يوم خلق الله الأرض والسماوات !

* * *

والمهمة الثانية لهذه الخطوط المتقابلة — غير توسيع الحياة وتلوينها وتعديد مذاقاتها ومنتجاتها — هى إنشاء « روابط » متعددة بين الإنسان والحياة .

إن الخالق المبدع — سبحانه — وقد شاء للإنسان أن يؤدى دوره الضخم فى حياة الكون — قد شاء له أن يرتبط بالحياة بأكثر من رباط . وسنتحدث فى الفصل التالى « الدوافع والضوابط » عن كثير من هذه الرباطات . ولكننا هنا نكتفى بأن نقول إن هذه الخطوط المتعددة تعتبر نقط اتصال — أو «مشابك» - تشتبك النفس عن طريقها بالحياة . تتصل بها خوفاً ورجاء، وحباً وكرهاً ، وحساً ومعنى ، واقعاً وخيالا ، وفردية وجماعية . . الخ فتنفذ

الحياة إلى النفس من هذه المنافذ المتعددة ، وتخرج النفس إلى الحياة من هذه المنافذ كذلك . . فتتعمق الصلات بين الإنسان والحياة ، وبين الإنسان والكون . . وتكون هذه الصلات العميقة الوثيقة أداة من أدوات الخلافة فى الأرض ، إذ ينبغى —فى علم الله— أن تكون الصلات عميقة جداً ومتعددة ومرتبطة بأوثق الحبال وأمتنها ، لكى يستطيع الإنسان أن يقاوم العقبات الكثيرة فى طريقه ، وينتصر فى معركة « الكدح » الدائم الذى يمثل الحياة : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه »[1]. « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »[2].

وعلى قدر ما تشتبك نفس الإنسان بالحياة والكون بهذه المشابك المختلفة تزداد قيمته فى الحياة ويعظم الدور الذى يؤديه فيها. وعلى قدر ما تنفصم الرباطات يتضاءل دوره فى الحياة !

* * *

أما المهمة الكبرى — الملحوظة فى تقابل الخطوط على جانبي النفس — فهى إنشاء التوازن فى كيان الإنسان .

إن كل خطين متقابلين هما رباطان يربطان الكيان النفسى من الجانبين .

وبقدر تعدد الخطوط تتعدد الرباطات . . وتتقابل كذلك من الجانبين .

وقد أحصينا منها ثمانية أزواج متقابلة [أو تسعة][3] فى هذا الفصل — وقد يكشف البحث عن مزيد — فإذا تخيلنا ثمانية أزواج من الأوتاد المربوطة ثمانية من هنا وثمانية من هناك ، فى نقط متفرقة ، مرسومة رسماً هندسياً

---

(١) سورة الانشقاق [٦]	(٢) سورة البلد [٤] .
(٣) انظر الهامشة فى ص ١١٤

دقيقاً ، استطعنا أن نتخيل الكيان الذى تربطه هذه الأوتاد متوازناً توازناً كاملا لا يميل من هنا ولا يميل من هناك .

وتلك إرادة الله لهذا المخلوق . . التوازن الذى يجعله يمشى على الصراط !

إن التوازن سمة عامة للكون كله الذى خلقه الله . .

السماوات والأرض .. الكواكب والنجوم .. المادة والإشعاع . كل شىء فى خلق الله ملحوظ فيه التناسق الدقيق والتوازن المضبوط .. التوازن الذى يدير الأفلاك فى فضائها الهائل فى مدارات مضبوطة لا تختل ولا تصطدم ولا تخرج عن خطها قيد شعرة فى هذا الفضاء الرهيب . .

والأرض ملحوظ فيها التوازن فى عناصرها ، فى برها ومائها ، فى جوها ، فى كائناتها الحية : « وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون »[1] .

والإنسان بضعة من هذا الكون تحكمه نواميسه . .

وفى فطرة الإنسان هذا التوازن . . تنشئه هنا هذه الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية — حين تكون كلها فى وضعها الصحيح ونسبها الصحيحة — فتشده من الجانبين بنسب متساوية ، وتجعله فى النهاية يقوم متوازناً فى نقطة الوسط الموزون .

* * *

تلك بعض الأسرار فى تركيب النفس المعقد المتشابك الدقيق . .

وما نزعم ، وما يزعم أحد ، أنه يحيط بكل أسرار النفس ، ويصل إلى كل أغوارها . . وإنما نستجيب لأمر الله حين يقول للناس : « وفى أنفسكم . . أفلا تبصرون ؟ »[2] فنحاول أن نبصر منها بقدر ما تطيق البصائر والأبصار !

---

(١) سورة الحجر [١٩]   (٢) سورة الذاريات [٢١] .

ثم ننتقل من استعراض الخطوط المتقابلة وما نكشف عنه من مهامها . . إلى الطرق التى تتبعها نظم التربية فى « تهذيب » هذه الطاقات والاستعدادات والخطوط . .

إنها — بادئ ذى بدء — لابد لها من تهذيب !

حقيقة إنها فطرية كلها ، وإنها تؤدى — بالفطرة — إلى التوازن الصحيح فى نهاية المطاف .

ولكن من حقيقة الفطرة كذلك أنها تحتاج إلى «التربية» و«التعليم».

إن الإنسان ليس أُحَادِىّ النزعة فى أى شأن من شئون كيانه . .

ومن ألوان الازدواج فى طبيعته أن فى كيانه استعداداً للاستواء واستعداداً للانحراف[1].

ومن أجل ذلك يحتاج إلى التقويم والتهذيب ليستقيم . . وإلا مال مع الاستعداد الآخر . . استعداد الانحراف !

وسنتكلم فى فصل الشذوذ والانحراف عن بضعة من ألوان الشذوذ بعد أن نستكمل الحديث عن النفس السوية فى كل مجالاتها .

ولكننا هنا — فيما يتعلق بالخطوط المتقابلة فى النفس البشرية — نذكر أننا فى أثناء استعراضها لاحظنا طريقة نموها من الطفولة الباكرة إلى مرحلة النضوج ، فرأيناها تنمو فى دفعات ، كل دفعة تكاد تختص بأحد الجانبين حتى ينضج الخطان معاً فى نهاية المطاف .

مرة يبرز الحب لينضج . . ومرة يبرز الكره .

(١) انظر بعد ذلك فصل « الشذوذ والانحراف » وفصل « الخير والشر » .

مرة يبرز الخوف . . ومرة يبرز الرجاء .

مرة يبرز الحسى . . ومرة يبرز المعنوى .

مرة يبرز الواقع . . ومرة يبرز الخيال .

مرة تبرز الفردية . . ومرة تبرز الجماعية . . الخ .

وفى النهاية يكونان قد نضجا كلاهما ، فيتداولان البروز والانحسار فى النفس — على نضج — فيبرز هذا وينحسر ذاك مع وجودهما كليهما على مستوى واحد من النضوج .

تلك المرحلة الطويلة من النمو عرضة للانحراف فى كل مرة إذا لم يلاحقها التقويم والتهذيب .

الطفل عرضة مثلا لأن ينضج فيه جانب السلبية ولاينضج جانب الإيجابية فينشأ ضعيف الشخصية خامل الكيان .

وعرضة لأن ينمو فيه الجانب الحسى ولا ينمو الجانب المعنوى الذى يوازنه فينشأ منغمساً فى لذائذ الحس ، لايرتقى إلى عالم القيم والأفكار والعقائد.. ويظل على مقربة من عالم الحيوان .

وعرضة لأن ينمو فيه جانب الواقع ولا ينمو جانب الخيال [أو العكس بطبيعة الحال] فينشأ مسرفاً فى أحد الجانبين وناقصاً فى الجانب الآخر . . واقعياً ضيق الأفق لا يقوى على التفكير خارج نطاق الواقع الصغير الذى يحيط بشخصه أو مجتمعه . . أو خيالياً لا يحسن مواقعة الحياة ، يتعثر فى مشكلاتها على الدوام .

وعرضة لأن ينمو فيه جانب الفردية فيطغى ، ويظلم ، وتنضب فى نفسه

مشاعر الإنسانية والمودة والإخاء . . أو جانب الجماعية فيذوب فى كيان الآخرين ويصبح بلا كيان . .

هذه واحدة . .

ثم هو عرضة لأن يغذى هذه المشاعر والطاقات بغذاء خاطىء . . نتيجة تنمية بعض الأزواج دون بعضها الآخر .

قد ينمو فيه خطا الفردية والجماعية معاً . . وليس أحدهما دون الآخر . . ولكنهما ينموان فى محيط ما تدركه الحواس فحسب ، دون أن ينموا فى محيط الإيمان بالغيب . وهنا ينشأ اختلال من نوع آخر . فليس منشأ الاختلال أن النزعة الفردية قد غلبت أو النزعة الجماعية . . ولكن منشأه أن هذا التوازن الجزئى بين الفردية والجماعية قد اختل بكامله لأنه جنح إلى جانب الإيمان بالمحسوس دون الإيمان بالغيب . وأقرب مثال لذلك « الديمقراطيات » الغربية حتى المتوازن منها ، التى تدع مجالا معقولا للفرد ومجالا معقولا للجماعة . ولكنها فى الوقت ذاته تعيش — فرداً وجماعة — على مستوى الحيوان لا على مستوى الإنسان . على مستوى اللذائذ الحسية والمنافع القريبة ، بعيداً عن القيم العليا ، وبعيداً عن الله .

وذلك يكفى لإعطائنا فكرة عن مجالات الانحراف فى هذه الخطوط . .

والطريقة التى تتبعها نظم التربية والتهذيب يتوقف عليها مصير الإنسان فى مرحلة النضوج .

وكثير من الاختلالات التى تعانيها البشرية اليوم فى الشرق والغرب . . سببها اختلال فى طريقة التهذيب .

إن البشرية كلها تمارس نوعا من التهذيب بالضرورة .. يستوى فى ذلك

سكان الكهوف وسكان أرقى المدن فى أرقى الحضارات . فالتهذيب من اللوازم الأولى للبشرية ..ومن بديهياتها التى تفترق بها عن الحيوان .

ولكن نظم التهذيب تفترق فروقاً شاسعة من أقصى اليسار لأقصى اليمين .

والغرب — الذى تغلب حضارته اليوم على الأرض — يمارس ألوانا من التهذيب ، رائعة جداً فى بعض جزئياتها ، ولكنها فى مجموعها منحرفة أشد الانحراف .

والسبب كما قلنا هو العناية ببعض الخطوط البشرية دون بعضها الآخر ، أو تغذيتها بغذاء فاسد من هنا أو هناك .

ولا تستقيم الفطرة ولا تتوازن إلا حين تُهذّب الخطوط كلها فى ذات الوقت ، وتغذى بالغذاء الصالح السليم .

وهذا ما يصنعه الإسلام..دين الفطرة : «فطرة الله التى فطر الناس عليها.. ذلك الدين القيم »[1] .

وقد تحدثت بتفصيل فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » عن طريقة معالجة الإسلام للخطوط المتقابلة فى النفس البشرية .. بما لا أملك نقله هنا ولا تكراره فى هذا الكتاب .

ولكن لا بأس من بعض فقرات :

« ومزية الإسلام — فى مسايرته للفطرة — أنه لا يترك وترا من أوتار النفس لا يوقع عليه . ثم هو لا يوقع على وتر أكثر من طاقته ، أو يبخسه قدره فلا يوقع عليه ما يستحق من نغمات ! وبذلك يشمل الكيان الإنسانى كله ، وفوق ذلك يحدث التوازن فى داخل النفس بشدها إلى أوتادها جميعاً

(١) سورة الروم [٣٠].

فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك ، والتوقيع على أوتارها جميعاً فلا تنطق من جانب وتظل فى الجانب الآخر صماء ! »

« والإسلام يعمد إلى خطّى الخوف والرجاء ، فينفض عنهما أولا كل خوف فاسد وكل رجاء منحرف ، ثم يعمد إليهما بعد ذلك فيوقع عليهما الإيقاع الصحيح الذى يصدرعن نفس بشرية سوية ينبغى لها أن ترجو وينبغى لها أن تخاف .

« ينفض من وتر الخوف أولا كل ما يرهق كاهل البشر من مخاوف زائفة .. زائفة لأنه لا طائل وراءها : لا تقدم ولا تؤخر .. ولا تغير شيئاً من واقع الأمر !

« ينفض عنه الخوف من الموت! إذ أنه .. ما قيمته ؟ هل يؤخر الأجل ، أويغيّر المكتوب ؟ كلا ! ومادام لا يغيّر شيئاً من الواقع فهو إذن أمر لا يليق.. إنه تبديد للطاقة وتدمير للكيان .. بلا نتيجة .

« لذلك يكرر القرآن هذه الحقيقة فى صور شتى وإيقاعات متنوعة .

« إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ».. إلخ ... إلخ ..

« والخوف على الرزق كذلك :

« قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله » .. إلخ .. إلخ ..

« وكذلك الخوف من أذى الناس ومن أى ضرر توقعه بالإنسان قوى الأرض . . .

« وكذلك الخوف من النتائج المجهولة المبنية على حاضر معلوم ...

« وهكذا يتناول القرآن كل المخاوف البشرية الزائفة واحداً وحداً فينفضها عن النفس ، ويرفع عنها إصرها ، ليطلقها تواجه الحياة قوية عزيزة متمكنة متطلعة ، مطمئنة إلى قدر الله .

« ثم يمسك وتر الخوف — الفطرى فى النفس البشرية — فيوقع عليه نغمة الخوف القويمة الأصيلة التى ينبغى أن تصدر عن هذا الكيان.

« إن قوى الأرض كلها لا تخيف — أو لا ينبغى أن تخيف — لأنها قوى مسخرة . لا تستمد من نفسها ، ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعا . والقوة التى ينبغى أن تخاف حقا هى القوة التى بيدها كل شىء . هى المانحة حقا والمانعة حقاً . وإذن فخوفها هو الخوف الواجب . وخشيتها هى السبيل .

« الخوف ينبغى أن يكون من الله . ومما يُخَوِّفُ به الله » .

* * *

« من أجل ذلك يضع الإسلام « ضوابط » لشهوة الحب والكره . ضوابط تتصل بالروح ، وضوابط تتصل بالعقل ، وجميعها يتصل بالله . . . .

« ولكى يصل الإسلام إلى ذلك فإنه يوقع على وتر الحب أنغاما جميلة شفيفة رائقة تنتهى فى النهاية إلى أن يحب الإنسان نفسه فى وضعها الصحيح !

« يوقع أولا نغمة الحب لله .. وإنها لتوقيعات شتى ...

« ويوقع نغمة الحب للكون الذى خلقه الله .. فالإسلام — كما قلنا من قبل — يعقد صداقة قوية بين الكون والإنسان ...

« ثم يوقع نغمة الحب لبنى الإنسان ..

« وحين يوقع الإسلام أنغام الحب هذه كلها ، فإنها — بطبيعتها — توازن حب الإنسان لنفسه ، وتضعه فى وضعه الصحيح ، الذى لا يظلم ولا يجور ، ولا يغتصب لنفسه حقوق الآخرين .

« أما الكره فيوجه إلى قوى الشر فى الأرض . . . »

* * *

« الإسلام يساير الفطرة بشقيها ، فيعطى الطاقة الحسية غذاءها ، ويمنح الطاقة المعنوية مجال العمل والإبداع .

« كل لذائذ الحس مباحة ما دامت فى الدائرة المأمونة النظيفة التى لا تضر بالفرد ولا تضر بالمجموع . لذائذ الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس .. وما يبتدعه الإنسان من أدوات تيسر حياته وتوفر جهده وتمتع حسه المتعة الحلال . . وفى ذلك غذاء كامل لطاقة الحس .

« أما الطاقة المعنوية . . الطاقة التى هى إنسانية أصيلة . . الطاقة التى تميز بها الإنسان عن الحيوان . . فالإسلام يحتفل بها احتفالا ضخماً ، ويجعلها هى أساس الحياة الإنسانية ، بما أنها هى أساس إنسانية الإنسان .

« أول مايحتفل بها يمنحها العقيدة . العقيدة على شمولها واتساعها وطلاقتها . العقيدة بمعنى الإيمان بوجود الله ووحدانيته . وبمعنى العبادة لله وإخلاص الدين له . وبمعنى تصور الكون والحياة على أساس هذا الإيمان بالله . وبمعنى الإيمان بالحق الذى خلق به الله السماوات والأرض . وبمعنى إحقاق هذا الحق على ظهر الأرض . وبمعنى إقامة المجتمع الإنسانى على أساس الحق الإلهى الذى نزل به القرآن . وبمعنى الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق وفى سبيل الإسلام . . الجهاد فى سبيل إقامة مجتمع نظيف متوازن يؤمن بما أنزل الله ، ويحكم بما أنزل الله . . تلك هى العقيدة التى يبذرها الإسلام فى النفوس ، ويغذي بها الطاقة المعنوية فى الإنسان » .

* * *

« والإسلام يتناول هاتين الطاقتين [السلبية والإيجابية] فيضع كلاً منهما

فى مكانه الصحيح ، وفى التو تنطلق النفس صحيحة البنيان قوية الكيان . . كما تدور الساعة فى اللحظة التى يتم فيها وضع المسامير و « التروس » فى مكانها الصحيح .

« يجعل الإسلام سلبية كاملة إزاء الله . .

« وإيجابية كاملة إزاء كل قوى الكون .

« وبذلك تصلح النفس وتستقيم الحياة .

« سلبية كاملة إزاء الله . . فالله هو الخالق ، والله هو المدبر ، والله هو مالك الملك ومصرف كل أمر . هو الذى يحى ويميت ويبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . وهو القاهر فوق عباده . وهو الفعال لما يريد . وهو الذى يملك حقاً أن ينفذ ما يريد ، حيث لا يملك أحد غيره من البشر لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فضلا عن أن يملكوا للآخرين . . . .

« . . . . وهو تسليم الحب ! وليس تسليم القهر !

« إن الله هو القاهر فوق عباده حقاً . وهو يملك كل وسائل القهر ، وبيده ملكوت كل شىء . ولكن الله ذاته هو الذى يحب عباده ويرضى عنهم ، ويدعوهم إلى حبه « والرضى عنه » .

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم .

« وهو تسليم الاطمئنان : ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب .

« ومن هذا التسليم الخالص لله يستمد الإنسان إيجابيته الكاملة تجاه الأشياء والأشخاص والأحداث !

« إنها العجيبة التي تحدث في النفس المؤمنة ! عجيبة الإيمان التي تملؤها فتطلقها بانية منشئة هادية ، مكافحة معتزة مجاهدة مستعلية !

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » تلك هي العزة إزاء الأشخاص .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » وتلك هي العزة إزاء الأحداث .

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » . وتلك هي العزة إزاء الأشياء .

« عزة كاملة في كل اتجاه .

« وهذه معجزة الإيمان . التسليم الكامل لله يعطي النفس هذه القوة العجيبة التي تكافح بها كل شيء وتستعلي بها على كل شيء ، وتنشيء بها ما تريد .

« إنه لا عبودية لقوة المادة ولا قوة الاقتصاد ولا قوة الدولة ولا قوة المجتمع ولا قوة العادة ولا قوة التقاليد . . لا « حتمية » لشيء على وجه الأرض إلا سنة الله : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » . ومن سنة الله أن تكون النفس المؤمنة قوة كونية قادرة ، تسير مع الناموس الأكبر ، وتفهم عنه أسراره ، وتستغل قواه وطاقاته . . لأن هذه القوى والطاقات كلها مسخرة للإنسان باذن من الله .

« ومن ثم كان المسلمون الأوائل الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان حقاً ينشئون نظاما غير مسبوق في كل الأرض : نظاماً سياسياً واقتصاديا واجتماعيا وفكريا وروحياً لا توحي به ضرورة من ضرورات الأرض ، وليس نتيجة

« حتمية » لشيء من ظروف الأرض . إنما يُنشَأ إنشاء ، إرادةً واقتداراً ، بدافع الإيمان » .

* * *

تلك نماذج متفرقة من معالجة الإسلام للخطوط المتقابلة فى النفس البشرية تكفى لتنير الطريق . .

وخلاصتها فى النهاية أنها تساير الفطرة بما فيها من شمول وتكامل ، وما هى عليه من ازدواج الطبيعة وتوحد الكيان .

ومن ثم تصل هذه الطريقة إلى التوازن فى كيان الإنسان ، الذى هو سمة فى الوقت ذاته من سمات الكون والحياة . كما تصل إلى تعميق الحياة فى نفس الكائن البشرى ، وإثرائها بعديد من المشاعر وعديد من « المذاقات » .

الدوافع والضوابط

تحدثنا فى الفصل السابق عن « الأعصاب النفسية » . . أو الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية . وقلنا إنها «منافذ» متعددة — متشابكة متداخلة — تنفذ منها الحياة الخارجية إلى داخل النفس ، وينفذ منها باطن النفس إلى الحياة . . كما قلنا إنها تقوم فى النفس بما يشبه دور الأعصاب فى الجسم . فإذا كانت هذه تنقل الأحاسيس من جميع أجزاء الجسم إلى المخ ، ومن المخ إلى جميع الأجزاء . . فتلك تنقل المشاعر من أجزاء النفس كلها إلى الكيان النفسى المتجمع — إلى مركز الوجدان أياً كان موضعه — ومن هذا الكيان المركزى المتجمع إلى جميع أجزاء النفس . . .

من خلال هذه المنافذ تنطلق الطاقة الحيوية للإنسان . . الطاقة الدافعة ، فتتلون بألوانها ، كما تأخذ الأحاسيس لون العصب الذى تمر فيه ، فتصبح إحساساً بالألم أو اللذة أو الحرارة أو البرودة . . إلخ بحسب نوع العصب الذى تمر فيه ، ثم تصبح فى مركز الإحساس فى المخ مزيجاً مختلطاً من أحاسيس متباينة فى وقت واحد . . وكذلك تتلون الطاقة الدافعة بلون « العصب النفسى » الذى تمر فيه ، فتصبح شعوراً بالحب أو شعوراً بالكره ، أو شعوراً بالخوف أو شعوراً بالرجاء . . . الخ ثم تصبح فى الكيان النفسى المتجمع مزيجاً مختلطاً من مشاعر متباينة فى وقت واحد ، يختلف فى مجموعه عن المفردات . .

ولكن هذه الطاقة الحيوية ذاتها . . ما هى ؟

أهى تفاعل كيميائى ؟ أهى كهرباء ؟ أهى طـاقة كطاقة المـادة ؟ وما طاقة المـادة ؟ !

وأين تسكن ؟

أفى أعضاء الجسم وخلاياه ؟

أم فى « شيء » اسمه النفس ؟

وما مركز تجمعها ؟

أهو المخ ؟ أم جهاز « نفسى » يقابل المخ من الجسم ؟

وإذا كان الجسم هو القاعدة التى تنبعث منها الطاقة الحيوية . . فما هى الصلة بين « الجسم » و « النفس » ؟ ما الصلة بين « العضو » أو الغدة وبين « الشعور » الذى يصاحب نشاط العضو أو الغدة . كيف ينشأ هذا عن ذاك ؟ أكما ينشأ الشعاع من المـادة ؟

« الشعور » الجنسى مثلا . . « الحنين » إلى الجنس الآخر . . « الرغبة » فى القرب منه و « السرور » الذى يصاحب هذا القرب و « الألم » الناشىء من الحرمان منه . . و « الإحساس » بالجمال ، و « الابتهاج » به و « الأنس » إليه . . .

هذه المشاعر كلها أين هى من « هرمونات » الجنس ، من العصارة الـكيميائية التى تفرزها الغدد الجنسية فى خلايا الجسم ؟ وكيف ينشأ « الشعور » من « الـكيمياء » ؟ كيف تنشأ « النفس » من « الجسم » ؟

أم هما طاقتان متوازيتان ومتصلتان ، إحداهما تنبع من الجسم ، والأخرى تنبع من « النفس » ويسيران فى خط واحد ويتلازمان ؟

والرغبة فى الملك مثلا . . أين تنبع من كيان الجسم ؟ فى أى أعضائه وفى أى غدده تـكمن الرغبة فى تملك الأشياء والاستحواذ عليها ؟

أم هى فى « النفس » فقط ؟ وما « النفس » على وجه التحديد ؟

وكيف تتحول هذه الرغبة « النفسية » إلى حركة « جسدية » . . حركة الجمع والاستحواذ ؟

وحين يتعطل المخ عن العمل ، تتعطل الوظائف النفسية من وعى وإدراك ونوازع ورغبات . . فهل معنى ذلك أن المخ هو النفس ؟ أو أن النفس « تسكن » المخ ؟ أو أن النفس تعمل عن طريق المخ ؟ !

مئات من الأسئلة لا يصل فيها الإنسان إلى يقين !

وقد تناولت الفلسفة من قديم موضوع النفس والجسم ، وأبعدت فى التيه . . ولم تصل إلى يقين .

ثم انفصلت الأبحاث النفسية عن الفلسفة — التى كانت جزءاً منها — وأخذت تتجه اتجاهاً متزايداً إلى البحث التجريبى المعملى . . وكانت لها فى هذا الموضوع آراء متفاوتة . . ولم تصل كذلك إلى يقين .

قالت المدرسة التجريبية — المعملية — إن « النفس » انعكاس لنشاط الجسم ، وإن النشاط الحيوى والشعورى جسدى كله : كيميائى وكهربى . وإن ما نسميه المشاعر هو نتيجة التفاعلات الـكيميائية التى تحدث فى الغـدد والأعضاء ، ونتيجة النشاط الـكهربى الذى يحدث فى المخ . .

وقالت مدارس علم النفس النظرى إن هناك « غرائز » أو « دوافع فطرية » أو ما يكون من الأسماء . . وإنها نفسية فى أساسها ، وإن لها مظاهر جسمية هى التعبير المحسوس عن الطاقة النفسية الأصيلة .

وتتردد بين هذا الطرف وذاك آراء . .

وما نملك أن نصل فى هذا الأمر إلى يقين . .

هناك مظاهر تؤيد كلا من الرأيين ، وتنقض كلا من الرأيين !

النشاط الجنسى كله . . بما فيه من مشاعر وأحاسيس ورغبات و«تهويمات» وانطلاقات واندفاعات . . وما يصاحبه من ميول فنية وأحاسيس جمالية . . ينقطع انقطاعا تاماً إذا نزعت الهرمونات الجنسية من الجسم فى وقت نموها الطبيعى . . ! وينشأ الفتى أو الفتاة بلا دوافع ولا ميول ! كأنما هذه المشاعر كلها نابعة من الهرمونات !

والعقيدة فى الله ، وما تبعثه فى النفس من مشاعر ، وما تغرسه فيها من قيم ومبادئ ، وما تدفع إليه من سلوك معين فى الحياة . . توجد مع الجسم السليم والجسم غير السليم . الجسم المكتمل الأعضاء والجسم المبتور الأعضاء . الجسم النامى والجسم الضامر . وتظل موجودة طالما كان الجسم واعياً فقط ومدركا . . أى ما دام الإنسان لم يغب عن الوعى . فإذا غاب عن الوعى فإنه لا يدرك شيئاً مما يوجد حتى فى داخله ، ولا يدرك وجود العقيدة بالتالى ، لا لأنها لم تعد توجد ، ولكن لأنه هو لا يدرك . . فكأنما الجسم الواعى المدرك هو مجرد وعاء للعقيدة . . أما هى ، والمصدر الذى تنبعث منه فلا علاقة لها بالجسم إلا حلولها فيه !

وبين هذا الطرف وذاك ألوان مختلفة من المشاعر والأحاسيس ، بعضها ينبع من الجسم فيؤثر فى النفس ، وبعضها ينبع من النفس فيؤثر فى الجسم ، وبعضها يصدر عن الكيانين معاً فى ذات الوقت . .

وقد يستطيع التليفزيون الإلكترونى فى المستقبل أن يصور ما يدور

فى داخل النفس من نشاط فى صور مرئية تبين من أين تنبعث المشاعر وكيف تنبعث.. أما الآن .. فلا يقين!

ربما كان أقرب تشبيه — وهو مجرد تشبيه لا نستطيع أن نحكم بصحته — هو المادة والإشعاع .. وهى حقيقة من حقائق الكون الكبير : أن المادة تتحول إلى إشعاع ، والإشعاع يتحول إلى مادة . وأن الخلية الكونية — وهى الذرة فيما نعلم — مكونة من مادة وإشعاع . ولكنها تأخذ أحد الشكلين فقط فى الوقت الواحد : فإما أن تكون مادة وإما أن تتحول إلى إشعاع . أما الأجسام المشعة كالراديوم واليورانيوم والبلوتونيوم والاسترنشيوم وأمثالها، التى تجمع فى ظاهرها بين المادة والإشعاع ، فحقيقة الأمر فيها أن جزءاً من المادة يتحول باستمرار إلى إشعاع ويفقد مادته[1] ..

أما الإنسان — المزدوج الطبيعة الموحد الكيان — فهو الكائن الوحيد — فيما نعلم — الذى يشمل المادة والإشعاع معا ، متصلين ممتزجين ، عاملين معاً دون أن يُفْقَدَ أحدهما ليتحول إلى الآخر ..

يشمل هرمون الجنس الكيماوى — الذى تصحبه مشاعر الجنس النفسية من حنين وحب ورغبة وسرور وابتهاج وإحساس بالجمال .

ويشمل العقيدة الروحية — التى تصاحبها حركات جسدية من التعبد والسلوك ..

وذلك مظهر من مظاهر الازدواج فى طبيعته ، ناشىء من الحقيقة العظمى فى كيانه : أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله .

* * *

(١) إلى أن يخمد نشاطه فيصبح مادة لا إشعاع فيها ويتحول إلى عنصر آخر : كما يتحول الراديوم إلى رصاص عديم الإشعاع .

الدوافع كلها يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى حب الحياة !

ذلك هو العنوان الذى يجمعها . ولكنها بعد ذلك تتفرع وتتشعب فى أكثر من اتجاه . . بل فى كل اتجاه !

تتفرع وتتشعب فتصبح دافعاً لحفظ الذات ، ودافعاً لحفظ النوع ، ودافعاً للقتال عن الذات أو القتال عن النوع ، ودافعا للملك ، ودافعاً للتميز والبروز . . وكلها مظاهر لحب الحياة والتشبث بها والذود عنها والاستحواذ عليها والاستكثار منها والامتداد فيها . .

وسنتكلم بشىء من التفصيل عن كل واحد من هذه الدوافع بمفرده ، وعن مهمتها مجتمعة ، كما صنعنا فى الحديث عن الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية .

ولكننا هنا — فى مقدمة الفصل — نريد أن نقول كلمة عابرة عن الجهاز الآخر فى النفس ، المقابل لقوة الدفع فى كيان الإنسان . . وهو جهاز « الضبط » . . جهاز « الفرامل » المقابل « للمحرك » .

إن القوى الدافعة ليست هى وحدها التى تكوّن بناء النفس . . ولا يمكن أن تكون كذلك !

لقد تعلم الإنسان وهو يخترع الآلة المتحركة أنه لا بد لها من جهازين اثنين : أحدهما ينشئ الحركة الدافعة ، والآخر يوقف الاندفاع !

ثم لاحظ وجود هذه الحقيقة فى تركيب نفسه . . فى صميم بنيانه . . فأدرك وجود طاقتين مختلفتين فى كيانه : قوة دافعة تحركه فى شتى اتجاهاته ، وقوة ضابطة تضبط حركة الاندفاع !

وكلتا القوتين من صميم الفطرة . .

ليست إحداهما أصيلة والأخرى مفروضة عليها من الخارج كما يرى علم النفس التحليلى، الذى ينظر — بطبيعة منهجه — إلى الدوافع المحركة، ويكره الضوابط التى تحد الاندفاع!

ليس المجتمع، أو الدين والأخلاق والتقاليد، أو دكتاتورية الأب، هى التى تنشئ الضوابط فى نفس الإنسان! إنها — كما سنرى فى البحث — استعداد فطرى يولد مع الطفل. ولكنه يكون كامنا. كما تكون الرؤية كامنة فى جهاز الإبصار فى الأيام الأولى لم تنضج بعد.. ولكنها تنضج — فطريا — بعد قليل. وكما تكون الحركة كامنة فى عضلات الجسم والأطراف فى الأيام والشهور الأولى، لم تكتمل بعد (فالطفل مثلا لا يستطيع المشى إلا بعد تجاوز السنة الأولى)، ويحتاج إلى معونة خارجية لمساعدة هذه الطاقة الكامنة فى الظهور.. ولكنها فى النهاية تظهر. وكذلك التوجيه والتهذيب والرعاية تنضج القوة الضابطة فى كيان الطفل، وتساعدها — من الخارج — على استكمال نموها، ولكنها لا تنشئها من لاشىء. كما أن المساعدة ليست هى التى تنشئ حركة المشى من لاشىء!

ووجود الضوابط فى داخل النفس — مع الدوافع — لايزيد على أن يكون مظهرا آخر من مظاهر الازدواج فى الكيان البشرى، الملحوظ فى كل شىء يشتمل عليه ذلك الكيان!

الدوافع

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة
والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . . . »

[صدق الله العظيم]

حب الحياة والاستمتاع بها ، هو الدافع الأكبر في الكيان البشري . والمحرك الأكبر لما يصدر عنه من نشاط .

وهو يشمل — كما قلنا في مقدمة الفصل — دوافع جزئية أو فرعية ، تظل تتفرع بدورها وتتشعب حتى تصل إلى دقائق صغيرة عميقة . . وكل منها يتصل في النهاية بالأعصاب النفسية التي سبق الحديث عنها ، في تشابك معقد شديد التعقيد .

هذا الدافع الأكبر يشمل فرعين رئيسيين — فطريين — هما حفظ الذات وحفظ النوع .

ثم تتفرع عن كل منهما — أو عنهما معاً — فروع أخرى .

فالطعام والشراب والملبس والمسكن . . ورغبة الملك . . ورغبة البروز والتميز . . والقتال ذوداً عن النفس ، كلها أمور تتصل اتصالا وثيقاً بالرغبة في حفظ الذات ، والاستمتاع بحفظ الذات .

أما حفظ النوع فأداته الكبرى هي الطاقة الجنسية . . ولكن الفروع السابقة كلها تشتبك بهذه الطاقة ، فيصبح كل منها مزوداً بشعبتين : شعبة تتصل بالذات ، وشعبة تتصل بالجنس .

وهذان الدافعان معاً ، بكل ما يتفرع عنهما من فروع وما يشتبك بهما من اشتباكات ، واللذان هما فى الأصل مظهران لحب الحياة والاستمتاع بها . . يؤديان مهمة ضخمة فى حياة الإنسان .

لقد اقتضت حكمة الخالق أن يكون هذا المخلوق المندوب للخلافة عن الله فى الأرض ، مزوداً بطاقة هائلة تعينه على أداء دوره فى الأرض ودوره فى الحياة .

طاقة تدفعه للعمل . .

فالعمل فى الأرض . . والإنشاء والتعمير . . والبناء والتغيير . . هى المهمة الكبرى لهذا المخلوق . وهى معنى الخلافة عن الله فى الأرض . .

كان الإنسان قبضة من طين الأرض ، لا إرادة لها ولا تَوَجُّه ولا مهمة محدودة . . ثم نفخ الله فيها من روحه ، ليعطيها من مظاهر قدرته — سبحانه — ما تقدر على حمله قبضة الطين ، وما يكفى — فى تقدير العزيز العليم — لمهمة الخلافة المنوطة بهذا الكائن الفريد .

ومن نفخة الروح صار « الإنسان » خليفة . . وصارت فيه القدرة على الإنشاء والإبداع والتغيير والتطوير . . التى هى قبس من إرادة « الخلق » فى ذات الخالق المبدع المصور القدير . . بمقدار ما تطيق قبضة الطين .

وزود الله الإنسان بصفات ضرورية له فى الخلافة عن الله :

زوده « بالعلم » : « وعلم آدم الأسماء كلها . . . »(1) .

وزوده « بالإدراك » : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . . »(2)

---

(1) سورة البقرة [31] (2) سورة الملك [23]

وزوده « بالإرادة والاختيار » : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[1] . « وهديناه النجدين »[2]

وهكذا أصبح الإنسان — بهذه الطاقات — مهيأ لدور الخلافة فى الأرض ، كفئاً للقيام بأعبائها الجسام .

ولكن . . كان لا بد من وقود يشعل « الرغبة » فى هذا الكيان ليتحرك !

إنه لا يتحرك بذاته ولا يعمل بذاته — كما تعمل الذات الإلهية التى نفخت فيه من روحها ، بطريقة لا ندركها نحن البشر الفانين ، ولكننا نعلم فقط أن الله يقول للشيء كن فيكون . وأنه مريد وفعال لما يريد ، بلا واسطة ولا معين.

أما الإنسان ، فعلى الرغم من نفخة الله فيه من روحه ، فهو ليس إلها . . وما ينبغى له أن يكون . . وإنما هو قبضة من طين الأرض محدودة الكيان ، محدودة الطاقة ، محدودة الصفات . وكل ما منحه الله للإنسان من القدرة أو العلم أو الإرادة . . إلخ . فهو محدود بحدود قبضة الطين. . ومحدود بحدود دور الخلافة عن الله فى الأرض . . الخلافة بكيان « الإنسان » .

وفى هذا الكيان المكون من الطين والروح . . لابد من وقود مشتعل ليتحرك ويبدع وينشئ ، ويستغل الطاقات التى أودعتها النفخة العلوية فى كيانه ، للقيام بدور الخلافة عن الله .

هذا الوقود المشتعل هو الدوافع التى يشتمل عليها كيان الإنسان . .

ولا نسأل نحن : لماذا ؟ لماذا كانت هذه هى الفطرة البشرية ؟ لماذا لم يكن

(١) سورة الشمس [٧ — ١٠]   (٢) سورة البلد [١٠] .

الإنسان مفطورا على أن يعمل بلا وقود ولا اشتعال ولا دوافع ؟

لا نسأل لأنه ليس من شأننا أن نسأل . ولأن الله «لا يُسأل عما يفعل»[1] سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

وإنما نعرف فقط . . ونتتبع مظاهر الإرادة الإلهية فى هذا الكيان .

كان لا بد له من دوافع تدفعه إلى العمل . . وتعينه على تحمل المشاق .

لقد خُلق الإنسان فى كبد . .

كل خطوة من خطاه على الأرض يتمثل فيها التعب والجهد والمشقة . .

الحركة الجسدية ذاتها عليها أن تقاوم جاذبية الأرض ، فتبذل جهدا معينا فى كل حركة حتى رفع الأصبع ، حتى اندفاع الدم فى داخل العروق . .

وتحويل المادة الخامة المحيطة بالإنسان فى الأرض إلى مادة مشكّلة . . إلى بناء وزرع وصناعة . . تحتاج إلى الجهد المضنى والعمل المتعب الطويل . .

وتعمير وجه الأرض بالنسل يحمّل الوالدين جهدا مضنيا ، كل فى دائرة اختصاصه . الأم تحمل جنينها وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين . . وما تنتهى من واحد حتى تستعد لحمل جديد وجهد جديد . والأب يحمل تبعة إطعام هذا النسل بعد مرحلة الرضاع ، وتبعة كسوته وإسكانه وحمايته وتوفير الراحة له ، ثم إعداده وتربيته حتى يصبح قادرا على تسلم الدور ، والإنشاء من جديد . .

وهكذا كل حركة من حركات الخلافة التى نيطت بالإنسان تحتاج إلى بذل الجهد وتحمل المشقة . .

---

(١) سورة الأنبياء [٢٣] .

فما الذى «يدفع» الإنسان إلى هذا الجهد كله ، ويعينه على تحمل المشاق ؟

لا بد له من دافع ! لا بد له من وقود مشتعل ينفث فيه الحركة والاندفاع ..!

لا بد من دفعة تكافئ الجهد المبذول . .

ولكن لا . . فلو تكافأت قوة الدفع مع المشقة المبذولة لوقف الإنسان عند نقطة الصفر لا يتحرك ولا يعمل ولا يسير !

كل جسم تتولاه قوتان متساويتان متضادتان فى الاتجاه فهو ساكن ثابت لا يريم !

لا بد أن تغلب إحدى القوتين لتدفع الجسم إلى الحركة فى الطريق الذى تريد .

لا بد أن تزيد القوة الدافعة عن المقاومة ليحدث التحرك المطلوب .

ومن هنا كان لا بد أن تكون الدوافع قوية قوية . . ليتحرك الإنسان ويعمل ويسير فى الطريق . .

كان لا بد له من وقود مشتعل شديد الاشتعال ، ينفث فيه الحرارة المتوقدة التى تستحث خطاه على الأرض . ومن ثم كانت « الشهوات » . . .

* * *

كل دافع من الدوافع الفطرية يحمل معه قوته الدافعة . . ولكنه يحملها بطريقة فذة فيها كل «الضمانات» التى تضمن ألا يتعطل الدافع أو تغلبه العقبات !

لا يكفى أن يكون الدافع « من الخلف » . . بل يصحبه الجذب من الأمام ! حتى إذا ضعفت إحدى القوتين لسبب من الأسباب كانت الأخرى كفيلة بأداء الدور المطلوب !

جذب من الأمام هو اللذة .. ودفع من الخلف هو الألم . وهما معاً مرتبطان بكل نزعة فطرية فى الإنسان .

اللذة هى الحداء الذى يشد الإنسان إلى الأمام . . فيتحرك لتحقيق هذه اللذة ، التى ركب فى طبيعته أن يستجيب لها ويسعى إليها ، كما ركب فى قطعة الحديد أن تنجذب إلى المغنطيس .

والألم هو المهماز الذى يدفع الإنسان من الخلف . . فيتحرك ليبعد عنه . فقد ركب فى طبيعته أن ينفر منه ويسعى بعيداً عنه ، كما ركب فى القطبين المتشابهين أن يحدث بينهما النفور والابتعاد .

وكل نزعة فطرية مزودة بهذين العاملين المساعدين . . لضمان تحركها دائماً إلى الأمام .

الطعام والشراب ضرورة لحفظ الذات . . فكان لابد من ربطهما بالألم واللذة من الخلف والأمام .

والجوع والعطش هما المهماز الذى يدفع الإنسان - بالألم — فيسعى إلى الطعام والشراب لإسكات هذا الألم الذى لايهدأ ولا يكف حتى يستجاب له .

ولكن الألم لا يكفى !

فهناك لذة الشبع والرى . . وهما معاً : اللذة من الأمام والألم من الخلف يدفعان إلى طلب الطعام والشراب محافظة على كيان الذات !

والملبس ضرورة كذلك . .

والألم الذى تحدثه عوارض الجو من البرد الشديد والحر .. الخ . دافع من الخلف للتزود باللباس .

واللذة التى يحدثها الدفء وتحدثها الوقاية من عوارض الجو جاذب يجذب من الأمام .

والجنس أداة حفظ النوع . .

ولابد كذلك من اللذة والألم لضمان القيام بالدور المطلوب ، حتى لا تقعد المتاعب والمشاكل المترتبة على النسل عن أداء هذا الدور من جانب الذكر أو الأنثى سواء .

ولأن المتاعب كثيرة جداً ، والمشاكل شديدة التعقيد . . كان لابد أن يكون الجذب عنيفاً جداً والألم لا يطاق الاصطبار عليه . . حتى يوجد الضمان الكافى للتنفيذ !

ولضمان حفظ الذات وحفظ النوع كان لابد من الاستحواذ على أشياء . . أشياء من الطعام والشراب والملبس وغيرها من الحاجات . . خوفاً من نفادها وتعرض الإنسان للهلاك .

وكان لابد كذلك من الحداء من الأمام والألم من الخلف . . الحداء باللذة المترتبة على الملك . . لذة رؤية الأشياء ولمسها وشمها وذوقها ، والاستحواذ المادى عليها . . والألم من عدم التملك . . الألم من « الحرمان » .

ولضمان حفظ الذات وحفظ النوع كان لابد من الذود عنهما ضد الأخطار . . أى القتال . . وكان لابد للقتال كذلك من الرباطين من الأمام والخلف . . فمن الخلف كان الألم من التعدى على كيان الإنسان — فرداً أو جماعة — التعدى على الذات أو مايتصل بها من ممتلكات . ومن الأمام كانت لذة الانتصار على الآخرين . .

ولضمان حفظ الذات وحفظ النوع كذلك كان لابد من دافع التميز

والبروز ، كعامل مساعد ، يغرى بأن يندفع كل إنسان إلى الأمام فى أداء هذه المهمة وتلك ، ولا ينكص على عقبيه . . وكان لا بد من رباطين لدافع البروز . . الألم الذى يحسه الإنسان من تخلفه وبروز غيره عليه ، واللذة التى يحسها فى أن يسبق غيره ويفوز . .

تلك هى الدوافع الفطرية . . وتلك مهمتها فى كيان الإنسان ودوره فى الحياة .

* * *

لاشىء منها يوجد جزافاً فى كيان الإنسان . .

ولا شىء يعمل بمفرده . .

إنما تعمل كلها جميعاً لتصب فى المرجل الرئيسى الأكبر . . فى الدافع الأول فى الكيان البشرى ، وهو حب الحياة والاستمتاع بالحياة . . وهذا بدوره هو الذى يدفع الإنسان للعمل والإنتاج والإنشاء والإبداع والتعمير . . الذى هو مهمة الخلافة عن الله . .

* * *

وكل تفسير للنفس الإنسانية بدافع واحد من دوافع الحياة ، هو تفسير ناقص قصير النظر محدود الرؤية عاجز عن التفسير !

التفسير الجنسى للسلوك البشرى الذى قال به فرويد . .

التفسير المادى الذى يقول إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، والذى قال به ماركس وإنجلز ، وغيرهم من دعاة التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ .

والتفسير السيكلوجى الجزئى الذى يقول إن رغبة البروز هى الدافع

الأصيل للإنسان ، سواء فى صورة رغبة فى التفوق كما أدلى بها « أدلر » أو شعور بالنقص ومحاولة للتعويض كما أدلى بها « يونج » تلميذا فرويد . .

كل هذه التفسيرات ترتكب خطأ رئيسياً فاضحاً . . هو أخذ جانب واحد من الإنسان ، والقول بأن هذا الجانب هو « الإنسان » . .

وما من دافع هناك لهذا الاعتساف فى التفسير . . حين يضع الباحث الكيان البشرى كله على مائدة بحثه ، ويراه على حقيقته الشاملة المتكاملة ، التى تشمل هذه الجزئيات كلها وتضيف إليها التشابك فيما بينها والتداخل والارتباط .

وكذلك كل تفسير يأخذ فى حسابه الدوافع وحدها ، ولا يعمل حساب القوة الضابطة فى كيان الإنسان !

الضوابط

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة »

[صدق الله العظيم]

هل كان يصلح الإنسان — بالدوافع التى أشرنا إليها من قبل — لأن يكون خليفة الله ؟

أو ليست هى ذاتها دوافع الحيوان ؟ !

الطعام والشراب والجنس والقتال .. أوليست كلها من دوافع الحيوان ؟

ويزيد عليها أنها دوافع « مفتوحة » ! ففى الحيوان توجد هذه الدوافع ،

ولكن لها صمامها الذى يغلقها إغلاقاً غريزياً عند حد الامتلاء . . أو الحد المناسب الذى تدركه غريزة الحيوان . أما الإنسان فلم يكن فى فطرته صمام الغريزة . . ويستطيع — لو أراد — أن يمضى مع هذه الدوافع إلى أكثر من حد الامتلاء ، أو أكثر من الحد « المناسب » الذى تدركه — بطريقة غريزية — فطرة الحيوان . .

فهل يصلح بذلك أن يكون خليفة لله فى الأرض ، مكرما ، مفضلا ، تناط به المسئوليات الجسام ؟

بل هل يصلح أصلا أن يكون كائنا حيا يكتب له الاستمرار فى البقاء ، ولا تدمره الدوافع العنيفة التى تدفعه بلا ضابط ولا انتهاء ؟

كلا ! ما هكذا تكون صنعة الخالق الحكيم ! الخالق الذى خلق الإنسان فأحسن صورته : «خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم »(١)

لابد من صمام . . ولكنه صمام يناسب طبيعة الإنسان . . صمام يتمثل فيه ما فى طبيعة الإنسان من وعى وعلم وإرادة وحرية واختيار . .

ومن ثم كانت « الضوابط » فى كيان الإنسان .

* * *

الضوابط قوة فطرية تولد مع الإنسان . تولد كامنة فى كيانه . ولكنها لا تظهر فى مبدإ الأمر كما تظهر الدوافع . . ثم إنها فى حاجة إلى مساعدة خارجية ليتم لها النماء والنضج ، وإلا بقيت ضامرة لا تؤدى وظيفتها كاملة فى حياة الإنسان .

---

(١) سورة التغابن [٣]

وقد أغرى ذلك بعض « العلماء » فظنوا أنها ليست جزءا فطريا من كيان الإنسان . ظنوا أنها دخيلة عليه ، تصنعها القوى الخارجية التى تعوّد الطفل على عملية الضبط ، بالضغط أحيانا أو بالتحبيب والترغيب . ثم اختلف هذا البعض فيما بينهم — مع اتفاقهم على أنها تنشأ من العوامل الخارجية ! — فحبذ بعضهم تنميتها وأقر بضرورة وجودها . ونفر منهـا بعضهم وود أن يحطمها !

وكان فرويد بطبيعة الحال من الفريق الآخر !

قال فى كتاب « Three Contributions to the Sexual Theory » ص ٨٢ تحت عنوان « التسامى » : « أما ثالث أنواع الشـذوذ فإنه يحدث نتيجة عملية التسامى (!) حيث تصرّف الطاقة الشهوية الصادرة من منابع جنسية فردية ، فى مجالات أخرى (أى غير المجال الجنسى) وينتفع بها فى هذه المجالات . وهكذا يحصل الإنسان على قوة نفسية كبيرة ، من استعداد نفسى هو فى ذاته خطير » ! !

وفى ص ٨٥ من نفس الـكتاب يتحدث عن « التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية » ! !

وفى كتاب « The ego & the id » ص ٨٠ يقول : « إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية » ! !

ولـكن هؤلاء وهؤلاء معا مخطئون . . فليست الضوابط قوة أجنبية عن كيان الإنسان . وهناك حقيقة بديهية ينبغى أن يدركها « العلماء » جميعا .. لأنهـا بديهية ! هى أن الضغط الخارجى لا يمكن أبدا أن ينشئ شيئا فى كيان الإنسان ، مالم يـكن هناك استعداد فطرى للاستجابة إليه !

الجوع مثلا جزء من كيان الإنسان . . ولا يمكن بأى نوع من أنواع الضغط الخارجى إنشاء إنسان لا يجوع ! وقد يتعود الإنسان — بالضغط الخارجى أو الذاتى — أن يمتنع عن الطعام فترة من الوقت [لأن هذا موجود فى فطرته !] ولكن لا يمكن أن يمتنع البتة عن الطعام مهما اشتد الضغط عليه [لأن هذا ليس من فطرته !]

والدافع الجنسى جزء من كيان الإنسان . . ولا يمكن بأى نوع من أنواع الضغط الخارجى إيجاد إنسان سوىّ لا يحس بهذا الدافع [نتكلم عن الإحساس لا عن التنفيذ . فقد يوجد الإحساس ويمتنع الإنسان عن التنفيذ] وهذا الإحساس يهذّب فيتسامى ويرتفع [لأن ذلك فى فطرة الإنسان] ولكنه لا يزول بالتهذيب ولا بالضغط [لأن إزالته ليست من الفطرة السوية !]

وهكذا لا يمكن أن ينشئ الضغط الخارجى شيئا غير موجود بالفعل ، ولا يمكن أن يزيل إزالة تامة شيئا موجودا بالفعل . وإنما يفلح الضغط فقط حيث يوجد الاستعداد للاستجابة إليه ، وبمقدار هذا الاستعداد . ويفشل حيث لا يوجد استعداد للاستجابة مهما يكن شديدا وقاسيا ومستديما . .

« فالضوابط » لا ينشئها الضغط الخارجى ، ولا التوجيه والتهذيب ، ولا يمكن أن تنشئها . وإنما فقط تنميها . .

والتنمية قضية أخرى غير قضية الإنشاء !

الطفل يولد عاجزا عن الحركة ، ويحتاج إلى معونة خارجية ليتحرك ، وخاصة حركة المشى . وإذا فقد هذه المعونة فربما ينشأ كسيحا لا يمشى مدى العمر على رجليه .. فهل معنى هذا أن المعونة الخارجية هى التى تنشئ المشى ؟ ! كلا وإنما معناه أنها قدرة كامنة ، تحتاج إلى معونة لتظهر وتشتد .

ويولد الطفل عاجزا عن الكلام . ويحتاج إلى مناغاة وملاغاة طويلة دؤوبة صابرة لكى يتعلم النطق ، ويتعلم دلالة اللغة [وهى إحدى معجزات الخلق التى أشار إليها القرآن فى خلقة آدم : « وعلم آدم الأسماء كلها »] ثم يأخذ فى استخدام اللغة بما تعلمه من دلالتها . وإذا لم يجد هذه المعونة فقد لا ينطق أبدا [كما لا ينطق الصم الذين لم يسمعوا اللغة فلم يدركوها وبالتالى لم يستخدموها] أو قد يقتصر نطقه على عواء أبكم كعواء الحيوان . فهل معنى ذلك أن المعونة الخارجية هى التى تنشئ النطق ؟ ! كلا ! وإنما معناه أن النطق قدرة كامنة ، تحتاج إلى معونة لتظهر وتشتد .

فإذا كان هذا شأن القدرات الجسدية البحتة [كالمشى] أو الحسية المعنوية [كاللغة والنطق] فهو كذلك شأن القوى الضابطة فى كيان الإنسان . لا تنشأ من الضغط . ولا تنشأ من التوجيه والتهذيب . وإنما تنشأ فطرية فى كيان الإنسان . والضغط أو التوجيه والتهذيب هى العوامل المساعدة لنمائها وتطورها .

* * *

يقول جوليان هكسلى — العالم الداروينى الذى أشرنا إليه من قبل — فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » :

« ولذلك فالإنسان أذكى بكثير من الحيوانات ، لأن تركيب مخه أكثر مرونة ...

«ولهذه الزيادة فى المرونة نتائج أخرى سيكلوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية . والإنسان فريد فى بعضها . ولقد أدت هذه المرونة مثلا إلى كون الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى لا بد أن يتعرض للصراع النفسى ...

« وفى الحقيقة أن منع النزاع بين طرق العمل المتعارضة هو ظاهرة عامة جداً ، وذات منفعة بيولوجية ، وهى ليست إلا خاصية العقل البشرى الذى مكن الإنسان من التخلص من هذا النزاع ..

« وعندما نصل إلى المستوى الإنسانى نجد تعقيدات جديدة [أى أكثر مما يوجد فى الحيوان] لأن من خصائص الإنسان كما رأينا التغلب على شدة الغريزة ، وتهيئة أجهزة الاتصال التى بها يمكن أن يتصل أى نشاط للعقل سواء فى دائرة المعرفة أو الحس أو الإرادة بأى نشاط آخر ، وبهذا حصل الإنسان على حياة عقلية موحدة . وإن كان الباب قد فتح بهذا أيضاً لعوامل الانشقاق التى قد تقضى على الوحدة ، بل وتمنع من التمتع بالحياة ، لأن الجهاز العصبى كما يقول شرنجتون يشبه القمع ، مدخله أوسع من مخرجه . ويشبه مدخل القمع الأعصاب المستقبلة التى توصل البواعث من أعضاء الحس إلى الجهاز العصبى المركزى ، ومخرج القمع يوصل البواعث بواسطة الأعصاب الناقلة إلى العضلات . . . . ومع ذلك ، فطبقا للآراء الحديثة ، توجد أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهى التى يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع . والقمع أهم من وجهة نظرنا ، وهو عبارة عن حبس أحد المؤثرين المتنازعين فى ظلمات العقل الباطن [هذا الذى سماه فرويد بالكبت] . ومع ذلك فهذه الاستعارة غير تامة ، لأن السجين فى ظلمات العقل يمكنه أن يستمر مؤثراً فى الشخص فى ضوء الوعى . وعلاوة على الاضطراب العصبى العام يضطر الإنسان إلى بعض الأفكار والأعمال . ولذلك فالقمع [الكبت فى تسمية فرويد] ضار . إلا أنه قد يعتبر ضرورة بيولوجية لفض النزاع الذى لابد من وجوده فى السنين الأولى من حياة الإنسان قبل سداد الرأى المبنى على العقل . ومن الخير أن يكون

الإنسان قادراً على القيام بعمل ما دون قيد ، حتى ولو أدى ذلك إلى اضطراب عصبى ، عن أن يكون عاجزاً عن الحركة مثل الحمار بين حزمتين من البرسيم المجفف ، فإن حيرته بينهما متكافئة .

« وفى القمع لاينفى الباعث المنهزم إلى اللاشعور فحسب ، بل إن عملية النفى ذاتها لاشعورية . وإن الأجهزة التى قامت بذلك لابد أن تكون قد تطورت لتمنع الإمكانيات الظاهرة للنزاع — وبخاصة فى السنين الأولى من الحياة — ذلك النزاع الذى نشأ كنتيجة ثانوية لعقل الإنسان .

« وفى الكبت [نؤثر نحن أن نسمى هذه العملية بعملية الضبط] ينفى الباعث عن وعى ، ولذلك فليس من المحتمل ظهور اضطراب عصبى . وأخيراً عند سداد الرأى لا ينفى أحد الباعثين المتعارضين إلى اللاشعور ، ولكنهما يوزنان على ضوء العقل والخبرة ثم يؤدَّى العمل عن وعى »[1] .

* * *

أخذنا هذه المقتطفات المطولة شيئاً ما ، لأنها تفيدنا — من رجل ملحد لايؤمن بالله ولا بالقيم الخلقية[2] — فى إثبات هذه المجموعة من الحقائق :

أولا : إن أجهزة « الضبط » سواء منها اللاشعورى أوالشعورى هى أجهزة بيولوجية تنشأ عنها أجهزة سيكلوچية . ومعنى كونها بيولوچية أنها من صميم الفطرة . فالكيان البيولوچى للإنسان فطرى يولد معه ، ويُوَرَّثُ عن طريق البويضة الملقحة . . ولا يكتسب من عمل الظروف الخارجية !

(١) ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر ص٢٦ — ص٣٠ .

(٢) فى الفصل الثانى من الكتاب يدعو إلى « تحسين النسل » بانتخاب ذكور ممتازة من الإنسان لتلقيح الإناث . . دون عائق من التنظيمات الاجتماعية والأخلاقية !

ثانياً : إن من خصائص الإنسان التغلب على شدة الغريزة . فهذه خاصية له . فطرية . من صميم كيانه . ليست مفروضة عليه من خارج نفسه .

ثالثاً : إن عملية الضبط تعمل لاشعوريا فى سنوات الطفولة الأولى ، ثم تعمل شعورياً بعد ذلك . أى أنها تتبع نفس خط النمو الذى تتبعه جميع العمليات النفسية الأخرى وجميع القدرات .

وهذا يكفى فيما نحن بصدده من إثبات هذه الحقيقة الكبيرة ، وهى أن الضوابط فطرية فى كيان الإنسان !

* * *

فطرية ولكنها فى حاجة إلى معونة خارجية . .

وتلك مهمة التوجيه والتهذيب .. وهى عملية ضرورية بالنسبة لحياة الإنسان .

ولكنا سنفترض أن طفلا من الأطفال لم يُرَبَّ أبداً . وترك هكذا « على فطرته » . . فهل ينشأ بلا ضوابط ؟ !

كلا ! . . إن الطفل يتعلم ضبط إفرازاته بمفرده بعد فترة من الوقت ولولم يعوده على ذلك أحد . وإنما تتأخر هذه العملية فقط حين لا يوجد التوجيه .

وهكذا لو تركناه بلا توجيه فسيحدث أن تتأخر جميع الضوابط فى الظهور . وأن تنمو نمواً ناقصاً ومضطرباً غير متناسق . وقد يحدث أن يبقى الكثير منها ضامراً . ولكن لايحدث أبداً أن تكون كلها غير موجودة !

يذكر فرويد أن الملل طبيعة إنسانية . وأن هذا الملل يحول دون استمرار الإنسان فى عمل واحد أو اتجاه واحد إلى مالا نهاية ، ويحوّله إلى عمل جديد أو اتجاه جديد . وأن هذا الملل ينمو تدريجياً . . فالطفل الصغير يكاد لا يمل

من تكرار العمل الواحد أو اللفظ الواحد ، ولكنه كلما كبر أسرع إليه الملل وطلب التغيير . .

وتلك ملاحظة صادقة ، كان ينبغي أن يصل معها فرويد إلى آخر دلالتها ! فالملل إذن فرملة لا إرادية تمنع الشطط فى أى اتجاه ! وهى تنمو تدريجياً مع نمو الطفل . . والتوجيه والتهذيب يعملان على أن يكون منع الشطط عملية واعية ، مبنية على أسس ومبادئ ، ولكن حتى فى حالة عدم وجود التوجيه والتهذيب فهناك « أجهزة » كما قال چوليان هكسلى تقوم بعملية الضبط . .

أجهزة من الفطرة . . .

* * *

فى كيان الإنسان إذن قوة ضابطة تمنع الشطط فى أى دافع من الدوافع الفطرية . وهذه القوة تنحرف أحيانا وتكف عن العمل أحياناً . . ولا نتحدث عن ذلك هنا . إنما نتحدث حتى الآن عن الفطرة السوية .

وهى تؤدى مهمة رئيسية فى حياة الإنسان .

إنها الصمام الذى لابد منه فى كيان الكائن الحى . . الصمام الذى يمنع الدمار .

إنها المقابل الواعى لعمل الغريزة فى الحيوان . . هى التى تحدد حد الاكتفاء .

ثم هى — فى حياة الإنسان — تقوم بمهمة أخرى لا تقل فى حيويتها عن تحديد حد الاكتفاء الذى يمنع الدمار .

إنها تقوم بتوجيه الطاقة الحيوية إلى مستويات أعلى وأرفع من مجرد الاستجابة المباشرة لدفعة « الغريزة » .

إن قوة الإنسان قوة فائضة عن « الضرورة » . وليست كقوة الحيوان على قدر الضرورة . وهذا الفائض هو الذى تمنع القوة الضابطة لستهلاكه فى محيط الضرورة ، وترفعه إلى المستوى الأعلى . تحوّله إلى عمل .. إلى إنتاج .. إلى إنشاء وتعمير .. وتغيير وتطوير .. أى إلى القيام بمهمة الخلافة عن الله فى الأرض .

هذا الفائض هو الذى ينشئ به الإنسان الحضارات ، ويكافح به فى سبيل العقائد والمثل ، وينتج به الإنتاج المادى ، والمخترعات والمكتشفات ، والفنون والعلوم .. هو مجد الإنسان فى الأرض ، الذى هيأه الله للإنسان . وهو ينشأ من الدوافع والضوابط معاً فى حياة الإنسان !

الدوافع والضوابط معاً فى حياة الإنسان

كما يعمل الإنسان بكيانه المتكامل فى كل نشاط يصدر عنه ، فكذلك تعمل الدوافع والضوابط معاً فى ذات الوقت ..

ولقد يجنح الإنسان بالدوافع تارة — مفردة أو مجتمعة — أو يجنح بالضوابط تارة — مفردة أو مجتمعة — ولكنه فى كل لحظة يعمل بطاقتيه جميعاً — ما دام فى حالته السوية لم يطرأ على تركيبه خلل أو انحراف .

وهذا الكيان المتجمع من الدوافع والضوابط [الإرادية] هو الذى يجعل حياة الإنسان تفترق عن حياة الحيوان ، الذى لا يعرف الضوابط الإرادية ، ولا تشمل حياته إلا الدوافع وحدها ، وضوابط الغريزة اللاإرادية التى لا تبقى فائضاً من النشاط تدخره لشىء من الإنتاج والإبداع . كما تفترق حياته عن حياة الملَك ، الذى لا يعرف الدوافع البشرية أو الحيوانية ، وليس

فى كيانه وقود مشتعل من الرغبات يؤزه ويدفعه إلى أى عمل أو إنتاج ، سوى العبادة المفطورة نفوسهم عليها ، بمعناها الملائكى : « يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرون »[1].

وهذا الكيان المتجمع من الدوافع والضوابط معاً هو الذى يسمح بوجود « غاية » للحياة الإنسانية . . غاية واعية مدركة تشمل كل دافع على حدة ، والدوافع كلها مجتمعة [بل الغاية الواعية المدركة هى ذاتها لون من الضوابط يضع حداً للاندفاع وراء الدوافع أو الشهوات] وهو الذى يجعل « حب الحياة » عند الإنسان يتبدى فى ألوان وأشكال تختلف عن حب الكائنات الأخرى للحياة .

* * *

حفظ الذات هدف لكل كائن حى . . يؤديه بدافع الغريزة . . ولكن الإنسان يضيف إليه الوعى والإدراك ، فيصبح شيئاً آخر غير حفظ الحيوان لذاته . يختلف عنه فى الطريقة وفى الهدف سواء .

فالحيوان يأكل ويشرب ، ويتقى البرد والحر ، ويتخذ المأوى ، ويقاتل ويحب الغلبة والبروز

والإنسان كذلك يأكل ويشرب ، ويتقى البرد والحر ، ويتخذ المأوى، ويقاتل ويحب الغلبة والبروز . .

فأى فرق هائل بين هذا وذاك . . ؟ !

لذعة الجوع تدفع الحيوان للطعام . فيتجه تواً إليه . ويأكل أنواعاً معينة من الطعام لا يغيرها [وهو لم يخترها لنفسه اختياراً حراً] ويأكل حتى

(١) سورة الأنبياء [٢٠] .

تقرر له الغريزة حد الاكتفاء فيكف عن الطعام . ويأكل بطريقة واحدة لا يغيرها ، وهي طريقة مكرورة في كل فرد مع فروق فردية بسيطة لا تبلغ أن تكون اختلافاً في « السلوك » .

ولذعة الجوع تدفع الإنسان إلى الطعام . . وربما مرت على البشرية عصور كانت فيها أقرب إلى الحيوان في السلوك ، ولكنها لم تكن قط كالحيوان !

وأول اختلاف — منذ البدء — كان في سعة المجال الذي يختار منه الإنسان طعامه : « وكلا منها رغداً حيث شئتما »(١). وقابليته لهذا التنوع في الطعام . وذلك تناسق عجيب في الفطرة . فكل شيء في حياة الإنسان متعدد متنوع . حتى الماديات . حتى الضرورات . . وليست المشاعر وحدها ولا الأفكار !

والاختلاف الثاني أنه هو الذي يحدد لنفسه حد الاكتفاء . . فلا يوجد ضابط غريزي يجعله يتوقف . وفي مكانه يوجد ضابط مدرك واع مريد متصرف . يستطيع أن يحدد مكان التوقف ابتداء من نقطة الصفر [لفترة من الوقت على الأقل] إلى ما بعد حد الاكتفاء المعقول [وهو الإسراف الذي لا يقدر عليه إلا الإنسان !] .

والاختلاف الثالث أنه لم يكتف بتناول الطعام على حالته الخامة التي وجده عليها ، بل أخذ يتدخل بالصنعة في إعداده . فما إن اكتشف النار حتى راح ينضج عليها الطعام ، ثم فتحت له النار أبواباً لا نهاية لها من فنون الطعام ، من بسيطة ومركبة ، جعلت في استطاعته أن يستحدث طعوماً جديدة للأشياء

---

(١) سورة البقرة [٣٥] .

وطعوماً متنوعة . وكان هذا استجابة لما فى فطرته من التجدد والتنوع ، وهو طابع علم للإنسان يشمل كل شىء فى حياته ولا يقتصر على الطعام .

والاختلاف الرابع أنه لم يتخذ سلوكا واحداً نحوه . فليس يختلف فرد عن فرد فى سلوكه نحو الطعام فحسب ، بل يختلف الفرد الواحد ما بين مرة ومرة ، وبين حالة وحالة . . فهو تارة معجل يأكل طعامه نهشاً وتارة مستأن يأكل على مهل وروية . وتارة يتأنق فيه تأنقا ، فيأكل بأدوات أنيقة وصحاف مزخرفة ، وعلى مائدة منسقة ، بعد عناية زائدة بالغسل والإعداد وطريقة التقديم . . الخ حتى يصبح ذلك « فناً » تؤلف فيه المؤلفات ويتعلمه الناس . .

والاختلاف الخامس أنه جعل له هدفاً . . ثم لم يجعله هدفاً واحداً ، وإنما اختلف الناس فى هدفهم من الطعام . فبعضهم يأكل للضرورة . لحفظ الحياة . يأكل ليعيش . وبعضهم يجعل الطعام هدفاً فى ذاته فيعيش ليأكل . وبعضهم يأكل لسد الجوعة وبعضهم للتلذذ من كل أصناف الطعام . . وقد تختلط هذه الأهداف . . وقد يتنقل الفرد الواحد من حالة إلى حالة . . فقد يأكل لحفظ الحياة فقط ولكنه يتلذذ بما يأكل . وقد يجعل الطعام هدفاً فى ذاته ، ولكنه لنهمه وبطنته يلتهم الأكل التهاماً فتفوته لذة التذوق والتفنن فى الإعداد أو التقديم أو التناول . . . ثم يختلف الهدف مرة أخرى : هل هو اللذة الفردية الأنانية فيأكل وحده ، ويبخل بطعامه على الناس ، ويذودهم عنه . أم لذة جماعية . فيأكل مع الآخرين ، ويجود بالطعام على الناس ويدعوهم إليه ، ويجعل لهم حقاً فيه . . الخ ثم يختلف مرة أخرى : هل يتحرى فيه « النظافة » الحسية والمعنوية . نظافة المأخذ ، فلا يأكل إلا النظيف والطيب والحلال ، أم لا يبالى بالنظافة فيأكل القذر من الطعام حساً ومعنى ،

فيبذل فيه كرامته . أو يغتصب و يسرق وينهب ويأكل الحرام ؟

والاختلاف السادس أنه لا يحس بالقهر الكامل إزاءه . حقيقة إنه لا بد أن يستجيب فى النهاية . فقد شاءت الحكمة العليا — التى جعلت الطعام ضرورة لحفظ الكيان — أن تجعل دافعيه من اللذة والألم ، من الشدة والإلحاح بحيث يستحيل على الإنسان ألا يستجيب . ولكن هناك « مسافة » زمنية وشعورية وسلوكية بين الدفعة والاستجابة . مسافة تطول أو تقصر . ولكنها تمثل الاختيار الحر الذى هو سمة الإنسان . وصحيح أن الحرية فى الاختيار هنا محدودة. فالإنسان لم توهب له الحرية المطلقة . التى لا تتمثل إلا فى ذات الخالق وحده . وإنما وُهِبَ له قدر من الحرية ، بمقدار ما تطيق قبضة الطين من نفخة الروح. ولكن هذا القدر قد ميزه لتوه عن الحيوان. وجعله حراً نسبياً فى اختيار سلوكه واختيار موقفه من الدافع الملح الذى لا بد من إطاعته فى نهاية المطاف . ومن ثم يملك الإنسان أن يستجيب فى الحال — بإرادته — أو يستجيب بعد فترة من الوقت . وأن ينظم مواعيد طعامه بحريته . وأن يمتنع عن أنواع معينة ويقبل على أخرى . وأن يصوم فترة من الوقت إذا أراد . .

كل تلك الفروق بين استجابة الإنسان لدافع الطعام واستجابة الحيوان ، قد ميّزته عنه منذ اللحظة الأولى ، وجعلت تاريخه — منذ اللحظة الأولى كذلك — أوسع من البحث عن الطعام ! !

إن التفسير المادى للتاريخ الذى يزعم أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام تفسير جاهل أو مغالط . . يرى الحقائق ثم يغضى عنها لشهوة مذهبية ، تريد أن تلوى الحقائق ليـاً لتؤدى إلى هدف معين موضوع قبل المقدمات !

فعلى فرض أن البحث عن الطعام هو تاريخ البشرية [وهذه مغالطة مكشوفة لأنها — بصرف النظر عن « القيم » كلها — تغفل دافع الجنس ومدى تدخله فى تاريخ البشرية، على الأقل بإنتاج نسل يتكون منه «المجتمع» ، وما يقتضيه هذا المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وروحية .. إلخ] فقد دخلت فى هذا البحث عناصر أخرى لم تجعله بحثاً خالصاً عن الطعام . . إنما جعلته — إلى جانب ذلك — بحثا عن القيم ! هل يتعاون الناس فى البحث عن الطعام أم يتقاتلون ويتنازعون ؟ هل يأخذ كل إنسان كفايته وحدها أم يتاح له أن يخزن ما يزيد على حاجته ؟ هل يملك الطعام ملكية فردية أم ملكية جماعية ؟ وهل يوزع بالتساوى أم بحسب الحاجة ؟ وما مقياس الحاجة ؟

كل هذه قيم .. اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية .. نشأت فى أثناء هذا البحث عن الطعام — على زعم أنه البحث الأوحد الذى قام به الإنسان [وليس ذلك حقيقة !] — ومن ثم لم يعد البحث عن الطعام هو وحده الذى يكتب تاريخ البشرية [حتى لو كان هو الدافع الأوحد !] وإنما صارت هذه القيم كلها مجتمعة هى التى تكتب تاريخ البشرية . وكان هذا نتيجة طبيعية — وحتمية — لتعدد جوانب الإنسان وتداخل مساربه وطاقاته ومكوّناته ،وعدم انفراد أى جانب منها أو طاقة بالعمل فى لحظة من اللحظات .. ومن ثم يصبح « الإنسان » بكامله هو الذى يكتب تاريخ الإنسان !

وتلك بديهية لم يكن ينبغى أن « يتعب » فى فهمها هواة التفسير المادى للتاريخ !

* * *

والحيوان يتقى البرد والحر بطريقته الغريزية التى وهبها له الله . فبعضه — بلا وعى ولا إرادة — ينتف شعره إذا جاء الحر ، وينمو له فرو دفء إذا جاء البرد . وبعضه يبيت بياتاً شتوياً لا يتحرك فيه البتة لـكى لا يستهلك كيانه فى البرد . وبعضه يأوى إلى الـكهوف . وبعضه ينتقل من ماء إلى ماء مختلف فى الحرارة . . الخ .

كل نوع بطريقته . . لا إرادة له فيها ولا اختيار ولا تنوع بين الأفراد .

والإنسان يتقى البرد والحر بوسائل شتى واسعة النطاق . . تبدأ باتخاذ الملابس وتنتهى — اليوم — بتـكييف الهواء فى الأماكن المحدودة . . وقد تنتهى غداً بتـكييف الهواء فى الأجواء !

وكلها تتمثل فيها الصفات الستة التى تمثلت من قبل فى الطعام .

فهناك أولا : سعة المجال وتعدد الطرائق .

وهناك ثانياً : أن الإنسان هو الذى يحدد بنفسه حد الاكتفاء . ما بين العرى أو ما يشبه العرى ، وتـكديس الملابس بعضها فوق بعض طبقات !

وهناك ثالثاً : أنه لا يأخذ الأمور على حالتها الخامة إنما يصنعها . . سواء فى الملابس أو الأدوات والأشياء .

وهناك رابعاً : أنه يختلف فى سلوكه نحوها بين الأناقة المفرطة وعدم المبالاة.

وهناك خامساً : وجود هدف ثم اختلاف هذا الهدف بين فرد وفرد ، واختلافه فى الفرد الواحد بين حالة وحالة .

وهناك سادساً : أنه لا يحس بالقهر الـكامل إزاء الضرورة . فهو يملك — بِقَدَرٍ — أن يستجيب أو لا يستجيب ، وأن يختار طريقة الاستجابة وينظمها.

وتلك كلها صفات « الإنسان » التى تلازمه فى كل ما يفعل ، وتميز نشاطه عن نشاط الحيوان .

* * *

والحيوان يتخذ المأوى . . بصورة غريزية مكرورة ولا اختيار فيها . .

والإنسان يتخذ المأوى . . على نفس النسق « الإنسانى » ذى الصفات الست التى تسم كل نشاط الإنسان . فتتعدد الطرائق من الكوخ إلى القصر إلى الحصن إلى ناطحات السحاب [وقد توجد جميعاً فى بلد واحد وفى زمن واحد !] ويحدد الإنسان بنفسه حد الاكتفاء . فهذا يكفيه الكوخ ، وذلك لا يكفيه القصر ! ولا يأخذ الأمور على حالتها الخامة التى وجدها عليها [وهى الكهوف بادئ ذى بدء] وإنما يصنع لنفسه ما يريد منها وما تمكنه إمكانياته المادية والعقلية والآلية من صنعه . ويختلف سلوكه نحوها بين الاكتفاء بالمطالب « العملية » أو التأنق والتفنن . وأن هناك هدفا واعيا ، يختلف من فرد إلى فرد . وأنه لا يحس بالقهر الكامل إزاء الضرورة . فيبيت فى العراء إذا شاء ويلزم المأوى إذا شاء .

وفى كل ذلك يعمل بكيانه المتكامل المجتمع المترابط لا بجزء واحد من الأجزاء .

* * *

والحيوان يقاتل . . مدفوعا إلى ذلك دفعا بصورة لا يمكن اتقاؤها . ويقاتل بطريقة واحدة مكرورة فى كل فرد من كل نوع . ثم يقاتل لغير هدف واعٍ فى حس الحيوان . حتى لو قاتل دفاعا عن النفس أو دفاعا عن

الصغار ، أو دفاعا عن « المجموع » فهو لا يفكر فى شىء من ذلك . وإنما يتحرك حركة غريزية لا تتدبر الوسائل ولا الأهداف !

والإنسان يقتتل . . فيختلف عن الحيوان تلك الاختلافات الست التى ذكرناها من قبل .

ففنون القتال . . ما أوسعها فى عالم الإنسان ! من أول الصخرة المسنونة وقطعة الحجر الثقيلة والرمح والسهم إلى القنبلة الذرية والصاروخ وأشعة النوم وقنابل المكروب !

ثم الإنسان هو الذى يحدد لنفسه حد الاكتفاء من أول الصفر إلى ما بعد المدى « المعقول » ! فيجنح إلى السلم إذا أراد . . وهذا ما لا تعرفه صنوف الحيوان ! ويتجاوز المدى إذا أراد فيفجر ويغدر ويمعن فى القتل والتعذيب شفاء لغليل لا يعرفه كذلك الحيوان !

وهو لم يأخذ القتال على حالته الخامة ! من القتال البدنى المباشر على طريقة الحيوان . وإنما « صنع » أدوات القتال وفنونه ، ووضع خططه وعدل فيها وأضاف عليها . . حتى لكأن صناعته الأولى هى الحرب ! !

واختلف سلوكه فيها بين التنظيم وعدم التنظيم ، وقوة « التكتيك » وضعفه . . الخ .

وجعل له هدفا واعيا . . واختلف بعد ذلك فى الأهداف . فمن صراع شخصى على الغلبة . إلى نزاع على الممتلكات . إلى رغبة فى التوسع والمجد الشخصى . إلى صراع على عقيدة . إلى قتال لضرورة العيش . . الخ الخ .

ثم إنه لا يحس بالقهر الكامل إزاءه كما يحس الحيوان . فحيثما تلاقى نوعان

متقاتلان من الحيوان فلا محل لشيء سوى القتال . . حتى يفر أحدهما أو يموت أو يثخن بالجراح. ولكن الإنسان لا يحس بدافع القتال على هذا النحو القهرى. فهو يختار أن يقاتل أو يجنح إلى السلم . ويختار موعد القتال وطرائقه . ويختار أن يثبت فيه أو ينهزم . . حسب الظروف والأحوال .

ويصبح القتال بذلك هو قتال الإنسان لا قتال الحيوان !

* * *

وينزع الحيوان إلى التميز والبروز . . بعضه على الأقل ! ولكن بطريقة واحدة وهدف واحد على مدار العصور .

فهو إما أن يبرز لقيادة القطيع . أو يبرز للحصول على أنثاه . أو يبرز للاستئثار بالطعام أو المأوى . .

وفى كل مرة يتخذ سلوكا واحدا وقواعد ثابتة . .

فالحيوانات ذات القيادة المنظمة كقطيع الغزلان والبقر الوحشى والقرود . . الخ تتصارع حتى يبرز الأقوى جسما وحجما فيتولى قيادة القطيع ، ولا يعود ينازعه أحد حتى يهرم ويشيخ فتثور المعركة من جديد .

وحين يبرز الذكر للحصول على أنثاه فهو يأتى حركات معينة محدودة مكرورة . . ثم يقوم النزاع بين الذكور — فى الغالب — حتى يظفر أحد الذكور . . وتتنحى الأخرى أو تموت فى الصراع .

وحين يتقاتل حيوان مع حيوان على الطعام أو المأوى فهما يستخدمان بطبيعة الحال الجسد والعضلات !

وفى كل مرة لا يكون السلوك إراديا ، ولا الهدف واعيا فى كيان الحيوان .

أما الإنسان فينزع إلى التميز والبروز بطرائق شتى وأحوال شتى وأهداف لا حصر لها ولا حدود !

فمرة يبرز بعضلات جسمه واكتمال قوامه .

ومرة يبرز بقوة فكره وعبقرية ذهنه .

ومرة يبرز بقوة أخلاقه .

ومرة يبرز بقوته الروحية ومقدار تأثيرها على الآخرين .

ومرة يبرز بجاذبية شخصيته . . أو جمال قسماته . .

ومرة يبرز بأناقة ملبسه .

ومرة يبرز بخبثه ومكره ودهائه .

ومرة — فى حالات الشذوذ والانحراف — يبرز بالعدوان والبطش والإجرام .

ويبرز فى مجالات شتى ولأهداف شتى . . فى مجال القيادة ومجال الجنس ومجال النزاع على الطعام والمأوى . . ومجال العلم ومجال الفن ومجال الخير [ومجال الشر !] ويبرز ليثبت ذاته فحسب . أو ليثبت ذاته ويحطم الآخرين . أو ليثبت ذاته بتحطيم الآخرين !

ويبرز بروزاً « معقولا » أو بروزاً مسرفا يتجاوز الحد [أو ينزوى فى حالات المرض النفسى والشذوذ] .

ويبرز بروزاً جاداً ، لأهداف جادة ، أو بروزاً لاهيا عابثا غير جاد [كما يبرز بالأناقة المسرفة فى الملبس أو الزينة أو التميع والرقاعة — ذكراً أو أنثى] !

وهكذا وهكذا . . ألوان من البروز وأشكال .

وحب البروز دافع ضخم جداً فى حياة الإنسان . دافع يشتبك بالدوافع كلها ويخدمها ، وفى الوقت ذاته يلونها بلونه ويعطيها من طبيعته . .

وإلى حد ما كان أدلر ويونج محقين فى إبراز هذا الدافع واعتباره مسيطراً فى الحياة . ولكن خطأهما — كخطأ كل نظرية جزئية — أنهما يُؤْخَذَان بقوة أحد الدوافع فيلغيان كل شيء سواه .

وهذا إسراف معيب يفقد الحقائق الجزئية التى يصل إليها « العلماء » دلالتها الحقيقية . . ويفسد الصورة التى يرسمون بها الإنسان .

والحقيقة أن حب البروز دافع قوى عميق . وله مهمة خطيرة فى حياة الإنسان . فإعجاب الإنسان بذاته وتفضيله لكيانه ، ورغبته فى إبرازه ، هو الذى يجعله — مع الدوافع الأخرى — ينشط ويعمل وينتج ويكافح ، ويتحمل المشقة والأذى فى سبيل الوصول إلى هدفه المنشود .

وهو ككل دافع بشرى يحتاج إلى تهذيب لكى لا ينحرف عن نطاقه السوى . ولكن المهم أن له هدفاً وغاية وضرورة فى حياة الإنسان . بحيث يصبح الإنسان الذى ضعف فيه هذا الدافع منحرفاً ومريض الكيان . ثم إنه كذلك — فى حالته السوية — يأخذ صورة الإنسان وسمات الإنسان ، التى تفترق افتراقاً أساسياً عن سمات الحيوان .

* * *

تلك كلها دوافع تتصل بحفظ الذات يشترك فيها الإنسان والحيوان . ويتميز فيها الإنسان عن الحيوان .

ثم يبقى للإنسان دافع ضخم هو حب التملك . . لا يشاركه فيه الحيوان . أو على الأقل لا يشاركه فى كل صوره وحالاته .

بعض الحيوانات «تمتلك» إناثها فلا تقبل عدوان الذكور الآخرين عليها.

وبعضها يمتلك مأواه فلا يقبل دخيلا عليه .

وهى تتقاتل على ملكية الطعام [ولكنها لا تدخره على طريقة الإنسان].

وبعضها القليل جداً يدخر . . كالنمل والنحل . .

أما الإنسان فيمارس الملكية على نطاق واسع جداً لا مثيل له فى الكائنات .

فهو يمتلك الأرض . ويمتلك ما تنتجه الأرض من زرع وخامات . ويمتلك أحياناً الناس الموجودين على الأرض . ويمتلك المأوى . ويمتلك الأوطان . ويمتلك النساء والبنين . ويمتلك الذهب والفضة . . كل ما على الأرض وكل من عليها قابل للتملك فى نظر الإنسان .

والملك رغبة عنيفة جداً فى حس الإنسان . فهو يجد لذة كبرى فى أن يمتلك . سواء كان الملك حسياً أو معنوياً . . أرضا وأناسىّ وحيوانات ومعادن . . إلخ أو علماً وأفكاراً وقوة وسيطرة . . إلخ . كما يجد ألماً عنيفاً فى الحرمان ، سواء كان حسياً أو معنوياً . . حرماناً من الأرض والمال والناس ، أو حرماناً من القوة والعلم والسلطان . . إلخ . .

وقد أرادت الشيوعية — لشهوة مذهبية — أن تجادل جدالا عنيفاً فى أن حب الملكية الفردية نزعة فطرية . وزعمت أن التطورات الاقتصادية والمادية هى التى علمت الإنسان حب الملكية الفردية أو أنشأته إنشاء فى نفسه ، ولم يكن موجوداً يوم كانت الملكية شائعة وكل إنسان يأخذ بقدر حاجته .

وقد ناقشت أمر الملكية الفردية فى كتاب « شبهات حول الإسلام » فى فصل « الإسلام والملكية الفردية » وقلت إنه مع التسليم بهذا الفرض النظرى وهو أنه قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن الأفراد يملكون ملكية فردية .. فمعنى ذلك أن الرغبة « الكامنة » فى التملك لم تكن تجد ما يثيرها فى تلك الفترة . ولكن فى اللحظة التى وجد فيها المثير [وهو اكتشاف الزراعة فيما تزعم المادية الجدلية] برز حب التملك وأصبح مسيطراً على البشرية . وقلت إنه حتى على فرض أن التملك ليس نزعة فطرية قائمة بذاتها ، فإنه قد لصق منذ أدهار سحيقة بنزعة فطرية قوية وعميقة فى كيان النفس وهى حب التميز والبروز . وصار التملك هو أحد وسائل التميز والبروز الأساسية فى عالم الإنسان .

وأضيف هنا ما أشرت إليه من قبل ، وهو أن الظروف الخارجية لا يمكن أن « تنشئ » شيئاً لا وجود له فى فطرة الإنسان . إنما كل عملها أن تنمى شيئاً موجوداً بالفعل ، حتى وإن كان فى حالة كمون .

والملكية — ككل دافع إنسانى — تأخذ صورة الإنسان وسماته . . تأخذ الصفات الإنسانية الست التى ذكرناها من قبل .

فهى واسعة النطاق جداً : تشمل الناس والأشياء والأحياء .

والإنسان هو الذى يحدد كفايته منها .

وهو لا يأخذ الممتلكات على حالتها الخامة وإنما يصنع منها أشياء جديدة .

ويختلف سلوكه نحوها بين الشَرَه والاعتدال .

ويجعل لها هدفاً . . ثم تختلف أهدافه ما بين الارتفاع والهبوط .

ولا يحس بالقهر الكامل إزاءها ، بل يتصرف ما بين التنازل عنها ، زهداً فيها أو ارتفاعاً عليها ، وبين الإقبال عليها والاشتداد فيها . .

وفى كل ذلك يمارس الأمر بكيان الإنسان المتجمع المترابط المحكم الرباط.

* * *

والجنس .. طاقة عظمى من طاقات الإنسان، ودافع من أكبر دوافعه. هو الدافع الثانى فى الحقيقة بعد حب الذات والمحافظة عليها. وهو يؤدى كذلك مهمة ضخمة فى حياة الإنسان.

لحكمة عليا كانت طاقة الجنس .. ولحكمة عليا كانت بهذا العنف فى الكيان البشرى .. وبهذا الاتساع.

لقد اقتضت سنة الله فى بناء الكون أن تكون بنية الكون كلها أزواجا حتى فى الجماد!

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون »[1].

وقد كشف العلم الحديث عن جوانب مما كان مجهولا فى بنية الكون — وما يزال أمامه أن يكشف عن كثير. وكان من بين ما كشف عنه أن بنية الذرة مكونة من كهارب موجبة وكهارب سالبة — أى أزواج متقابلة فى الخلقة — وأن التفاعلات الكيميائية تتم فى الكون فى صورة أزواج. ففى ذرة كل عنصر نواة موجبة [بروتون] وحلقات متوالية من الكهارب السالبة [إلكترونات] كل حلقة منها مكتملة إلا الحلقة الأخيرة فهى ناقصة. ولا تتفاعل العناصر إلا مع عناصر أخرى ينتج عن امتزاجها معها أن تكمل الحلقة الأخيرة من الإلكترونات! أى أنه يتم نوع من التزاوج فى التفاعلات الكيميائية فى « المادة » يشبه ما يحدث فى عالم النبات والحيوان.

(١) سورة يس [٣٦]

والإنسان قمة الحياة وخلاصة بنية الكون . . يسير على الناموس ذاته الذى يسير عليه الكون . وتتمثل فيه ظاهرة « الأزواج » بكل عمقها وكل دلالتها . فالحياة كلها بجميع مظاهرها متصلة فى كيانه بالجنس .. حتى الأعماق.

ولا يذكر الجنس دون أن يذكر فرويد !

ولقد كان فرويد محقاً ولا شك فى الإشارة إلى عمق الظاهرة الجنسية فى حياة الإنسان ، وتشعبها واتساع نطاقها ، وتداخلها مع النشاط الحيوى كله ، ومع المشاعر والأفكار .

ولكن الشطط يفسد كل الحقائق التى اهتدى إليها فرويد أو أشار إليها .. لأنه يعطى صورة مزورة عن حقيقة الإنسان . صورة لا تمثله فى الحقيقة .

من البديهيات التى لا تحتاج إلى جدل أن الجنس ليس الإنسان . وإنما الجنس جزء من الإنسان !

وقد اعترف فرويد — اعترافاً عابراً — بأن الجنس ليس هو الطاقة الأولى فى كيان الإنسان . ولكنه قال إن « المدنيات » تؤمّن الإنسان على نفسه ، فيطمئن على ذاته ، ولا يعود مشغولا بحفظ الذات [التى هى الشاغل الأول] ومن ثم يتسع نطاق الجنس فى حياته فيحتل المكان الأول[1].

وتلك ملاحظة قيمة . ولها دلالتها . ولكنه نسيها فى اندفاعه الشديد لتلويث الحياة كلها بصبغة الجنس . نسى أنه قال إن هناك عملية إحلال تصنعها المدنية التى تؤمّن الإنسان على ذاته ، فيتجه اهتمامه ونشاطه إلى الجنس ، بمعنى أن هذا ليس شأن الفطرة الداخلية ، وإنما هو نتيجة لعارض قد يوجد فى حياة

(١) كتاب « Totem and Taboo » .

الإنسان وقد لا يوجد . قد يطمئن الناس على ذواتهم فينصرفون إلى الجنس . أو لا يطمئنون فيصبح الشاغل الأول لهم هو ذواتهم والحفاظ عليها . .

نسى كل هذا وراح يؤكد فى حماسة مجنونة أن هذا هو تركيب الفطرة الأصيل ! فالنفس جنسية فى صميمها . مصبوغة بصبغة الجنس . وكل نشاطها الحيوى [اللبيد Libido] نشاط جنسى . حتى الطعام . حتى الشراب . حتى التبول والتبرز والإفراز . حتى الحركة العضلية . حتى التنظيم الاجتماعى . حتى الدين . حتى التفكير . . يستوى فى ذلك الطفل والشاب والمسن . والمتوحش والمتمدن على مر العصور !

ولا نحتاج بطبيعة الحال إلى هذا السفه لكى نثبت حقيقة الجنس وعمقها فى كيان الإنسان !

إنها حقيقة عميقة واسعة متشابكة مع الكيان كله . . ولكنها جزء من ذلك الكيان وليست كل الكيان !

أما التشابك والتداخل فظاهرة عامة فى بنية النفس . ليست خاصة بالجنس حتى نقول إنها فريدة ، وإنها تستدعى دراسة خاصة . وقد بينا فى الخطوط المتقابلة — وسنبين هنا مرة أخرى فى الدوافع والضوابط — أن كل شىء فى كيان الإنسان متداخل متشابك معقد أشد التعقيد . فما بال الجنس وحده فى نظر فرويد هو الذى يتسم بهذه السمة ، ويستأهل الإفراد والتخصيص ؟ !

كلا ! ومايستطيع عاقل أن ينفى أن الاهتمام الأول للإنسان هو ذاته . وأنه من خلال ذاته تصدر الاهتمامات الأخرى — ومن بينها مشاعر الجنس . ومن بينها كذلك المشاعر الجماعية التى تهدف إلى التجمع والترابط مع الآخرين .

أما أن يكون الإنسان كله منبعثاً من إحدى طاقاته . . ! فتصور عجيب لا يخطر إلا على بال عالم من « كبار » العلماء !

الطاقة الجنسية تشتبك بكل النشاط الإنسانى ، ولكنها لا تلونه بلونها المفرد . ولا تصنع ذلك أية طاقة أخرى فى كيان الإنسان . فلا يمكن أن يكون الدين جنسا . والنظام الاقتصادى جنسا . والطعام والشراب جنسا . وقطع الأحجار لإقامة البيوت جنسا . ومراقبة الفلك ومعرفة أسراره جنسا . . ! ! وكل ذلك فى دائرة اللاشعور ! !

إنما يمكن أن يقال — فى اعتدال — إن حقيقة الجنس ينبثق منها التزاوج والتناسل . . فينشأ « الناس » والمجتمعات : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها . وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »[1] فيحتاج هذا المجتمع إلى تنظيم : اجتماعى واقتصادى وسياسى . . وفكرى وروحى . فتنشأ القواعد والنظم والأفكار والفلسفات . . ويحتاج الإنسان إلى إعالة بنيه الناتجين من حقيقة الجنس ، فيبحث عن طعامهم وشرابهم وملبسهم ومأواهم — كما يبحث لنفسه — فيكون السعى إلى الرزق . ويكون « العمل » وتكون عمارة الأرض . ويكون « العلم » الذى يبحث به الإنسان فى كنوز السماوات والأرض ويحاول معرفة أسرارها ليستطيع استغلالها . . الخ . . الخ .

ولكن ذلك كله — على أنه حقيقة مشهودة — لا يعنى أن الجنس هو الحياة البشرية ! ! الجنس كشعور أو دافع . يدفع إلى لقاء الجنس الآخر والاتصال به . . .

إنما يعنى — وتلك هى الحقيقة الكبرى — أن الإنسان يمارس نشاطه الجنسى بكيانه كله لا بالطاقة الجنسية المحدودة المتخصصة . كما يمارس نشاطه

(١) سورة النساء [١] .

كله بـكيانه كله . فهو لا يبحث عن الطعام بمعدته . أو بدافع الجوع وحده . ولـكن بـكيانه كله . رضى أم أبى ! لأنه يحتاج إلى تشغيل جسده وفـكره فى البحث عن الطعام . ثم يصطدم بوجود آخرين معه فى الأرض يبحثون عن طعامهم ، فيتعامل معهم بكلا جانبيه : الفردى والجماعى . وينشئ « قيما » من التعاون والمشاركة . وينشئ « نظما » اجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية وفـكرية . . الخ .

وهـكذا . . فمن حيث بدأ الإنسان . . من دافع الجوع . أو من دافع الملك . أو من دافع البروز . . فهو فى النهاية واصل إلى حيث يلقى الحياة بـكيانه المجتمع ، وتلقاه الحياة من خلال هذا الـكيان !

والجنس — فى ذلك — ليس بدعا فى طاقات الإنسان . .

* * *

وفى حديثنا السابق عن الدوافع بيّنا كيف تفترق دوافع الإنسان عن دوافع الحيوان .

وهنا فى ميدان الجنس ، سنجد الفوارق ذاتها التى يتميز بها النشاط الإنسانى عن النشاط الحيوانى ، منطبقة بتمامها على النشاط الجنسى . . بل ربما كانت أكثر انطباقا هنا مما هى هناك !

فالغريب أن هذه الطاقة التى يبدو لأول وهلة أنها أقرب الطاقات شبها بالحيوان ، هى — فى صورتها الإنسانية — أشدها لصوقا « بالإنسان » وأبعدها من الحيوان !

ولم يفت فرويد — وهو يبحث فى شئون الجنس هذا البحث المتخصص الذى استغرق كل حياته العملية — أن يدرك ما فى النشاط الإنسانى من

فروق شاسعة عن نشاط الحيوان ، ولـكنه فى حماسته المجنونة لتقرير حيوانية الإنسان لم يعجبه من نشاط الإنسان كل ما يتميز به عن نشاط الحيوان . . فسماه شذوذا [١١١] . وقد مرت بنـا الفقرة التى نقلناها من كتابه « Three Contributions to the Sexual Theory » والتى قال فيها إن «التسامى» نوع من أنواع الشذوذ ، تُصَرَّف فيه الطاقة الشهوية الصادرة من منابع جنسية ، فى مجالات أخرى غير المجال الجنسى ، وينتفع بها فى هذه المجالات !!!

أى أنه إما أن يـكون الإنسان حيوانا . . وإما أن يـكون قد أصابه الشذوذ !

وتلك نظرية « عالم » من كبار العلماء !

* * *

أول فرق بين نشاط الإنسان الجنسى ونشاط الحيوان هو امتداد موسم النشاط والإخصاب بغير حدود طيلة العام . وهذه أول سمة من سمات التحرر فى بنية الإنسان الجنسية لا مثيل لها فى عالم الحيوان . . حيث الموسم محدود . والرغبة لا توجد عند الذكر أو الأنثى إلا خلال الموسم وحده . وبعد ذلك يصوم الذكر والأنثى كلاهما فلا يحدث تقارب ولا يحدث اتصال . بل يصومان [أو تصوم الأنثى على الأقل] فى لحظة حدوث الإخصاب .

وقد ترتب على هذه الحقيقة أن الجنس أصبح مشـاعر دائمة فى نفس الإنسان . لا تتحدد بحدود الاتصال الجنسى ذاته كما يحدث فى الحيوان . وإنما تسبقه وتلحقه وتلازمه . . ومن ثم أصبح الجنس فى حياة الإنسان أوسع من اتصال الأجساد فى ساعة من الساعات !

ومن أبرز الفروق تنوع مشاعر الجنس مع السعة الهائلة فى المجال .

وقد أثبتّ من قبل فقرة فى هذا الشأن من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » تصلح لإثباتها مرة أخرى فى هذا المجال :

« هناك الشهوة العارمة التى تتمثل فى الجسد الهائج والجوارح الظامئة ، والعيون التى تطل منها الرغبة الهائجة المجنونة .

« وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة ، التى تعد العدة فى ترتيب وأناة ، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال .

« وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التى تنبع من الجسد ، ولكنها تمر فى طريقها على القلب ، فيصفيها من بعض ما بها من « العكار » ، ويعطيها قسطا من « العاطفة » تمتزج بصيحة الجسد الملهوف .

« وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التى تنبع من القلب ، ولكنها قد تمر فى طريقها على الجسد ، فيمنحها بعض لهيبه المحرق ، وقد يخلط بها بعض العكار ، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء .

« وهناك إشراقة الروح الحالمة ، قد صفّيت من العكار كله ، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد ، وإشعاعة لا تعرف القيود . تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذى يصبّ فيه !

« وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ ، ولا يقدر عليها التعبير !

« وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس ، تشترك فى الأصل ، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف » .

وهذا الاتساع والتنوع فى مجال الجنس مزية فريدة تفرد بها الإنسان.

والاختلاف الثانى أن الإنسان هو الذى يحدد لنفسه حد الاكتفاء . فليس هناك القيد الغريزى الذى يغلق الصمام فى لحظة معينة . . وإنما هناك

الحرية المفتوحة . . التى تبدأ من التوقف الـكامل . . إلى ما بعد حد الاكتفاء المعقول . . أى إلى حد الإسراف !

والاختلاف الثالث أن الإنسان لم يأخذ الجنس على حالته الخامة ! حالته الجسدية الخالصة التى تتلخص فى حركات معينة تصل إلى الهدف بطريقة مباشرة . . فليس ذلك حال الإنسان فى أى نشاط من نشاطاته . .

فـكما أبى أن يأخذ الطعام على ما هو عليه . . وصنع منه ألواناً وأشكالا وطعوماً مختلفة المذاق . . وكما صنع ذلك فى الملبس والمسكن والملك . . فـكذلك يصنع فى الجنس . فهو يأبى أن يقف به عند خاماته الجسدية الأولى . وإنما ينشئ منه « صناعات » مختلفة واسعة النطاق .

وإذا كان قد « تفنن » فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن . . الخ فأكبر « فنونه » هى فنون الجنس !

فنون واسعة المجال جداً : فى الأدب والموسيقى والغناء والرسم والرقص والنحت . . وكل ما يخطر على البال !

وقد أغرت هذه السعة الفنية فى مجال الجنس [أو السعة الجنسية فى مجال الفن !] أغرت فرويد بأن يقول إن الفن كله طاقة جنسية ! وليس ذلك صحيحا بطبيعة الحال . فالفن طاقة « إنسانية » شاملة .. تشمل — كما رأينا — الطعام والشراب والملبس والمسكن والملك وحب البروز . . وتشمل الجنس كذلك فيما تشمله . وإذا كان مجالها فى الجنس واسعاً ، فلأن الجنس طاقة واسعة . ولـكن عمل الفن فى دنيا الجنس هو مجرد امتداد لعمله فى كل مجالات النشاط الحيوى للإنسان.

والاختلاف الرابع أن الإنسان — كما نرى من الفقرة التى نقلناها من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » — لم يتخذ سلوكا واحداً نحوه . وإنما يختلف فرد عن فرد ، كما يختلف الفرد ذاته فى حالة عن حالة . .

والاختلاف الخامس أن الإنسان قد جعل له هدفاً .. ثم اختلفت الأهداف .. فمن الناس من يراه فى نطاق الضرورة ويقضيه فى نطاق الضرورة.. ومنهم من يجعله هم حياته الشاغل .. ومنهم من يجعله وسيلة للنسل .. ومنهم من يطلب فيه السكن النفسى والهدوء والراحة .. ومنهم من يجمع بينها جميعاً .. الخ .

والاختلاف السادس أنه لا يحس بالقهر الكامل إزاءه .. !

فعلى كل ما فيه من سعة وتنوع وعمق .. و « ضراوة » أحياناً .. فالإنسان « يملك » إزاءه أشياء كثيرة ! يملك الامتناع عنه [ولو لفترة من الوقت] .. الامتناع عن مبدإ أو عقيدة أو ضرورة .. يملك « التسامى » الذى سماه فرويد نوعاً من أنواع الشذوذ ! ويملك اختيار السلوك الذى يسلكه فيه ، ويملك تحديد الهدف الذى يريده منه . وهى كلها تمثل حرية الاختيار فى مقابل القهر والإجبار !

* * *

هذه الضوابط الفطرية — كما رأينا — ليست نوعاً واحداً بل أنواع .

وليست متجهة إلى المنع .. وإنما هى أقرب إلى التنظيم .

إنها كلها حواجز تقف فى طريق التيار المندفع .. ولكن لا لتمنعه بل لتضبط انطلاقه . وحتى إذا منعت جانباً منه ، فلكى ترفع مستواه لينطلق فى أفق أعلى ..

إنها كالخزانات والقناطر المقامة على مجرى الماء لتنظم انطلاقه .. إنها — بادئ ذى بدء — تحجزه قليلا حتى يرتفع مستواه . ثم تسمح لجانب منه بالمرور مباشرة فى مجراه الأصلى . وتستفيد ببعضه فى نطاق آخر لم يكن ليصل

إليه لو ترك بلا حواجز ولا رفع . . وتشتد أحيانا فى حجز جانب منـه . . لنستخرج منه طاقة الـكهرباء !

وهذه الضوابط التى رأيناهـا ، والتى تميز بين نشاط الإنسان ونشاط الحيوان تحجز الدوافع الفطرية — قليلا — لترفع مستواها كله . ثم تسمح بقدر منها ينطلق فى مجاله الأصلى : مجال الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس والقتال والملك والبروز . . وإن كان ينطلق على مستوى أعلى مما كان فى منبعه . وتحول قدراً منها — بعد أن رفعته — إلى مجالات جديدة غير مجالاته الأصلية المباشرة [وهى عملية « التسامى » التى قال فرويد إنهـا شذوذ . . وهى فطرة لا شذوذ فيها إلا من زاوية النظر الحيوانية التى نظر بها فرويد إلى الإنسان !] ثم تشتد فى منع جانب منها لتـكوّن منـه طاقة هائلة كطاقة الكهرباء . . هى الطاقة المتصلة بالـكفاح فى سبيل العقيدة والمثل العليا !

هذه العمليات الثلاث التى تقوم بها الفرامل المنظمة لانطلاق «الشهوات» . . تقوم بها فرادى ومجتمعة فى ذات الوقت . . كما تعمل الدوافع ذاتهـا فرادى ومجتمعة فى ذات الوقت !

فهى — مجتمعة — تحجز تيار الدوافع . . قليلا . . فلا يأخذ منذ البدء صورة انطلاق الحيوان .

ثم يسمح بعضها بتمرير الدوافع — التى ارتفع مستواها — فى نطاقهـا الأصلى ، ولـكن مع التنويع وتوسيع نطاق الانطلاق . . ففرملة التنويع هى التى نوعت ألوان الطعام ، ونوعت سلوك الإنسان نحوه . وهى التى نوعت الملابس وتفننت فى تفصيلها . وهى التى نوعت المسكن وزخرفته . وهى التى نوعت مشاعر الجنس . ونوعت آفاق البروز . . إن عملهـا هو التنويع .

هو تلقى الدفعة الحيوية وتوزيعها من عيون مختلفة وعلى مستويات مختلفة . . وهى المتصلة « بالفن » فى عالم الإنسان .

وفرملة تكوين الهدف هى التى تحول الدافع عن مجراه الأصلى — بعد رفعه — إلى مجالات جديدة لم يكن ليصل إليها لو ترك فى مجراه الأصلى وعلى مستواه الأصلى . وهى التى حولت الطعام من شهوة بطن — وهى صورته الحيوانية الأصلية — إلى « قيم » أخرى . منها التعاون والإيثار والرحمة والتعاطف . . حين أوحت للإنسان — فى مجال الطعام — أن يتعاون مع أخيه فى سبيل الحصول عليه ، ثم يتعاطف معه بإشراكه فيما يحصل عليه من طعام . . وأنشأت بذلك نظما اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية . . الخ . وهى التى حولت الجنس من شهوة جسد خالصة — وهى صورته الحيوانية الأصلية — إلى قيم أخرى . منها الرحمة والمودة والسكن : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[1] ومنها المصاهرة والنسب . . ومنها التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية . . الخ . وعلى هذا النسق تدخلت فى مجرى كل دافع من الدوافع الفطرية فحولته إلى قيم وتنظيمات . .

وفرملة الاختيار الحر قد استغلت عمل الفرملة المنوِّعة والفرملة المكوِّنة للأهداف . . وإن كانت تعمل — بعد ذلك — فى نطاق أعلى . فهى التى تملك حجز الدافع حجزاً تاما لفترة من الوقت . . لتولد منه فيما بعد طاقة الكهرباء !!

* * *

وهذه الضوابط — مجتمعة ومتداخلة — هى التى جعلت الإنسان هو « الإنسان » وحياته هى حياة الإنسان !

(١) سورة الروم [٢١]

إنها هي التي جعلت الإنسان — وحده في كل ما نعلم من صنوف الخلق — هو الذي ينشئ ويبني ويعمر . . ويقوم بدور الخلافة عن الله . .

إنها هي التي جعلت « حب الحياة » — الذي يشترك فيه الإنسان مع كل الأحياء — يتحول إلى « تجميل الحياة » !

الإنسان يحب الحياة فيجملها . . ويتجمل هو في أثناء تجميلها !

يجملها في عالم المادة وعالم الروح . . في النطاق المحسوس ونطاق المعنويات .

يجملها فيستخرج كنوزها وينشئ منها صناعات تيسر له الحياة . . ينشئ منها مساكن مريحة وأدوات للإنتاج مريحة . . ينشئ القطار والسيارة والطائرة والصاروخ .. وينشئ المنسوجات المتعددة ليلبسها . . وينشئ الأطعمة المختلفة ليأكلها . . وينشئ الحدائق ليستمتع بمافيها من جمال .

ويجملها فينشئ فيها قيما جميلة . . ينشئ فيها العدل والحق والإخاء والمساواة . . والنظم والتنظيمات .

ويتجمل هو في أثناء تجميلها . . يتجمل في عالم المادة وعالم الروح . . في النطاق المحسوس ونطاق المعنويات .

يتجمل باللباس والزينة . . ويتجمل بالمطعم والمشرب والمسكن . .
ويتجمل بالأخلاق والمشاعر والأفكار والعقائد . . .

كلها ألوان من الجمال الحسي والمعنوي ، يصنعها الإنسان في نفسه وفي الحياة من حوله . . نتيجةً لوجود هذه الضوابط الفطرية في كيانه ، التي ترفع مستوى الدوافع وتمدها في الآفاق . .

إنها تصون الطاقة البشرية أن تتبدد في مستوى الحيوان . فتستهلك بلا إنتاج . .

الحيوان يستهلك طاقته كلها فى شهواته . ولا يُبقى فائضاً . ولا يملك فائضاً يحوّله للإنتاج . والإنتاج الوحيد الذى اقتضت حكمة الله أن تمنحه إياه ، هو الإنتاج الجنسى . . إنتاج نسل جديد يحل محل القديم حين يموت . . أى أنه فى الحقيقة يقوم بمجرد الاستمرار . . لا الإنتاج الحقيقى الذى يزيد حجم الحياة .

أما الإنسان فلغير ذلك خلقه الله . .

لم يخلقه ليستهلك نشاطه بلا إنتاج . .

بل خلقه لينتج . . لينشئ . . ليبدع . . بما أودعه الله فيه من قدرة الإنشاء حين نفخ فى قبضة الطين من روحه . . بقدر ما تطيق قبضة الطين ، وبقدر مايرى الله — بحكمته وعلمه — أنه يصلح للدور الذى ناطه بالإنسان .

ولكى ينتج لابد أن يحجز جانبا من الطاقة لا يتبدد فى نشاط الحيوان !

يحجزه بهذه الفرامل المختلفة . . ويأخذ الفائض فيحوله إلى إنتاج . . إنتاج فى عالم المادة وعالم الروح . . فى الزراعة والصناعة والبناء والتعمير . . وفى المشاعر والأفكار والفنون .

إنتاج يجعل الحياة جميلة ، ويجعله هو جميلا فى تجميلها . .

ويجعله — بذلك — موصول القلب بالكون الأعظم ونواميسه الكبرى ، وبالجمال الذى تشتمل عليه هذه النواميس .

ويكون بذلك جديراً بأن يكون خليفة لله . وجديراً بالتكريم الذى منحه الله إياه .

* * *

ليست هذه الضوابط إذن معوقا للإنسان عن إتمام نموه . . ولا معوقا للإنسان عن الحياة !

وقد جاهد فرويد جهاداً عنيفاً ليشوه صورة الضوابط بكل وسـيلة من وسائل التشويه .

وقد أثبتنا فيما سبق من هذا الفصل كلامه عن الأخلاق بأنها تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها الطبيعية العادية . وكلامه عن التعارض بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية . وكلامه عن « التسامى » بأنه شذوذ ! ! !

وقد أنفق سنوات من عمره ليثبت أنه ليس هناك إلا أحد طريقين اثنين : إما انطلاق الطاقة الشهوية — الجنسية فى أساسها — انطلاقا « حراً » أى حيوانيا لاشذوذ فيه ! وإما الـكبت المدمر للأعصاب المبدد للطاقات المفسد للحياة !

وليس هناك طريق ثالث . . !

وأنت أيتهـا البشرية فاختارى إما انطلاق الحيوان وإما الشقاء وفساد الأعصاب !

أما عملية « الضبط » فلم يشر فرويد إليها !

ليس فى عرفه « ضوابط » . . وكل شىء فى عرفه كوابت . . ضارة مفسدة كريهة !

ثم إن الـكبت — وهو الصورة الوحيدة عنده للمنع والضبط — عملية مفروضة على الإنسان من الخارج . تبدأ أول ماتبدأ بلوثة العشق الجنسى الذى يحسه الطفل نحو أمه ، ثم يجد أباه الضخم الهائل الحاكم بأمره وجبروته حائلا بينه وبين الوصول إلى هذا العشق « فيـكبته » ! ! وحين يكبته أى يمنعه البتة يتحول إلى قيم ومبادئ . . وإلى دين ! !

وقد ناقشنا من قبل أسطورة العشق الجنسي في حياة الطفل . . ولا نحتاج إلى مناقشتها مرة أخرى فهي مجرد أسطورة ! ولكننا نقول هنا إن عملية الحجز كما رأيناها ليست كلها منعا . وإنما هي أقرب للتنظيم والضبط . وأن الجانب الذي يُمنَع لتتكون من حصيلته مبادئ ومُثُل هو جانب واحد فقط من الطاقة . وهو لا يسبب فساداً للأعصاب ولا تدميراً للحياة . . مادام الجانب الآخر يأخذ منطلقه الطبيعي في مجراه الأصيل . .

ونقول كذلك إن عملية الضبط فطرية طبيعية داخلية بما أنها تستخدم أجهزة فطرية واستعدادات فطرية . . فالتنويع ، وتكوين الأهداف ، والاختيار الحر . . وهي المجموعات الثلاثة الكبرى من الضوابط ، استعدادات وطاقات تنشأ من داخل الكيان النفسي ، ولا تنشأ — ولا يمكن أن تنشأ — من أي ضغط خارجي . والإنسان يستخدمها استخداماً حراً في كل مجالات النشاط الحيوي من طعام وشراب ومسكن وملبس . . وجنس !

ثم إنها — فوق ذلك — هي المقابل الواعي المدرك المفكر للصمام الغريزي عند الحيوان . . فهي تتناسب مع طبيعة الإنسان كما يتناسب الصمام الغريزي مع طبيعة الحيوان . أم كان يريد فرويد أن يكون الإنسان بلا ضوابط أصلا ، فلا يصبح حتى كالحيوان ؟ !

وبعد ذلك كله . . من ذا الذي يقول إن عملية الإنتاج الهائلة التي تنشأ من وجود الضوابط الفطرية في كيان الإنسان . . الإنتاج المادي والروحي . . الذي يتمثل في الإنشاء والتعمير والبناء والحضارة . . والفنون والأفكار . . من يقول إن كل ذلك إفساد للحياة البشرية وتدمير لكيان الإنسان ؟ !

* * *

ولكن هذه الضوابط مع كونها فطرية . . ومع كونها تؤدي هذه المهمة

الضخمة فى حياة الإنسان . . فهى لا تنمو بمفردها دون معونة خارجية !

وقد بينا من قبل أن هذا لا يعنى أنها مفروضة على الكيان البشرى من خارجه ! وإنما شأنها فى ذلك شأن القدرة على المشى والقدرة على النطق . . ما لم تنمَّيا من الخارج فلن تنموا نموهما الطبيعى ، مع أنهما فى ذاتهما طبيعيتان وفطريتان . .

وقد شاءت حكمة الله أن يرعى الإنسان صغاره لينمى فيهم هذه الضوابط وإلا فلن تأخذ صورتها السوية الكاملة .. كما شاءت حكمته — سبحانه — أن يرعى هو البشرية كلها لينمى فيها هذه الضوابط . . بالرسل والرسالات . . وإلا فلن تأخذ صورتها السوية الكاملة ، مع أنها موجودة فى صميم الفطرة البشرية !

وحين لا تنمو هذه الضوابط فالنتيجة الحتمية هى انطلاق الشهوات بلاضابط . . وهبوط الإنسان عن مستواه الرفيع الذى خلق من أجله .. مستوى الخلافة والرفعة والتكريم .

وسنتحدث فى الفصول القادمة عن كيفية نمو القيم العليا . وعن الشذوذ والانحراف . وعن الخير والشر . وكلها متصل بالضوابط وعملها فى كيان الإنسان . والفساد الذى يصيب هذا الكيان حين لا تنمو الضوابط نموها الطبيعى كما خلقه الله .

ونكتفى هنا بتوكيد هذه الحقيقة : وهى أن التربية والرعاية والتهذيب والتوجيه ركن أصيل من حياة الإنسان لا يصلح أمره بدونه . ومن ثم يتولاه الله سبحانه بالنسبة للبشرية كلها ، ويأمرهم أن يتولوه بالنسبة لبعضهم بعضا ، وبالنسبة لصغارهم خاصة : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »[1] .

---

(١) سورة البقرة [٢٥١]

الدين والفطرة

«وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ،
وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا
بلى ! شهدنا » صدق الله العظيم

الدين من صميم الفطرة . .

ففى صميم الفطرة أن تحس بالله على نحو من الأنحاء .

وقد لاتهتدى دائما إلى الصورة الصحيحة للعقيدة . . وقد تمزج بها كثيرا من الخرافات والأساطير . . وقد تتصور الحقيقة الإلهية تصورا منحرفا . . بل قد تلحد بالله إلحادا . . ومع ذلك يظل فى صميمها هذا الإدراك لوجود خالق لهذا الكون . . خالق قوى جبار . .

والكون كله مفطور على عبادة الله .

والتفسير « العلمى » لأحد مظاهر هذه العبادة أن الكون يطيع القوانين التى سنها الله لوجوده وحركته ومبدئه ومنتهاه . ولا يخرج على قانون واحد منها ، ولا يتجه إلى الخروج عليها .

الذرة فى تكونها من مادة وطاقة ، بترتيب معين وصورة معينة ، وماتحمله فى طياتها من حركة وتجاذب ونظام . . هى الذرة . . لاتملك أن تكون غير ذلك . لاتملك أن تتكون من شئ آخر غير مكوناتها الحالية . . ولاتملك أن تغيّر نظامها الذى خلقت به وفطرت عليه . . وهى بذلك « تعبد » الله .

والكون فى تكونه من هذه الذرات ، أو من المادة والطاقة على نحو معين وصورة معينة ، وما فى كيانه من حركة وتجاذب ونظام .. وما يقوم بين أجرامه من أبعاد ونسب ومسافات .. هو الكون .. لا يملك أن يكون غير ذلك .. لا يملك أن يغير نظامه ، فيقترب بعضه من بعض أو يبتعد بعضه عن بعض ، أو يتناثر أو يتجمع .. إلا على النحو الذى خلقه به الله وفطره عليه .. وهو بذلك يعبد الله .

والأرض فى تكونها من مجموعة العناصر التى تحتويها ، على نظام معين وصورة معينة ، وما تحمله فى كيانها من طاقة كهربائية مغنطيسية تحدد مكانها فى المجموعة الشمسية وتحدد مسارها وطريقة دورانها .. وما تشتمل عليه من إمكانيات الحياة سواء فى باطنها أو على سطحها أو فيما يحيط بها من غلاف جوى ، وما تتلقاه من إشعاعات من الكون كله ، ومن الشمس خاصة .. هى الأرض .. لا تملك أن تكون غير الأرض ، ولا أن تغير شيئا من صفاتها ولا إمكانياتها .. وهى بذلك تعبد الله ..

والحياة على ظهر الأرض ، من الكائن الوحيد الخلية إلى النبات إلى الحيوان .. فى مختلف صورها وحالاتها وأنماطها وعاداتها وسلوكها .. لا تملك أن تكون غير ما هى عليه ، ولا أن تؤدى دورا غير دورها المقدور ، ولا أن تخرج على القوانين التى تحكمها فى كل نمط من أنماطها .. وهى بذلك تعبد الله ..

ولقد يقول العلم إن الحياة على ظهر الأرض قد « تطورت » ، فارتقت وتعقدت ، وجدت فيها وظائف وأعضاء ، وجدت لها وسائل وأهداف .. فإذا كان ذلك حقا ، فهو يجرى كذلك على الناموس الذى وضعه الله لتلك

الكائنات ، وجعلها تسير بحسبه فى ارتقائها وتعقدها ، وما يجد عليها من أمور . . ويكون تطورها ذلك جزءاً من العبادة التى تتوجه بها إلى خالقها ، ملبية مطيعة لما فطرها عليه من اتجاهات واستعدادات .

وذلك هو التفسير « العلمى » لمعنى من معانى قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين »[1] .

* * *

ثم يجىء دور الإنسان . .

والإنسان كائن متفرد فى كل الخلق . . لا يشبهه فى تفرده شىء ، ولا يشاركه فى التفرد كائن من الكائنات .

إنه — كما رأينا من قبل — قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله .

وهو — بتفرده ذلك — يعبد الله على نحو يختلف عن عبادة الآخرين ، وإن كان — فى النهاية — يلتقى بها فى الاتجاه .

العبادة — بمعنى الطاعة — مظهر من مظاهر الكون كله ، لا يفترق فيه جماد عن نبات عن حيوان .

والإنسان داخل فى ناموس الكون الأكبر لا يتخطاه . .

غير أن الناموس — بالنسبة للإنسان — قد أعطاه كياناً متفرداً فى أمرين عظيمين ، يتميز بهما عن غيره من الخلق :

---

(١) سورة فصلت [١١] .

الأمر الأول : أنه بالنفخة الإلٰهية التى تشتمل عليها روحه قد صار « مدركا » لنفسه وما حوله .

والأمر الثانى : أنه بهذه النفخة ذاتها قد صار « مريداً » لما يقوم به من أعمال وتصرفات .

وهذان العنصران : الإدراك والإرادة ، المستمدان من النفخة العلوية ، هما فى الإنسان محدودان بحدود ، وهذه الحدود قد قدرها الخالق بما يناسب المهمة التى خلق لها الإنسان وهى الخلافة عن الله فى الأرض . . بلا زيادة عن ذلك القدر ولا نقصان . فهوسبحانه يخلق بِقَدَرٍ ما يشاء .

وبهاتين الصفتين تختلف كل أعمال الإنسان عن أعمال الكائنات الأخرى ، فى أنها أعمال « واعية » يدرك الإنسان غايتها وأهدافها . وأنها أعمال « إرادية » يريدها الإنسان ويقصدها .

ومن بين ذلك العبادة . .

فعبادة الإنسان إرادية وواعية ، فى جانب منها على الأقل ، بخلاف عبادة غيره من الكائنات [هناك جانب غير إرادى وغير واعٍ من العبادة — بمعنى الطاعة — هو خضوع الإنسان فى محياه ومماته ونموه وصحته ومرضه ، وهضمه وتنفسه . . الخ . . الخ لقوانين الله التى فطره عليها . وفى هذا الجانب يشابه الإنسان بقية الكون . ولكن يبقى له — فوق ذلك — جانبه المدرِك المريد ، وما يصدر عنه من عبادة إرادية وواعية] .

فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة التى لا إرادة لها فيها ولا وعى . وإذا كان الكون ، والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة ، فإن الإنسان [إلى جانب هذا اللون من الطاعة] قد أُلهِمَ طريقين لا طريقاً واحدا : طريق الطاعة وطريق العصيان ، وأعطى القدرة على التمييز

بين الطريقين واختيار أحدهما والمضى فيه : « وهديناه النجدين »[1] . « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا »[2] . « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[3] .

ومن ثم فهو المخلوق الوحيد — من مخلوقات الأرض — الذى يعبد الله عن وعى وفهم وإدراك . وهو كذلك المخلوق الوحيد فى الأرض الذى يعصى الله ، حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان .

وهو إذ يعصى ، يخالف أوامر الله إليه باتباع طريق الهدى والاستقامة والنظافة والارتفاع . ولكنه — مع ذلك — لا يخالف الناموس المقرر له من لدن الله . إذ الناموس المقرر له هو استعداده للهدى والضلال ، وحرية اختياره بين طريق الهدى وطريق الضلال . .

* * *

ولكنه فى الحالين « يدرك » وجود الله .

ويدركه بالفطرة . . « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ! »[4] .

وللفطرة طريقة خفية فى إدراك وجود الله ، والإيمان بوجوده ، والاتصال به ، والاستعانة به ، والتزود من زاده . .

ولا نتحدث هنا عن تلك الطريقة الخفية ، لأن كل حديث عنها لن يوضح ماهيتها . . ما دامت خفية الكنه . . ككل شىء فى هذا الكون الهائل العجيب !

---

(١) سورة البلد [١٠]
(٢) سورة الإنسان [٣]
(٣) سورة الشمس [٧ — ١٠]
(٤) سورة الأعراف [١٧٢]

إنما نتحدث فقط عن بعض الوسائل المدركة التى « توقظ » الفطرة الكامنة ، وتوجهها إلى الله .

وكما قلنا إن القدرة على النطق كامنة فى كيان الطفل ، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لإيقاظها . . فكذلك مقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة فى داخلها ، ولكن أموراً خارجية توقظها وتحركها وتنميها . . أو على أقل تقدير تعطيها الوعى والإرادة اللذين تتسم بهما بقية أعمال الإنسان .

* * *

يحس الإنسان « بالعجز » إزاء الكيان الكونى من حوله . .

يبدأ العجز من لحظة الميلاد . . ويستمر إلى لحظة الموت . . ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت وإن كان يأخذ صوراً مختلفة فى كل سن وكل طور من أطوار النمو الجسمى والنفسى .

هو فى الطفل عجز كامل عن الحياة بغير مدد دائم ومعونة دائمة ممن حوله : بالإرضاع والرعاية فى كل لحظة من النهار والليل .

ويكبر الطفل ، ويكبر معه « مستوى » العجز ومجاله .

لم يعد هو العجز عن الحركة — فقد صار يتحرك — ولا العجز عن تناول الطعام — فقد صار يتناوله بنفسه — ولا العجز عن الإمساك بالأشياء وتحريكها طوع إرادته — فقد صار يصنع الكثير من ذلك . .

وإنما هو عجز على مستوى آخر . فهو عاجز عن أن ينمو بالدرجة وبالسرعة التى يريدها لنفسه . وعاجز عن أن يسيطر على هذا الشئ أو هذا النبات أو الحيوان أو الإنسان كما يشتهى . . وعاجز عن الطيران فى الجو كالطيور . . وعاجز عن أن يدرك الشمس والقمر والنجوم ويمسكها بيديه . . أو يلمس السماء !

إن العجز لم يعد حسيا بحتا كما كان فى المراحل الأولى من العمر — حين كان الكيان كله حسيا — وإنما صار حسيا تارة ومعنويا تارة ، أو حسيا معنويا معاً فى بعض الحالات .

ويظل يكبر . . ويكبر معه العجز .

حتى يستوى على أشده ، وما يزال يحس بالعجز فى أكبر مجالاته : العجز عن تحقيق كل ما يريد تحقيقه ، والعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته ، والعجز عن السيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه . .

حقا إنه يحقق أشياء كثيرة ويعرف أشياء كثيرة ويسيطر على أشياء كثيرة . ولكن هذا لا يغنيه ، ولا ينفى عن خاطره شعور العجز . فهو يريد أن يحقق كل شىء . ويعرف كل شىء . ويسيطر على كل شىء .

وأشد ما يقف أمامه عاجزا : رغبة الخلود . والرغبة فى معرفة الغيب الذى لم يحدث بعد . .

إنهما ذاتهما الرغبتان العنيفتان اللتان أزلتا آدم من الجنة ، وأمسكه بهما الشيطان من خطامه ، بسلطان الإغراء ! : « وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين »[1] . « قال يا آدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ »[2] .

. . ولقد حقق الإنسان معجزات كثيرة فى هذا الكون . وأطلق طاقة الذرة وأطلق الصاروخ ، وانطلق معهما يرتاد الفضاء . . ولكن . . هل حقق شيئا من عقدتيه الأزليتين اللتين تؤرقان باله :

(١) سورة الأعراف [٢٠] .
(٢) سورة طه [١٢٠] .

هل استطاع أن يحقق الخلود فى الأرض . . ألا يموت أبداً ولا يغادر الحياة أبداً ؟

هل استطاع أن يعرف الغيب ؟ لا الغيب البعيد الذى يقع بعد سنوات . بل الغيب الذى يقع بعد لحظات . بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب ، اللحظة التى لا يكاد يفصلها عنه زمن ، ومع ذلك تفصلها عن « علمه » الآماد والآباد ؟ !

كلا !

ولقد أدى هذا العجز فى تاريخ البشرية إلى كثير من ألوان العبادة . . المهتدية والضالة .

أدى إلى عبادة الوالد . . وعبادة قوى الطبيعة . . وعبادة الطوطم . . وعبادة الوثن . . وعبادة الله .

الطفل العاجز ينظر إلى والده نظرة تبجيل شديد واحترام ، يصلان إلى حد التقديس . . إلى حد العبادة الخفية . . ومرد ذلك إلى ضآلة حجمه بالقياس إلى حجم والده ، وضآلة قدرته إلى جانب قدراته . وقد كانت البشرية الأولى ـ فى فترات ضلالها وجاهليتها ـ تعيش بحس الطفل ومشاعره واتجاهاته وتصوراته. ومن ثم اتجهت — فى فترة من فتراتها — إلىعبادة الأب وتقديسه بمختلف صور العبادة والتقديس .

والإنسان العاجز إزاء قوى الطبيعة . . إزاء البرق والرعد والمطر والعواصف والسيول .. يحس فى هذه الطبيعة بالهول .. ويحس إزاءها بالضآلة . ويحاول — فى طفولته — أن يترضاها ، لأنه يتصور لها نفسا ، ويتخيل لها مشاعر ، تغضب وتعطف ، وتقسو وترق . فيستعطفها لترحمه ولا تناله بالأذى .

وقد كانت البشرية الأولى — فى بعض فترات انحرافها — تتعبد الطبيعة بهذا الدافع ، وتقدم لها القرابين ! وتتصور إلها للبرق وإلها للرعد وإلها للمطر وإلها للريح وإلها للنار . . ثم تنصب لكل إله من هؤلاء معبداً تحاول فيه أن تتقرب إليه وترضيه !

وإذ كان الرمز أحد مواهب البشرية وخصائصها ، وهو الذى كوّن لها اللغة بما تشتمل عليه من رموز واصطلاحات ، فالنقلة من عبادة الوالد وعبادة الطبيعة ، إلى عبادة الطوطم وعبادة الوثن نقلة قريبة فى نفس الإنسان !

وقد كانت هذه كلها انحرافات عن العبادة الحقيقية ، مارستها البشرية فى مختلف مراحل ضلالها . . وإن كانت فى وسط ذلك التيه — بين الحين والحين — قد فاءت إلى عبادة الله الواحد على أيدى الرسل والرسالات .

والذى يهمنا هنا — من الوجهة النفسية — أن النفس البشرية — ضالةً أو مهتديةً — تحس إحساساً فطريا بالعجز إزاء قوة أكبر منها . . ويكون هذا العجز لديها عنصراً من عناصر « الدين » .

* * *

ويحس الإنسان — غير العجز — بالرهبة إزاء روعة الكون . .

وتأخذه هذه الرهبة فيبحث عن الخالق !

إن الكون هائل رائع واسع فسيح الأبعاد . .

ولهذا كله وقعه فى الحس البشرى . . لا يمكن أن يهرب منه ولو أراد الهروب !

إنها روعة تبدهه فى كل اتجاه . . أياً كان الاتجاه . . وتبدهه فى كل مستوى وفى كل نطاق .

السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم . . تلك الأجرام الهائلة المعلقة في الفضاء بغير عمد . .

وتوالى الليل والنهار والضوء والظلام . .

ودورة القمر من الهلال البازغ فى الأفق صغيراً ضئيلا كالخيط المنير . . إلى البدر الكامل . . ثم يعود أدراجه حتى يصير كالعرجون القديم .

والرعد والبرق والصواعق والمطر والسحاب . .

والأرض وما عليها من جبال رواسٍ ، ووديان وأنهار . .

والكائنات التى لاعدد لها ولاحصر على اليابسة وفى جوف الماء وفى وسط السماء ، كل منها يختلف عن الآخرين . .

والدقة المعجزة فى كل الخلق . .

فى انتظام الفلك فى دورته . . لايختل قيد شعرة فى الفضاء الرهيب . .

فى الشطأة الصغيرة النابتة من الأرض تفلق الطين لتبرز إلى النور . .

فى الطائر الصغير الناقف من البيضة يتحرك ويسقسق ويتناول من فم أمه الحب . .

فى الريشة الدقيقة الزاهية الألوان الدقيقة التركيب . .

فى كل شئ تقع عليه العين أو يدركه الحس . .

وأياً كان مستوى الإنسان من العلم والثقافة والمدنية والرقى . . فالكون يوقِّع على حسه توقيعات شتى تناسب مداركه ومعلوماته . . وفى كل حالة يروعه ويهزه من الأعماق . .

يروعه فيبحث عن الخالق !

هكذا بالفطرة . .

إنه يدرك من تجاربه أويدرك بالبديهة أن كل شئ له صانع. ومن ثم يبحث عن صانع الكون الأعظم الرائع الفسيح .

وقد يهتدى فى بحثه وقد يضل . .

قد يهتدى إلى أن الله هو الصانع . . وقد يضل فيعبد الكون ذاته بدلا من أن يعبد الله . .

ولكنه فى كلتا حالتيه يؤخذ بروعة الكون ، لأن فى فطرته أن يؤخذ بالجمال والروعة والجلال .

وفى كلتا حالتيه تكون هذه الروعة لديه عنصراً من عناصر الدين .

* * *

ويروعه الموت . .

فهو بالنسبة إليه حدث ضخم هائل مروّع . .

إن الطفل — لشدة أُلفته للحياة ، ورغبته فيها ، وتشبثه بها — يحسب أن الحياة هى القانون الطبيعى للوجود من حوله ، ويتصور أنها الأمر الدائم للأحياء . . بل إنه لفرط حيويته وتشبثه بالحياة ليضفى الحياة حتى على الجوامد المحيطة به ، فيتصورها حية تحس وتتحرك كالأحياء .

ثم يفجؤه الموت . . يراه يقع أمامه . . فيرتاع .

هذا الكائن الذى كان حياً أمامه يأكل ويشرب ، وينمو ويتحرك ، ويتعاطف معه ويستجيب . . هذا الطائر أو الحيوان الأليف . . أوالإنسان . . إنه — فى لحظة — يقع أمامه ميتاً لا حراك به . . ساكنا لا ينطق ولا يقدر على شئ . . ولا يتعاطف ولا يستجيب .

وتصيبه هزة عنيفة تهزه من أعماقه . .

ما معنى هذا ؟ مامعنى « الموت » ؟ مامعنى الفناء ؟

والوجود إذن . . هذا الذى كان من قبل بديهية لا تحتاج إلى سؤال . . مامعناه ؟ ماحدوده ؟ ومن الذى يرسم هذه الحدود ؟

هنا نافذة إلى الله . . !

نافذة إلى القدرة التى تخلق وتمنح الحياة . . ثم تأخذ الحياة وتردها إلى العدم الذى لا وجود له .

وقد يهتدى الإنسان فى هزته تلك إلى الله . . وقد يضل فيحسب أن الطبيعة أو الدهر أو ماشابهها هى التى تسلب الكائن الحياة . . أو يتصور الموت ذاته إلهاً فى مقابل إله الحياة !

ولكنه فى كلتا حالتيه يروعه الموت . . ويقوده إلى الدين .

* * *

وتروعه « الأحداث » . . أى « حدوث » الأشياء . .

كيف تحدث ؟ بأى قوة عجيبة قادرة منشئة مبدعة ؟

الميلاد والموت .. الصحةوالمرض .. القوة والضعف .. الرزق والمكانة .. الذهاب والمجىء . . وشتى الأحداث التى تصيب الإنسان فى حياته أو يراها تقع أمام ناظريه . .

من الذى يحدثها ؟ وكيف يحدثها ؟

وهنا كذلك تنفتح نافذة إلى الله . . إلى القدرة القادرة التى تُحدث الأشياء . القدرة التى تقول للشىء كن ، فيكون .

ولقد يهتدى إلى الخالق الحق . . أو يتصور آلهة شتى تدبر الكون وتحدث الأحداث .

ولـكنه فى كلتا الحالتين يؤخذ « بحدوث » الأشياء . . ويقوده ذلك إلى الدين .

* * *

تلك كلها عوامل تفتح فى القلب البشرى نوافذ إلى الخالق المدبر المبدع القدير . وتوقظ العقيدة الـكامنة فى صميم الفطرة . . توقظها ولـكنها لاتنشئها إنشاء من لا شىء !

إن الـكون الخارجى لا يُحدث فى النفس شيئاً لا يكون موجوداً فيها من قبل !

الأصوات التى تحدث فى الـكون ليست هى التى تنشىء القدرة على السمع ! فهى موجودة سواء سمعها الإنسان أم لم يسمعها . . وهى موجودة ومع ذلك لا تسمعها الـكائنات غير ذوات الآذان !

والأضواء التى تحدث فى الـكون ليست هى التى تنشىء القدرة على الإبصار ! فهى موجودة سواء رآها الإنسان أم لم يرها . . وهى موجودة وإن كانت لا تراها الـكائنات التى ليس لها عيون !

وكذلك بقية الأشياء . .

ولـكن حين توجد الحاسة فهى تستطيع أن تميز الأصوات والأضواء والأشياء ، وتتأثر بها ، ثم تتـكيف بهذه التأثرات تـكيّفات شتى ، تناسب فطرتها واستعداداتها .

فالحيوان يرى ويسمع . . والإنسان يرى ويسمع .. ثم يتأثر كل منهما بالشىء ذاته تأثراً خاصاً ، وينتج عنه فى حياة كل منهما أثر مختلف .

وكذلك الأمر فى فطرة الدين . .

إن التوقيعات الكونية على الحس البشرى توقظ الفطرة وتوجهها إلى الخالق . . ولكنها لا تنشئ هذا التوجّه ابتداء . . فهو من صميم الفطرة . . منذ لحظة الميلاد : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا ! » صدق الله العظيم .

والقاعدة العامة فى كيان الحياة كلها أن الخارج لا ينشئ شيئاً ، مالم يكن الاستعداد له موجوداً فى الداخل من قبل !

وهذا التوجّه موجود فى داخل النفس . وإنما ينتظر — كالقدرة على النطق — أن توقظه من الخارج شتى المؤثرات .

والطفل ، منذ يأخذ فى الإدراك ، يأخذ فى هذا التوجه .

يأخذ يسأل سؤالا ملحا عن عشرات وعشرات من الأمور .

من الذى « عمل » السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم ؟

من الذى يعمل النور والظلام ؟ والبرق والرعد والمطر والسحاب ؟

كيف ماتت القطة العزيزة أو الكلب أو الأرنب أو العصفور ؟

وما معنى الموت ؟ ولماذا تموت الأشياء ؟

ما اتساع الكون ؟ ما آخر مداه ؟

متى أكبر ؟

كيف جئت إلى هذا العالم ؟ ومن الذى جاء بى ؟

ثم يأخذ الطفل فى النضج . . وتزداد معارفه . . ويزداد بحثه فى الكون والحياة والأحياء .

وفى كل مرحلة يتكوّن فى نفسه تصوّر جديد من تصورات الدين .

* * *

والكبت . . وعقدة أوديب . . وكل هذه الأساطير التى ابتدعها فرويد بلا دليل علمى . . لا علاقة لها ألبتة بفطرة الدين . فالدين لا ينشأ من الكبت ، ولا صلة له بالجنس أو العشق المزعوم .

وإنما هو شىء من صميم الفطرة ، ينمو معها كلما نمت . ينمو نمواً فطرياً « طبيعياً » دون تدخل من أحد . وإنما التدخل الخارجى ينظمه ويوجهه الوجهة الصالحة ، ويقيمه على أساسه الصحيح .

والمنع أو الكبت ليس هو الذى ينشئ الدين فى النفوس . وإنما الأجدر أن يكون الدين هو الذى يساعد على نمو « الحواجز » التى تنظم انطلاق الطاقة الحيوية وتحدد لها مجالها النظيف .

فالدين تتبعه حتما وتلازمه « قيم » معينة . .

يتبعه قيام حواجز فى النفس تضبط السلوك والمشاعر ، وتقول للإنسان هذا جائز وذاك أمر لا يجوز .

وارتباط الدين بهذه الحواجز قديم قدم البشرية . .

فإحساس الإنسان الفطرى بضآلته إزاء القوة الخالقة ، وإحساسه بالروعة والجلال ، وإحساسه بأنه مأخوذ بمظاهر القدرة المختلفة ، هو الذى يجعله يخرّ ساجدا يتعبد . .

ثم يحس — إحساسافطريا — بغير ضغطخارجى — أنه ينبغى له أن يلتزم بحركات معينة وأفعال معينة وسلوك معين إزاء هذه القوة التى يتعبدها ، لكى

ينال رضاها ويتقى غضبها . وهو يلمس فى حسه دائماً مظاهر هذا الغضب وهذا الرضى . . على نحو من الأنحاء .

والخوف والرجاء . . أكبر خطين متقابلين فى النفس البشرية . . هما اللذان ينظمان هذا الالتزام إزاء القوة الخالقة ويجعلانه دستوراً مفصلا من المشاعر والسلوك والأعمال والأفكار والطقوس والشعائر . .

ومع هذا الالتزام تنشأ « القيم » المختلفة . . أو تتبلور .

والقيم معناها [كما سنبين بالتفصيل فى الفصل القادم] أن هناك حواجز تحجز الطاقة الحيوية لتضبط منطلقاتها ، وترفعها إلى أفق أعلى .

ومن ثم يرتبط الدين برغبة الالتزام الفطرية فى النفس البشرية[1] ، ثم بالقيم والضوابط ، ارتباطا متسلسلا ، طبيعيا ، فطريا ، لا ضغط فيه من الخارج ولا إكراه .

وإنما الديانات السماوية تنظم هذا كله وتوجهه الوجهة الصحيحة .

تنظم التوجّه المبهم إلى القدرة الخالقة ، فتجعله توجّهاً واعيا صريحا خالصا إلى الله .

وتنظم الالتزام ، فتجعله التزاما بعبادات وشعائر محددة يعلم الله حكمتها فيفرضها على الناس .

وتنظم القيم ، فتجعلها قيما عليا راشدة بريئة من الميل والهوى والنقص والانحراف .

والذى تفرضه الديانات السماوية وتلزم الناس به ليس هو الدين .

---

(١) انظر فصل « الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية » .

ولا العقيدة . ولا التزامات العقيدة . ولا القيم المرتبطة بالعقيدة . وإنما هو النهج الصحيح فى كل هذه الأمور .

وإذا لم يُفرض هذا النهج ، فسيكون هناك دين وعقيدة وقيم والتزامات . ولكنها تكون كلها عرضة للانحراف ، كما ينحرف كل شىء فى الفطرة البشرية لا يتلقى توجيهه الصحيح .

والنفوس المنحرفة تنفر من قيود الدين السماوى والتزاماته ، لا لأن الدين ليس فطرة ، أو أن الالتزام ليس فطرة ، ولكن لأن انحرافات هذه النفوس تجعلها معوجّة ، فلذلك تحس أن «الاعتدال» و « الاستواء » و « الاستقامة» الموجودة فى دين الله تضغطها وترهق كيانها الذى لا يصبر على الاستواء !

* * *

والملحدون فى الجاهلية الحديثة فى الغرب يتمردون على الله لأسباب محلية فى الكنيسة الأوربية نفرت الناس من الدين !

فقد تولت الكنيسة — بادىء ذى بدء — وضع صورة من عندها للعقيدة المسيحية المنزلة ، لم تكن خالية من شوائب الوثنية المحيطة بها ، ولا أساطير الأمم المجاورة لمنبت العقيدة الأصيلة . وقد نشأ ذلك من أن أول داعية للمسيحية لم يكن هو ذاته رأى المسيح ولا سمع تعاليمه مباشرة ، وإنما هو أخذها بالسماع ممن تداولوها خلال قرن كامل بعد السيد المسيح ، دون كتاب مدون ، وفى ظل العسف والاضطهاد الرومانيين اللذين كانا يمنعان المؤمنين الأوائل بالمسيحية من الالتقاء والتدارس فيما لديهم من أمور العقيدة وتعاليمها .

ثم نشرت الكنيسة الرهبانية — بعد دخول الإمبراطورية الرومانية

فى المسيحية — بقصد مقاومة الترف الرومانى الوثنى الفاجر والانحلال الخلقى الذريع . ولكنها اشتطت فى هذه الرهبانية إلى درجة تعطل دفعة الحياة وتقاوم الفطرة البشرية ودوافعها الحية ، وتحولها إلى سلبية هزيلة لا تنتج ولا تعمر ولا تتقدم ، فضلا عما تحمله من كبت مرهق للأعصاب .

ثم إنها هى ذاتها لم تمتثل لهذه الرهبانية التى فرضتها على الناس ! فسرعان ما اكتشف الناس أن رجال الدين — الذين يزجرون الناس وينهرونهم عن كل متاع أرضى ، ولو كان حلالا طيبا — يغرقون هم فى ألوان من المتاع الفاجر الدنس الذى تأباه نفوس الناس العاديين فضلا عن رجال الدين المتنطسين ! وكانت الأديرة والصوامع مباءات للفاحشة المنكرة التى يأباها الحس السليم !

ثم جعلت الكنيسة من دينها هزواً ولعبا حين أخذت تبيع صكوك الغفران للناس ، وتجعلها تجارة فاسقة ، تثرى هى من ورائها ، بينما تؤدى إلى إفلاس العقيدة فى النفوس !

ثم لم تكتف الكنيسة بكل ذلك ، بل فرضت على الناس سلطانا بشعا يطاردهم فى يقظتهم ومنامهم ، يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، ويفرض عليهم الإتاوات والعشور ، والخدمة المجانية التى تشبه السخرة فى إقطاعيات الكنيسة الشاسعة ، ويفرض عليهم فوق ذلك كله أساطير الكنيسة باسم كلمة السماء !

لقد كانت الطامة الكبرى — بعد كل هذا الفساد والانحراف فى التصور العقيدى والسلوك العملى — أن الكنيسة فرضت نظريات « علمية » معينة ، عن شكل الأرض وطبيعة الكون وعمر الإنسان .. الخ قالت عنها إنها مقدسة لأنها كلمة السماء ، من خرج عليها فهو كافر مستحق للحرمان .

فلما أثبت العلم النظرى والتجريبى فساد هذه النظريات ، وأعلن العلماء فسادها ، قامت قيامة الكنيسة ، التى فزعت من نور العلم ، ومن ضياع الجهل الذى تستعبد الناس عن طريقه ، فهى حريصة على بقائه واستمراره . . قامت قيامة الكنيسة تحرق العلماء وتعذبهم وتقتلهم ، لأنهم — مثلا — قالوا بكروية الأرض ، أو بأنها ليست مركز الكون . .

ولقى علماء مثل جاليليو وكوپرنيكوس وچوردانو برونو من التعذيب الوحشى البشع على أيدى رجال الدين ما قطع فى نفوس الناس ومشاعرهم كل مودة للدين ورجال الدين ، وأنشأ بدلا منها فى نفوسهم بغضا بشعا لا يتعقل ولا يتلبث وهو يلقى عن كاهله الدين وكل ما يتعلق به من قيم والتزامات وعقائد وتعاليم .

فلم يكن الناس — فى نفرتهم هذه — فى حالة نفسية تسمح بالبحث والتأنى ، لفرز الحق من الباطل ، وإلقاء الباطل واتباع الحق . . وإنما كانوا كالملسوع الذى يصيح هاربا من كل لمسة ولو كانت لمسة الدواء !

وبسبب من ذلك التاريخ الفاسد المنحرف كله قامت الحضارة الغربية الحديثة على أساس معاد للدين ، نافر منه ، منسلخ من كل ما يتصل به من عقيدة أو تصور أو سلوك أو شعور أو فكر . . وانتشرت العدوى مع الحضارة الغالبة حيثما وطئت قدماها ، فأصبح النفور من الدين فى هذا العصر الحديث كأنه « ظاهرة » بشرية ! وهو لا يزيد على أن يكون مرضا أصاب جيلا من البشرية أو عدة أجيال !

والبشرية اليوم فى طريقها للعودة إلى الله !

فى طريقها أن تعود إلى فطرتها ، بعد هذه الجولة التائهة فى شعاب الجاهلية

المنحرفة . . التى لم تجد فيها الأمن والراحة . . بل وجدت من الشقاء النفسى والفكرى والروحى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى ما لم تجد مثله فى تاريخها الطويل . .

* * *

والدين الذى فرضه الله يلتقى بالفطرة التقاء كاملا . . ولكنه يلتقى بها على استوائها ، فى صورتها الصحيحة التى ينبغى أن تكون عليها . . ثم هو يقوّمها من انحرافها الذى تتعرض له فى أثناء نموها وتطورها .

وفى الفصول السابقة بينا خطوط النفس البشرية ومكوناتها وطبيعة فطرتها .

فهنا نبين كيف يلتقى الدين الذى فرضه الله — الإسلام[1] — بهذه الفطرة ويقوّمها :

بادئ ذى بدء يوقع القرآن على الحس البشرى ، على ذات الأوتار التى يتجه بها هذا الحس فطريا إلى العقيدة . .

فإذا كان الإحساس بقوة الخالق المطلقة ، والإحساس بروعة الكون ، والإحساس بالموت والحياة ، والإحساس بحدوث الأشياء ، هى الأوتار الفطرية — الظاهرة — التى توجه الإنسان إلى العقيدة ، فالقرآن يوقظ هذه الإحساسات وينبهها ، لكى لا تتبلد بحكم الإلف والعادة اللذين يبلدان الحس بهذه الأمور .

وقد تحدثت فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » عن هذه الظاهرة فى القرآن فى فصل « تربية الروح » ، بتفصيل لا أملك هنا إعادته ، فهو ألصق بموضوع التربية منه بدراسة النفس الإنسانية . ويكفى هنا أن نثبت هذه الحقيقة ، ثم نأتى بنماذج قليلة لهذه التوقيعات المتعددة فى القرآن :

---

(١) قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » . سورة آل عمران [١٩] .

« الروح . . تلك الطاقة المجهولة التي لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها . . هي وسيلتنا للاتصال بالله .

« وهي مهتدية إلى الله بفطرتها . إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » . ومن ثم فهي بذاتها تهتدي إلى خالقها ، وتتصل به على طريقتها . تهتدي إليه كما يهتدي كل شيء من خلق الله ، بفطرته ، دون كد ولا تعب ولا جهد في الاهتداء « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . . ومع ذلك فالإنسان يضل . . يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض . . يضل فلا يهتدي إلى الله ، ولا يصل بروحه إليه ، ولا يستمد منه ، ولا يلجأ إلى حماه .

« على أنه حتى حين يضل ، حين تتغبش روحه فلا تستطيع أن تشف ، حين يغشيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور ، حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة — برغم ضلالها — تتجه إلى خالقها ، كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء ، لا تراه كله ، ولكنها لا تعمى عنه . فيعبد الناس الله ويشركون به غيره من الكائنات « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . « ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ليقولن الله . قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله » . أو يعبدون قوة — ما — يزعمون أنها الله . ولكنهم — فيما عدا الشذوذ الذي لا يحسب له حساب — لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوي مسيطر مريد .

« ومهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها . مهمتها أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله . . الاهتداء الذي هو كامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض .

« مهمتها أن تطلق الروح من إسارها .. لكى ترى الله .

* * *

« طريقة الإسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله ، فى كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

» . . . .

« ويستخدم لذلك وسائل شتى .

« فهو من ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة فى صفحة الكون ، لتحس دائماً بوجود الله ، وقدرته المطلقة التى ليست لها حدود .

« ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه . فهو مع الإنسان أينما كان ، وهو مطلع على فؤاده ، عالم بكل أسراره ، وبما هو أخفى من الأسرار .

« ومن ناحية يثير فى القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ، ومراقبته فى كل عمل وكل فكرة وكل شعور .

« ومن ناحية يثير فيه الحب لله ، والتطلع الدائم إلى رضاه .

« ومن ناحية يبعث فيه الطمأنينة إلى الله فى السراء والضراء ، وتقبل قدره بالتسليم والرضاء . والهدف فى النهاية واحد : هو وصل القلب البشرى بالله »[1] .

* * *

وهذه بعض التوقيعات على وتر الإحساس بقدرة الله المطلقة فى شتى مجالاتها :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » ص ٤٣ ـ ٤٨ .

والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون» . . (١)

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لاتأخذه سنة ولانوم ، له مافى السماوات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم »(٢) .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولارطب ، ولايابس ، إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم إلى أجل مسمى . ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون »(٣) .

وهذه بعض التوقيعات على وتر الإحساس بروعة الكون :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(٤) .

---

(١) سورة النحل (٧٨ — ٨١) .
(٢) سورة البقرة [٢٥٥] .
(٣) سورة الأنعام [٥٩ — ٦٠] .
(٤) سورة البقرة [١٦٤] .

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذّكرون . وهو الذى سخر البحر لتأ كلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكّرون ؟»[1] .

وتلك بعض التوقيعات على وتر الإحساس بالحياة والموت .

« يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »[2] .

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقرّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج »[3] .

«وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت»[4] .

---

(١) سورة النحل [١٠ — ١٧] . (٢) سورة الروم [١٩ — ٢٠] .
(٣) سورة الحج [٥] . (٤) سورة لقمان [٣٤] .

«الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى »[1] .

« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »[2] .

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »[3] .

« قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم »[4] .

وتلك توقيعات على وتر الإحساس بحدوث الأشياء :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شئ قدير »[5] .

« سبحانه ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن : فيكون »[6] .

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[7] .

« والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون »[8] .

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[9] .

---

(١) سورة الزمر [٤٢] .
(٢) سورة الملك [٢] .
(٣) سورة النساء [٧٨] .
(٤) سورة آل عمران [١٥٤] .
(٥) سورة آل عمران [٢٦] .
(٦) سورة مريم [٣٥]
(٧) سورة التوبة [٥١]
(٨) سورة البقره [٢٤٥]
(٩) سورة النمل [٦٢ ـ ٦٤]

وهكذا . . من التوجيهات التى يفيض بها كتاب الله الكريم . .

ومن هذه التوقيعات كلها ينتهى إلى توجيه القلب البشرى إلى الله الحق ، الخالق المدبر المنشئ المريد . .

* * *

ثم يخطو الإسلام مع الفطرة البشرية خطوة أخرى ، فيلتقى بالطبيعة المزدوجة والكيان الموحد فى الإنسان .

يلتقى بهذا الكيان الموحد المشتمل على طبيعة مزدوجة ، فيرسم له منهجا مزدوج الطبيعة موحد الاتجاه .

فهناك جسم وروح . ونشاط للجسم ونشاط للروح . ولكنهما فى النهاية يلتقيان .

وهناك دنيا وآخرة . وعمل للدنيا وعمل للآخرة . ولكنهما طريق واحد لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل ، مادام كلاهما موجها إلى الله.

وحيث تضل النظم الأخرى كلها ، فتفصل بين نشاط الجسم ونشاط الروح ، وتجعل لكل منهما دستورا ومنهجا مختلفا عن الآخر . . وتفصل بين الدنيا والآخرة ، فتجعل اتجاه كل منهما مخالفا لاتجاه الأخرى . . فإن الإسلام يلتقى مع الفطرة على طبيعتها ، فلا يفصل بين أجزاء الكيان المترابط ، ويراعى — فى الوقت ذاته — ما فيه من ازدواج .

فالإنسان يأكل ويشرب . . ويقوم بنشاطه الجنسى . . الخ ، ليرضى جانب الجسد من كيانه . . ولكن الإسلام يوجهه ألا يقضى ضروراته بجسده وحده ، وإنما بالمزاج المترابط من الجسم والروح [وإن برز فيها الجانب الجسدى] فيجعل الأكل عبادة والجنس عبادة ، إذ يربطهما باسم الله ، وبالقيم المستمدة

من التوجه إلى الله . قيم النظافة والطهارة والترفع عن مستوى الحيوان. فلا يصبح شيء من هـذا النشاط ضرورة غليظة يقضيها الإنسان بمبعدة من إشراقة الروح التى تلطفها وتمنحها معناها الإنسانى اللطيف الشفيف.

والإنسان يتعبد ويرتفع ويرفرف . . ليرضى جانب الروح من كيانه . . ولـكن الإسلام يوجهه أن يقضى نشاطه الروحى بكيانه المجتمع المترابط . . فيرسم له عبادات تشمل كيانه كله [وإن برز فيها الجانب الروحى] كالصلاة والصيام والزكاة والحج . . فلا ينعزل بروحه — حتى فى عبادته — عن واقعه الجسدى ، ولا يجعل العبادة رهبانية وعزلة عن الحياة !

ويعيش الإنسان حياته ، ويعيش للآخرة . . ولـكن الإسلام يوجهه أنّهما طريق واحد وطريقة واحدة . . ليست هناك أعمال خاصة بالدنيا ينعزل فيها الإنسان عن الآخرة ، حتى الطعام والشراب والجنس والقتال والبروز والملك . . الخ . وليست هناك أعمال خاصة بالآخرة ينعزل فيها الإنسان عن الدنيا ، حتى العبادة والتهجد . وإنما العمل الواحد — وكل عمل — هو للدنيا والآخرة فى آن واحد : يأكل بنظافة واعتدال وطهارة وباسم الله ، فيأخذ نصيبه من الدنيا ، وهو فى الوقت ذاته متوجه بهذه « المعانى » كلها للآخرة فى ذات العمل وفى ذات اللحظة . ويمارس نشاطه الجنسى بنظافة وطهارة ، وباسم الله ، فيأخذ متعته الدنيوية وهو فى الوقت ذاته متوجه إلى الآخرة بما التزم فى هذا النشاط من طهارة . ويسعى إلى الملك أو البروز أو القتال . . بنظافة واعتدال وطهارة وباسم الله وفى سبيل الله . . فيمارس نشاطه الدنيوى كله ، وهو فى الوقت ذاته متوجه إلى الآخرة عامل لها شاعر بها ملء كيانه . . فتلتقى الدنيا والآخرة فى كيانه المزدوج الطبيعة الموحد الاتجاه .

يقول الله في كتابه: « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »[1] .

ويقول : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[2] .

فيجمع الدنيا والآخرة فى الآية الواحدة والعمل الواحد .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ، فله بذلك أجر »[3] .

فيجعل طريق العمل فى الدنيا هو ذاته الطريق إلى الآخرة .. العمل إلى آخر لحظة من الحياة الدنيا . . حتى والقيامة تقوم[4] !

* * *

ثم يخطو الإسلام مع الفطرة خطوة أخرى ، فيلتقى بالخطوط المتقابلة فى النفس البشرية .

وقد تحدثت بالتفصيل فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » كذلك عن طريقة معالجة الإسلام للخطوط المتقابلة فى النفس البشرية بما لا أملك إعادته فى هذا الكتاب . . فيكفى أن نسجل هنا هذه الحقيقة مع إشارة سريعة إلى طريقة الإسلام فى معالجة تلك الخطوط المتقابلة .

« ومزية الإسلام — فى مسايرته للفطرة — أنه لا يترك وترا من أوتار

---

(١) سورة القصص [٧٧] . (٢) سورة الأعراف [٣٢] .
(٣) ذكره على بن عبد العزيز فى المنتخب عن أنس رضى الله عنه .
(٤) انظر الكلام عن هذا الحديث العجيب فى كتاب « قبسات من الرسول » فصل : « فليغرسها ! » .

النفس لا يوقع عليه . ثم هو لا يوقع على وتر أكثر من طاقته ، أو يبخسه قدره فلا يوقع عليه ما يستحق من نغمات ! وبذلك يشمل الكيان الإنسانى كله ، وفوق ذلك يحدث التوازن فى داخل النفس بشدها إلى أوتادها جميعاً فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك ، والتوقيع على أوتارها جميعاً فلا تنطق من جانب وتظل فى الجانب الآخر صماء ! »[1] .

يوقع الإسلام على خطى الخوف والرجاء — أكبر الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية — فينفى عنهما أولا كل خوف خاطىء وكل رجاء منحرف ، ثم يوقع عليهما نغمات الخوف والرجاء الصالحين لكيان الإنسان : الخوف من الله ومما يخوّف به الله . . والرجاء فى الله الذى يملك وحده كل شىء فى هذا الوجود .

وفى أثناء هذه التوقيعات يكون قد بنى الكيان الصالح للنفس البشرية !

فهو إذ ينفى عنها الخوف الخاطىء من قوى الأرض — البشرية أو المادية أو المعنوية — والرجاء الخاطىء فى قوى الأرض الزائلة أو متاعها الزائل أو قيمها الزائفة . . يكون قد أعطاها قوة ذاتية عظمى ، قوة تتغلب بها على كل قوى الأرض ومغريات الأرض . .

وإذ يوقع عليها الخوف الصائب من الله ومن غضب الله وعذابه ، والرجاء الصائب فى الله ومرضاته وثوابه ، يكون قد ربطها بالعروة الوثقى ومنع عنها الميل والانحراف . .

وفى الوقت ذاته يكون قد رسم لها قيمها وأهدافها وخطط لها نشاطها

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » ص ١٥٥ .

السوى ، وهو يفصّل لها ما يحبه الله وما يكرهه ، وما يرضى عنه وما يأباه من الأقوال والأفعال والمشاعر والأفكار . .

ويوقع على خطّى الحب والكره ، فينفى عنهما كل حب باطل وكل كره منحرف ، ويوقع عليهما نغمات الحب والكره الصالحين لكيان الإنسان .

فكل حب للشر أو الطغيان أو الفاحشة أو الانحراف فهو حب باطل ينبغى أن تتطهر منه النفس . . وكل كره للخير وللناس وللأحياء ولما أمر الله به من أمر فهو كره باطل لا ينبغى أن تشتمل عليه نفس سوية . والحب الصحيح ينبغى أن يكون حباً لله وللكون وللحياة وللأحياء وللإنسانية وللقيم الفاضلة التى رسمها الله . والكره الصحيح ينبغى أن يكون للشر والطغيان والانحراف .

وهو إذ يوقع عليهما أنغامهما الصحيحة يكون كذلك قد بنى — من جانب آخر — الكيان الصالح للنفس البشرية !

فحين تتوجه طاقة الحب والكره — الفطرية — إلى مجالها الصحيح تكون النفس قد اعتدلت ، ويكون سلوكها العملى والشعورى قد استقام على النهج ، وأصبحت النفس خيرّة كما ينبغى للإنسان الكريم .

ويستغل الطاقة الحسية والطاقة المعنوية فيعطى كلاً منهما غذاءه الحق . يعطى الطاقة الحسية مجالها الطبيعى من طعام وشراب وجنس . . الخ ويعطى الطاقة المعنوية مجالها من عقيدة وفنون وعلم وتفكير . ثم يراعى ما بين الطاقتين من اتصال فطرى ، فيربط ما بين النشاط الحسى والنشاط المعنوى ، ويوحد بينهما فى الاتجاه .

ويستغل الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب . . فيعطى الكون

المادى حسابه الكامل ، وينمى العقيدة فى الله — الذى يؤمن به الإنسان بالغيب — تنمية كاملة تجعلها تسيطر على كل نشاط الإنسان .

ويستغل طاقة الواقع وطاقة الخيال . . فيطلق النشاط البشرى فى عالم الواقع يعمل وينشئ ويبنى ويعمر ، ويقيم النظم المادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية .. ويطلق الخيال يتخيل الكمال المطلق فى الله ، ويتملى الجمال ، ومشاهد اليوم الآخر ، والثواب والعقاب . . ويربط ذلك كله ربطاً محكماً كما هو مرتبط فى كيان الإنسان . فينطلق الإنسان فى نشاطه الأرضى المعمّر ، وفى حسه من الجانب الآخر « ما ينبغى » أن يكون عليه هذا النشاط ، فيتكامل بذلك نشاطه ، وتكون هذه هى الخلافة الحقة عن الله فى الأرض . . .

ويستغل الالتزام والتحرر . . فيفرض على الإنسان — من جانب الالتزام — ما فيه صلاح حياته ، وما لابد من فرضه لتستقيم الحياة فى مستواها الأدنى ، ويترك لجانب التحرر — أو التطوع — أن يعمل حراً فيما يزيد على الحد الأدنى المفروض ، وما يرفع الحياة إلى مستواها الأعلى المطلوب [«ومن تطوع خيراً فهو خير له[1] »] .

ويستغل السلبية والإيجابية . . فينشئ سلبية صحيحة إزاء الله ، الذى يملك — وحده — كل أمر فى هذا الوجود ، وإيجابية صحيحة إزاء كل قوى الكون [« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه[2] »] ، ويجعل هذه الإيجابية الكاملة إزاء الكون وقواه ، مستمدة من السلبية الكاملة إزاء الله .

---

(١) سورة البقرة [١٨٤] . (٢) سورة الجاثية [١٢] .

ويستغل النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، فيتعامل تعاملا مباشرا مع « الفرد » الإنسانى : يخاطبه ، ويربط بينه وبين الله رباطاً ذاتياً فردياً محكماً ، ويشعره كأنما هو وحده فى الكون والله يرعاه فى فرديته الكاملة تلك ، ثم يتعامل معه على أنه « مجتمع » إنسانى مسئول عن إقامة حكم صالح وحياة رشيدة ،ومسئول عن تقدير القيم والفضائل ومقاومة الشر والطغيان والانحراف. وبذلك يجمع نزعتيه معاً فى هذا الرباط مع الله .

* * *

ثم يخطو الإسلام مع الفطرة الإنسانية خطوة أخرى ، فيعالج الإنسان من حيث هو دوافع وضوابط كل منهما قائم وكل منهما أصيل . .

فهو يعترف بدوافعه الفطرية كلها بل ينميها ويقويها ويجعلها مطاوبة جميعاً . إنه يريد للإنسان أن يأكل ويشرب ، ويأمره بذلك أمراً [« فكلوا واشربوا[1] »] ويأمره أن يقضى ضرورة الجنس [فمن رغب عن سنتى فليس منى[2]] ويبيح له أن يتملك وأن يقاتل وأن يبرز . . كل دوافعه مباحة ونظيفة ومعترف بها ، بل هو مدعو إلى تنميتها وتقويتها .. فهذا هو سبيل الكائن البشرى إلى الخلافة عن الله فى الأرض . . ولن يستطيع أن يبنى ويعمر ، ويمشى فى مناكب الأرض ، ويستغل طاقاتها المذخورة ويتعرف على قوانين الكون وينتفع بها إلا أن يكون قوى الكيان قوى الدوافع مقبلا كل الإقبال على الحياة . .

وفى الوقت ذاته ينمى الضوابط جميعاً ، ويستغل طاقاتها الكاملة ،ويربطها بالعقيدة فى الله . لكى يجعل انطلاق الدوافع الفطرية نظيفاً بما ينبغى للإنسان الذى كرمه الله . ذلك أنه لن يستطيع القيام بالخلافة عن الله فى الأرض

(١) سورة البقرة [٦٠]   (٢) عن أنس رضى الله عنه

إذا انطلقت دوافعه — القوية — بلا ضابط ولا دليل .. إنها عندئذ تصبح قوة مدمرة بدل ماهى قوة منشئة بانية . مدمرة للفرد الذى تتملكه ، وللمجتمع الذى تنطلق فيه .

ولكن الإسلام لا يجور على هذه ولا تلك ، ولا ينمى إحداها على حساب الأخرى .

لا ينمى الدوافع بالصورة التى تجعلها صعبة الضبط عسيرة القياد .. ولا ينمى الضوابط بالصورة التى تجعلها قوة كابتة تغل النشاط الإنسانى عن الانطلاق .

وإنما هو ينميهما معا ، فيضمن قيام كل منهما بمهمتها ، ويضمن كذلك بينهما التوازن والاعتدال .

ومع ذلك كله يراعى الإسلام ما فى الفطرة البشرية من الضعف إزاء الشهوات — رغم وجود الضوابط الفطرية ، ورغم العمل على تقويتها — فيعترف للإنسان بضعفه [« ويريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا (١) »] ويعامله على أساس هذا الضعف ، فيغفر له زلاته مادام لا يصر عليها : [« والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين (٢) »] .

* * *

وأخيرا .. يتمشى الإسلام مع الفطرة البشرية فى كيانها الشامل المترابط ، إذ يجعل دستوره — المفصل فى القرآن وسنة الرسول — شاملا للعقيدة والواقع .

---

(١) سورة النساء [٢٨] .   (٢) سورة آل عمران [١٣٤ — ١٣٦] .

للحياة الفردية بجميع تفصيلاتها والحياة الجماعية فى كل نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية . . كلها تنبع من منبع واحد ، وتتجه وجهة واحدة . . فلا يختص بالحياة الواقعية دستور ، وبالحياة التعبدية دستور . . ولا يختص « بالأحوال الشخصية » قانون وبالأحوال العامة قانون . . وإنما هو دستور واحد يشمل هؤلاء جميعا ، وتصدر عنه التشريعات جميعا ، فلا يتفرق الإنسان مزقا بين واقعه وخياله . . بين فرديته وجماعيته . . بين أخلاقه وسلوكه . . بين دنياه وآخرته . . وإنما يكون شخصا واحدا فى هؤلاء جميعا ، يتعامل مع القوى كلها بكيانه المجتمع المترابط ، ويسلك سلوكه كله بذلك الكيان .

وبذلك يكون الدين من الفطرة . .

ودين الفطرة هو الإسلام . .

القيم العليا

القيم العليا . . كيف تنشأ ؟

ما صلتها بالفطرة البشرية ؟ ما مكانها فى كيان الإنسان ؟

هل هى أصيلة فى الكيان البشرى أم مفروضة عليه من خارج نفسه ؟

وإن كانت أصيلة فكيف تنمو ؟ ولماذا تنمو فى بعض النفوس ولا تنمو فى بعضها الآخر ؟ أو تنمو فى بعضها أكثر مما تنمو فى بعضها الآخر ؟

وما دورها فى حياة الإنسان ؟

هل هى ذات دور أصيل فى حياته ، أم إنها شىء على هامش الحياة . . « للزينة » لا للاستعمال ؟ !

* * *

حين واجه النقاد فرويد بأنه يحقر الإنسان ، ويرسمه فى مستواه الأدنى ، وينفى القيم العليا من حياته . . قال إنه لم يصنع ذلك ! وإنه لم ينف قط وجود القيم العليا فى حياة الإنسان !

وحقا إنه لم ينف وجودها . .

ولكنه اعترف بها اعترافا أسوأ من النفى !

فقد اعترف بها — من ناحية — على أنها شذوذ [وقد مر بنا نص كلامه فى هذا الشأن] وعلى أنها قسوة ! وعلى أنها تتعارض مع النمو « الحر » للطاقة الجنسية ! [التى هى — فى نظره — محور الطاقة الحيوية !] .

واعترف بها — من ناحية أخرى — على أن الوسيلة الوحيدة لتكوينها هى الكبت . ثم أنفق حياته العلمية كلها يقول إن الكبت عملية ضارة مدمرة لكيان الإنسان !

وفى كلا الحالين يراها أمورا مفروضة على كيان الإنسان من الخارج ، وليست أصيلة فى ذلك الكيان !

* * *

ثم أطلق — وهو يشرح كيفية نمو القيم العليا [الدين والضمير والأخلاق والتقاليد . . الخ] — أطلق أسطورته الكريهة المبنية على العشق الجنسى الذى يحسه الأولاد نحو الأم :

ذات يوم فى الماضى السحيق الموغل فى الظلمات ارتكبت البشرية جريمة مروعة :

أحس الأولاد برغبة جنسية نحو أمهم . ولكنهم وجدوا أباهم حائلا دون الوصول إلى هذه الشهوة ، فقرروا أن يقتلوا أباهم ليخلو لهم الطريق . . وبالفعل قتلوه . .

وما إن أتموا فعلتهم الشنيعة حتى أحسوا بالندم على ما قدمت أيديهم . . فأقسموا ليقدسُنّ ذكراه . . فعبدوه . ونشأت بذلك أول عبادة فى الأرض . . عبادة الأب . . [التى تحولت فيما بعد إلى عبادة الطوطم ، وهو حيوان تعبده القبيلة كلها وتعتقد أن دماءه تجرى فى دمائها ، ويحرمون ذبحه إلا فى مناسبات دينية خاصة حيث يحتفل بذبحه ويأكل منه الجميع لتجرى دماؤه فى دمائهم من جديد] !

ثم وجدوا أنهم سيتقاتلون فيما بينهم على أمهم فلا ينالها أحد منهم . . فحرموها عليهم جميعا . . ونشأ بذلك أول تحريم [جنسى] وصارت الأم منذئذ محرمة على الأبناء !

هذا فى البشرية الأولى ..

ولكن هذا الحدث — منذ حدوثه — لم يترك البشرية فى راحة !

« وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها [إحساس الأبناء بالجريمة] وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها والوسائل التى تطبقها ، ولكنها جميعاً تهدف إلى شئ واحد ، وهى رد فعل لنفس الحدث العظيم [قتل الأب] الذى نشأت عنه الحضارة ، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة » ![1]

فالطفل — الذكر — يكرر هذه الجولة على مدار التاريخ !

كل طفل ذكر يولد ، يحس نحو أمه بعشق جنسى . ثم يجد أباه حائلا . . [ولكنه فى هذه المرة لا يقتله لأنه صغير ! فيكتفى بكراهيته !] فيكبت شهوته الجنسية نحو أمه . وتنشأ بذلك عقدة أوديب !

ومن هذا الكبت ينشأ الضمير !

فإن الطفل يتلبس بشخصية والده فى لا شعوره ، ليحل محله — لا شعوريا [ولا واقعيا !] — مع الأم ! فيصنع بنفسه ما يصنعه أبوه به [وبغيره] من المنع والزجر . فيزجر نفسه ويمنعها عن الأشياء التى يقوم أبوه بمنعه عنها . فينشأ هذا الضمير الداخلى الذى يزجر الإنسان ويمنعه . . وبهذه الطريقة تنشأ القيم العليا كلها فى حياة الإنسان . . بما فيها الدين !

* * *

تلك الأسطورة الملونة بلوثة الجنس . . ما دليل فرويد عليها ؟

---

(١) كتاب Totem & Taboo ص ١٤٥ .

وكيف يسمح عالم لنفسه أن يقيم كل تفسيره للحياة الإنسانية . . على أسطورة ؟

ومع ذلك فقد أفلتت منه — دون أن يدرى — وهو يروى هذه الأسطورة البشعة — اعترافات ضمنية خطيرة !

أفلت منه اعتراف بأن الأولاد أحسوا بالندم على قتل أبيهم !

وتلك « قيمة » من القيم الإنسانية .. وجدت فى نفوس الأبناء من تلقاء أنفسهم ، لم يوح بها أحد من الخارج ولم يضغط عليهم أحد للإحساس بها !

فالندم على فعل من الأفعال معناه الإحساس بأنه لم يكن يجوز أن يعمل . معناه إدراك أن هناك ما ينبغى وما لا ينبغى . معناه التمييز بين الأعمال ، وتقدير أن هذا حسن وهذا ردىء .

إنه إذن قيمة خلقية . . !

وأفلت منه ثانيا أن الأبناء قرروا التعاون فيما بينهم — بدل الاقتتال على الأم كما تصنع ثيران البقر مع أمها ، حيث تقتتل حتى يبقى أحدها ، وهو أقواها ، فيفوز وحده بالأم — وحرّموا أمهم عليهم .

وتلك «قيمة» أخرى من القيم الإنسانية .. وجدت تلقائيا فى نفوس الأبناء!

وإذن ، فعلى زعم أن هذه الأسطورة قائمة على أى أساس — وهو زعم لا سند له على الإطلاق — فإن البشرية الأولى قد اهتدت اهتداء تلقائيا إلى «القيم الإنسانية» .. ومعنى ذلك أن القيم جزء أصيل من كيان الإنسان !

ثم . . إذا كانت هذه هى طريقة ميلاد الضمير فى الأولاد الذكور . . فكيف ينمو الضمير فى نفوس الإناث ؟ !

إن الطفلة الأنثى — فى زعم فرويد — تصاب بعقدة إليكترا . . عشق الأب !

إنها تريد أن تأخذ مكان أمها من أبيها ، ولكنها تجد الأم حائلا . . فتكبت هذا العشق [وتكره الأم !] .

نعم ! .. وتتلبس بشخصية الأم لتحل محلها — لاشعوريا ولاواقعيا ! — مع الأب !

ولكن . . الضمير ينبت من التلبس بشخصية الأب الآمر الناهى فى البيت والمجتمع ! والبنت تأخذ شخصية الأم . . فكيف ينشأ الضمير فى نفس الأنثى ؟ . . أم إنها تنشأ بلا ضمير ؟ !

* * *

على هذا النحو من التفكير الأسطورى تُنْشأ نظريات كاملة فى علم النفس ، ويقال عنها إنها نظريات « علمية » مبنية على البحث والدراسة ، وتأخذ دورتها فتدخل فى عقول جيل كامل من البشرية أو جيلين متتابعين ، وتدخل فى كثير من فروع المعرفة وأنواع الفنون !

وما من شك فى أن حقائق جزئية تَرِدُ فى أثناء هذا اللون من التفكير . . ولكنها تضيع فى غمار اللوثة الجنسية العاتية ، وفى موجة الاعتساف الشديد فى التفسير والتصوير .

« فحجز » الدوافع الفطرية هو الذى يساعد على تنمية القيم العليا . . هذه حقيقة .

ولكنها حقيقة على غير النهج الذى انتهجه فرويد ، واختلق فيه ما اختلق من أساطير . .

فالدوافع الفطرية ليست جنسا بحتا كما يزعم فرويد . .

و « الحجز » أو « الضبط » عملية مختلفة عن « الكبت » . .

وأسطورة العشق الجنسي للأم هي مجرد أسطورة لا يقوم عليها دليل .

والتصاق الطفل والطفلة بالأم في فترة الرضاعة وما بعدها التصاق متماثل ، فلا بد له من تفسير واحد ، يسقط من حسابه أسطورة العشق الجنسي الذي يتجه نحو الأم تارة ونحو الأب تارة . . ووضعهما مختلف في الحياة . .

* * *

القيم العليا وثيقة الصلة بالجانب الروحي في الإنسان . . هي الانبثاق الطبيعي لهذا الجانب . . وهي التحقيق الواقعي له في كيان الإنسان . . ومن ثم فهي أصيلة أصيلة في أعماق هذا الكيان .

من أين تأتي أحلام البطولة ؟

وأحلام الكمال ؟

وإحساس الإنسان بالجمال ؟

إن أحلام البطولة تستهوي الطفل الصغير كما تستهوي الإنسان الراشد . وقد كانت تستهوي البشرية في طفولتها وما تزال تستهوي البشرية اليوم ، وإن اختلفت مقاييس البطولة من عمر لعمر ، ومن عصر لعصر . .

وهي مسألة ذات دلالة لا تخفى . .

فالبطل . . حتى في صورته الحسية الغالبة التي قد تستهوي الطفل الصغير والبشرية الطفلة ، صورة القوة الجسدية الفائقة التي لا تُغْلَب ولا تُهزم ، وإنما تنتصر دائماً في كل معركة . . وبأيسر الأسباب .. هذه الصورة ليست حسية بحتة حتى في هذا الوضع . فهي تضيف إلى القوة الجسدية الفائقة صفة

« الشجاعة » . . وهى صفة نفسية لاتلتبس بالصفة الجسدية [فقد توجد إحداهما دون أن توجد الأخرى] وإن كانت تتلبس بها وتقوم عليها . ثم هى فى أغلب الأحيان تضيف إلى صفة الشجاعة « قيما » أخرى . . فالبطل ليس « شجاعا » فحسب ، ولكنه كذلك « نبيل » ، لا يستخدم شجاعته فى سفك الدماء والسرقة والنهب . . ولكن فى إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف ودفع الظلم عن المظلوم ، وكلها قيم « إنسانية » لأنها خاصة بعالم الإنسان لا وجود لها فى عالم الحيوان .

وحقيقة إنه ليست كل أحلام البطولة كذلك . فقد يوجد فيها المجرم سفاك الدماء المعتدى الأثيم . . ويندرج فى سلك البطولة فى عالم الطفل أو فى عالم الكبار سواء . ولكنه انحراف ككل انحراف يصيب البشرية فلا ينفى كيانها الأصيل ولا كيانها السوى . . وإنما يشير فقط إلى موضع الانحراف .

والذى يعنينا على أى حال هو الدلالة المستمدة من أحلام البطولة السوية — وهى موجودة دائماً فى كل عصور البشرية وفى كل مراحل الفرد الإنسانى . .

فما دلالتها ؟

إن أحداً لايفرض الإعجاب بها فى نفس الطفل . وأحداً لايفرض على البشرية الاستهواء لها والتوفر لإنتاجها فى أدبها وأساطيرها ومختلف فنونها . .

ليست مفروضة عليها من الخارج . .

وإنما هى نابعة من أعماق الكيان البشرى . . منبثقة منه انبثاقاً ذاتياً كاملا . . بمجرد التلويح لها من بعيد .

وإذن ففى أعماق الكيان البشرى « رصيد » لأحلام البطولة . . رصيد « للقيم » العليا فى حياة الإنسان .

وينبغي هنا أن نفرق — مؤقتا — بين الحلم والتطبيق الواقعي . .

فلا يصح لنا أن نقول : إن هذه أحلام ، لا رصيد لها من الواقع ، ومن ثم فهي غير ذات دلالة في كيان الإنسان !

هذه النظرة التي قد تسمى نفسها « واقعية »[1] هي نظرة مخطئة من الوجهة النفسية ، فضلا على أنها نظرة مغرضة ! فحين نبحث التركيب النفسي للإنسان لا ينبغي أن نفرق بين طاقة الشعور وطاقة السلوك إلا من حيث اختلافهما في الصورة الخارجية . أي في أن إحداهما طاقة كامنة والأخرى طاقة ظاهرة . وحقيقة إننا — من ناحية أخرى — نقول إن الرصيد الشعوري الذي لا يتحول إلى سلوك واقعي هو رصيد مضيع لا قيمة له في عالم الواقع .. ولكن هذا لا ينفي أنه رصيد موجود في عالم النفس . كل عيبه أنه لا يأخذ مجراه الطبيعي . لا يكتمل نموه . لا يأخذ طريقه إلى التنفيذ . . فيكون مستغرقاً لشِقٍّ من النفس دون سائرها . ومن ثم يكون اختلالا عن الصورة السوية للنفس ، التي تعمل بكيانها المتكامل لا بشق واحد مبتور . . والذي نريد أن نثبته الآن — مؤقتاً — هو وجود هذا الرصيد في النفس ، وأنه أصيل غير مَأْتِيٍّ به من الخارج ، وإنما نابع من الكيان الأصيل .

ثم إن هذه النظرة — الواقعية (!) — هي كما قلنا نظرة مغرضة . .

فأصحابها — سواء في علم النفس أو في عالم الفنون أو في علم الاجتماع — يحسبون على « الإنسان » نواياه السيئة وميوله الشريرة . . حتى ولو ظلت ميولا كامنة لا تأخذ سبيلها إلى التحقيق .

---

(١) انظر فصل « الواقعية في التصور الإسلامي » في كتاب « منهج الفن الإسلامي »

ففرويد يقرر — فى كتاب Totem & Taboo وكتبه الأخرى — أن « الشيطان » هو انعكاس فكرة الشر فى كيان الإنسان !

كذلك . . . !

فما بال « الملَك » ؟!

ما بال صورة الخير الخالص والنظافة الكاملة والرقة الشفيفة والانطلاق من كل حقد أو غل أو طمع أو كيد شرّير ؟

أوليس يقتضى الفرض الذى افترضه فرويد أن يكمل الصورة فيقول إن الملك هو انعكاس فكرة الخير فى كيان الإنسان ؟ أم نستخدم الفرض الواحد حين يكون فى سبيل تلويث صورة الإنسان وتشويهها ، ونرفض استخدامه هو ذاته حين يؤدى — بنفس المنطق — إلى إضفاء النظافة والشفافية على كيان الإنسان ؟!

وفرويد — مرة أخرى — يحسب على الإنسان كل نية « مكبوتة » بسبب عجزها عن الظهور على السطح واتخاذها مجراها العملى فى السلوك . يحسبها عليه عنصرا مكوّناً للنفس مع أنها كامنة لم تظهر . فيحسب على الطفل الذكر — فى زعمه — كراهيته لأبيه مع أن هذه الكراهية تُكبت — كما يقول — بفعل الحب السابق الذى يتوجه به الطفل إلى أبيه [كتاب Totem & Taboo ص ۱۲۹] ، وكذلك كراهية الطفلة الأنثى — فى زعمه — لأمها . ويحسب عليه الرغبة الكامنة فى تحطيم المجتمع [الذى يمثل — فى زعمه — كل القيود المقيِّدة لنشاط الفرد] حتى ولو لم تتخذ — بسبب العجز — أى خطوة فى سبيل التنفيذ العملى ، وبقيت كامنة فى اللاشعور ! ويحسب عليه

الرغبة في تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد [التي تقف حائلا دون النمو « الحر » للطاقة الجنسية] ولو بقيت رغبة كامنة في اللاشعور بسبب العجز عن التنفيذ .

أو ليست تقتضي الاستقامة الفكرية « العلمية » — إذا حسبنا على الإنسان نواياه السيئة وميوله الشريرة وهي كامنة لا تأخذ سبيلها إلى التنفيذ — أن نحسب له نواياه الطيبة وميوله الخيّرة حتى إن كانت — بسبب العجز — لا تأخذ سبيلها إلى التنفيذ ؟ ! أم نستخدم الفكرة حين « تخدمنا » في تلويث صورة الإنسان وتشويهها ، ونرفض استخدامها — هي ذاتها — حين تؤدي — بنفس المنطق — إلى إضفاء النظافة والشفافية على كيان الإنسان ؟ !

وبعض الفنون « الواقعية ! » ترسم الإنسان في صورة سافلة منحطة دنيئة ، أسوأ بكثير حتى من « الواقع » المنحرف الذي يعيش فيه هذا الجيل من البشرية ، بحجة أنه لو خلّيَ بينه وبين هذا الشر كله لفعله ! لأنه مفطور على الدناءة والخسة والانتهازية والطمع والأنانية والبغض والإيذاء . . لو لم تحل دونه القيود المفروضة عليه من الخارج . أفلا تقتضي « الواقعية » كذلك أن نرسم الإنسان في الصورة المقابلة لأنه لو قوينا ضوابطه وأقمنا بنيانه النفسي على أساس متين لفعل كثيراً من ألوان الخير ؟ !

وعلم الاجتماع « التقدمي » يقيم بنيانه كله على أساس أن القوى المحركة لسلوك الإنسان هي قواه الجسدية : البحث عن الطعام . والبحث عن المسكن . والبحث عن الجنس . . وأن « الحق والعدل الأزليين » وغيرهما من القيم العليا أحلام تخديرية تخدر الناس عن الواقع السيء الذي يعيشون فيه . . ثم . . ؟ ! ثم يزعم أصحاب هذا المذهب أنه حين تقوم الطبقة الكادحة بتحطيم الطبقات الأخرى كلها وإلغاء الملكية وإلغاء الفروق بين الناس . . تقوم « العدالة » في المجتمع ويستقر « الحق » الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى . . ماذا ؟ !

أى أنه هناك حق وعدل أزليان . . وهناك قيم عليا فى كيان الإنسان ! !

* * *

وأحلام « البطولة » تشبهها أحلام « الكمال » . .

إنها انبثاق ذاتى للكيان الإنسانى لم يفرضها أحد من الخارج ، ولا يملك أحد من الخارج أن يفرضها على كيان الإنسان !

و « الكمال » لا يتحقق أبدا فى واقع الإنسان . .

ومع ذلك فدلالة هذه الأحلام قائمة رغم استحالة التحقيق . .

دلالتها قائمة فيما تنطوى عليه الفطرة البشرية من حب للارتفاع ، فلولا هذه الرغبة الفطرية فى الارتفاع ماوجدت أصلاً صورة الكمال فى خيال البشرية ، ولاسعت البشرية إلى محاولة تحقيق ما يمكن تحقيقه منها فى واقع الحياة . .

هذه الرغبة فى الكمال — الذى لا يتحقق أبداً فى واقع الأرض — هى الدافع الأكبر لكل حركات التاريخ وكل حضارات الإنسان . .

حتى الصورة الدنيئة المزرية التى يرسمها علم الاجتماع « التقدمى » للإنسان ، الذى يزعم أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام .. حتى هذا « العلم ! » لم يستطع أن ينكر هذه الحقيقة . . فبعد أن زعم زعمه هذا المنكر ، قال إن الإنسان لم يكتف بالحصول على الطعام ، وإنما سعى إلى « تحسين » الطعام ذاته وتحسين وسائل الحصول عليه . .

وهنا رانت الغشاوة على أصحاب المذهب فلم يبصروا الحقيقة وهى أمامهم يلمسونها لمس العين لو تفتحت منهم البصائر والقلوب ! الحقيقة « الإنسانية »

ليست هى البحث عن الطعام .. فالحيوان كذلك يبحث عن الطعام .. ولكنها هى السعى إلى « تحسين » الطعام ووسائل الحصول على الطعام .. هى الرغبة فى « الكمال » !

وكل « التطور » البشرى — سواء منه التطور السوى والتطور المنحرف — كان الدافع من ورائه هو هذه الرغبة الكامنة فى أعماق الإنسان أن يصل إلى أقصى مايستطيع من « الارتفاع » .. أن يحقق أقصى مايستطيع من « الكمال » . وإنما ينحرف الإنسان فى تطوره — كما يصيب الانحراف كل نشاط بشرى — حين تنقلب « القيم » فى حسه ، فتنقلب بصيرته ، ويرى الهبوط والنكسة هما التطور والارتفاع ! فيحسب أنه مرتفع حين يتخلى عن دينه وأخلاقه ، وأنه متطور حين يتخلى عن قيود « الإنسان » . ولكنه لا يصنع ذلك وفى حسه أنه هبوط وانتكاس [إلا فى الفطرة المريضة التى تلجأ إلى الجريمة على وعى بأنها جريمة ، لترضى فى نفسها نزعة البغض والإيذاء] : « قل : هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »[1] .

وكل التقدم الآلى والعلمى والحضارى والفكرى كان وراءه هذا الدافع .. الرغبة فى الكمال .. الشعور بأن هناك نقصا يجب إكماله .. فى هذا العلم .. أو فى تلك الآلة .. أو فى ذلك النظام .. أو فى تلك الفكرة .. وكلما خطا الإنسان فى ذلك كله خطوة ، استشرف أفقا أعلى ، وبانت له إمكانيات جديدة ، وتطلع إلى « كمال » جديد . والكمال لا يتحقق أبدا فى عالم الواقع ،

---

(١) سورة الكهف [١٠٣ — ١٠٤]

ولكن الرغبة الدائمة فيه تظل تدفع الإنسان وتدفعه ليحصل كل يوم على نصر جديد !

وبذلك تصبح هذه القيمة « الخيالية » قيمة حقيقية واقعية . . بل تصبح أعظم القيم فى حياة الإنسان !

* * *

والجمال . . .

الإحساس بالجمال من أعجب الأعاجيب فى كيان الإنسان . .

كيف يحدث ؟ !

كيف يحدث التوافق بين الحس البشرى وبين الجمال الخارجى ؟

إن « العلم » كله يعجز عن تفسير « ماهية » هذا الإحساس ، كما يعجز عن تفسير كل الظواهر النفسية الأخرى ، ويكتفى بتسجيلها ، وتصويرها « من الظاهر » وتتبع مظاهرها . وإلا فالعلم لا يعرف كيف يحدث الإدراك . وكيف يحدث التذكر . وكيف يحدث التفكير . . . ولا يعرف كذلك كيف يحدث الإحساس بالجمال . ولكنه يسجله فقط ويتتبع مظاهره المختلفة . . والفن كذلك . . يسجل مظاهر هذا الإحساس دون أن يتعرض لماهيته أو يدرك منشأه . . ولكن العلم والفن يلتقيان فى أمر واحد . . هو أنه إحساس فطرى — يزيد فى بعض النفوس أو ينقص — ولكنه لا يفرض على النفس من الخارج ، ولا يملك أحد أن يفرضه على النفوس !

فما الدلالة وراء هذا الإحساس ؟

إن الإنسان يحس بالجمال ألوانا مختلفة من الأحاسيس . .

يحس بالجمال الحسى . . فى المنظر الجميل ، والوجه الجميل والجسم الجميل واللون الجميل والصوت الجميل . . إلى آخر هذه المجالات ، وهى مجالات واسعة متعددة الدرجات والآفاق . .

ويحس بالجمال المعنوى . . فى الفكرة الجميلة والإحساس الجميل والسلوك الجميل . . إلى آخر هذه المجالات ، وهى كذلك مجالات واسعة متعددة الدرجات والآفاق . .

وهو إحساس فطرى . .

والدلالة واضحة . .

إن هناك « قيما » فى حياة الإنسان أعلى من الطعام والشراب والجنس . . أعلى من عالم الضرورة القاهرة . .وهى قيم ذات أثر واقعى فى حياة الإنسان !

* * *

والإحساس بالجمال موكل بأمور عظيمة الخطر فى حياة الإنسان . .

إنه الركن الأكبر فى عالم الفنون .. وهو كذلك ركيزة كبرى للعقيدة .

وقيام الفنون على الحس الجمالى أمر واضح لا يحتاج إلى بيان . فالفنون كلها — من زواياها الخاصة — تعالج ألوانا مختلفة من الجمال ومن الإحساس بالجمال : الصورة المعبرة بالألوان والأضواء والظلال . واللحن المعبر بالأصوات والأنغام . والأدب المعبر بالألفاظ . كلها تبحث عن الجمال ، وتعبر عنه فى صورة جميلة .

أما ارتباط الجمال بالعقيدة فبيانه أن العقيدة تعتمد — فيما تعتمد — على إحساس الإنسان بأن هذا التصرف أو هذا الإحساس أوهذه الفكرة تصرف

جميل أو إحساس جميل أو فكرة جميلة . . ومن ثم يستجيب لها الإنسان ، استجابة لحاسة الجمال ، وتلبية للدافع الذى يدفع الإنسان أن يحب الجمال ويصنع الجميل !

ومن ثم يؤدى الإحساس بالجمال دوره الخطير فى حياة الإنسان . .

وكلما ارتفعت الفطرة السوية فى مجالاتها العليا ، زادت قيمة هذا الإحساس فى النفس ، وزاد دوره التوجيهى فى الحياة . .

ففى الآفاق العليا تدرك النفس السوية نواميس الكون الأكبر وماتشتمل عليه من تناسق وتوافق وجمال . وتحس أنها جزء من ذلك الناموس .

جزء متناسق متجاوب متناغم . . لاجزء متنافر منحرف عن الناموس . .

وعندئذ تجعل سلوكها متناسقا مع فطرة الكون . . متناسقا مع الجمال الذى يشتمل عليه . .!

وعندئذ تترفّع عن النكسة والهبوط إلى عالم الضرورة ،وهى تستمتع بالجمال فى أفقها الطليق .

تترفع عن الجريمة . وتترفع عن الرذيلة . وتترفع عن الخضوع المذل للضرورة القاهرة .. لأن الجمال انطلاق من الضرورة ، وانعتاق من القيود[1] ..

وتلك هى القمة التى ينتهى إليها الإحساس بالجمال . . القمة التى يلتقى فيها الجمال بالكمال . والتى تصل الإنسان فى أفقه الأعلى بالله .

* * *

(١) انظر فصل «الجمال فى التصور الإسلامى» من كتاب «منهج الفن الإسلامى» .

وفى جميع تلك الآفاق رأينا حقيقة واحدة . .

إن القيم العليا جزء من كيان الإنسان الداخلى ، ليست مفروضة عليه من خارج نفسه ، ولا تملك قوة أن تفرضها فرضا على النفوس !

إنها انبثاق ذاتى من كيان الإنسان . .

ومع ذلك فهى فى حاجة إلى معاونة من الخارج لكى تأخذ مجالها الصحيح . . ولو لم تحدث هذه المعاونة الخارجية فهى عرضة لأن يتأخر نموها فى النفس . . أو ينحرف عن سواء السبيل .

فلننظر إذن ماالذى يعوقها عن النمو الذاتى ويحوجها إلىعون الآخرين . .

* * *

القدرة على الكلام والقدرة على المشى قدرتان فطريتان يولد بهما الإنسان ، ومع ذلك لا تتم إحداهما إلا بمعاونة الآخرين .

والقيم العليا كذلك جزء من كيان الفطرة ولكنه يحتاج إلى معونة الآخرين . . وإن اختلف فى كل حالة نوع العائق ونوع العون الذى يبذل للتغلب عليه . .

فى حالة المشى يحتاج جسم الطفل اللين العضلات إلى « قوة » رافعة توازن ثقل الجسم ثم تتغلب عليه . . ريثما تشتد هذه العضلات فتؤدى هذه المهمة بذاتها دون معونة من الآخرين . وإذا لم توجد هذه القوة الرافعة سواء كانت يد الأب أو الأم أو أحد القريبين من الطفل .. أو المقعد أوالمنضدة أو الحائط أو الباب أو السور .. فالأرجح أن يظل الطفل قعيدا كسيحا ، يزداد ثقل جسمه وتزداد رخاوة عضلاته ، فلا تحمل الثقل المتزايد ، وتعجز عن النهوض . .

وفى حالة الـكلام يحتاج الطفل أن يسمع أولا أصواتا مختلفة ترتبط فى حسه بمدركات معينة ، ثم يحاول تقليدها ليتغلب على « الثقل » الموجود فى لسانه وحنجرته وحباله الصوتية . . فتأتى « القوة الرافعة » فى هذه الحالة من الآخرين عن طريق أذنى الطفل ، وتحاول فى جهد بطىء دائب أن « تشد » فى كل مرة حبلا من حبال الصوت ، وعقدة من عقد اللسان .

ومع ذلك لا ينـكر أحد أن القدرة على المشى والقدرة على الـكلام قدرتان فطريتان ، وهما فى حاجة لتحقيقهما فى عالم الواقع إلى كل هذه الجهود !

والقيم العليا — الفطرية — تواجه «ثقلا» ضخما جدا فى كيان الإنسان . . تواجه النوازع الفطرية كلها ، بكل شدتها وعرامتها ، وكل ضروراتها القاهرة التى لا قبل للإنسان — وحده — بموازنتها فضلا عن التغلب عليها . ولو لم يتدخل الآخرون لضبطها وقيادتها فهى — كثقلة الجسم التى تمنع الطفل من المشى ، وثقلة اللسان التى تمنعه من النطق — كفيلة بأن تقعد بالإنسان على الأرض ، لا يرفرف بروحه فى السماء !

ومن ثم فهى فى حاجة إلى جهد دائب لتنميتها وتدريبها وتقويتها . . وإلا كانت هزيلة ممسوخة ، لا تعبر عن وجودها فى عالم الواقع ، ولا تسجل حقيقتها فى عالم العيان . .

وهذا الجهد هو الذى تقوم به التربية فى حياة الإنسان .

* * *

مهمة التربية هى إقامة الحواجز أمام الدوافع الفطرية . . لا لـكبتها من منبعها ، ولـكن لرفع مستواها ، وتحويل طاقتها إلى عمل وإنتاج . . أى إلى « قيم » مختلفة المجالات والدرجات .

وهذه القيم — ككل شئ في حياة الإنسان — تبدأ فى النطاق الحسى ، ثم تعبر الجسر إلى النطاق المعنوى ، ثم تظل طيلة حياة الإنسان تتراوح بين هذا وذاك ، وتجمع بين هذا وذاك .

عالم الطفل — فى فترة من الفترات — هو الثدى والحضن . . ولازيادة .

واشتهاؤه للثدى والحضن هو اشتهاء بيولوجى . . وضرورة لحفظ كيان الطفل من الجوع ، ومن أى أذى يصيبه إذا لم يكن فى حضن أمه الحنون .

وفى الأسابيع الأولى يكون إدراك الطفل ضئيلا جداً . . ولا فرصة هناك لنمو أية قيمة نفسية فى وجدانه . . لأنه يعيش عندئذ فى محيط جسمه بطريقة مباشرة . .

ثم تنشأ الضوابط رويدا رويدا فى هذا العالم الصغير الذى يعيش فيه . .

إنه فى مبدإ الأمر يطلب الثدى ويعطاه . . ويطلب الحضن ويعطاه .

ولكن الأم ترى بعد فترة أنه « يحسن » تعويد الطفل الاكتفاء بعدد معين من الرضعات ، وزمن معين فى كل رضعة . . كما ترى أنه يحسن تركه بعيداً عن الحضن فترة من الوقت . .

ولا شك أن هذا لا يكون على هوى الطفل ! فهو أمر لا يسير فى تيار شهواته ، بل يقف حاجزاً فى طريق هذه الشهوات . .

إنه فى الحقيقة أول خطوة فى سبيل إبراز الحاجز الداخلى الكامن فى باطن النفس !

لقد جاء المنع من الخارج . . نعم . . ولكنه — طوعاً أو كرها ، وبوعى أو غير وعى — ينشئ عادة فى داخل النفس . عادة الامتناع عن شئ مطلوب ومرغوب ومحبوب .

وهى عملية يصاحبها الألم . .

ولكن الألم ليس منشؤه أنها مفروضة عليه من الخارج دون استعداد لها من الداخل ! فنمو الأسنان يصاحبه الألم ! ولم يقل أحد إن نمو الأسنان مفروض على الإنسان من خارج كيانه !

ولو لم يكن هناك رصيد فى الفطرة لتقبل هذا المنع ، والرضوخ له ، والتعود عليه ، لما حدث ذلك أبداً ! ولظل الطفل يبكى وقته كله من الألم دون أن يتعود قط على الامتناع !

ولكن الذى يحدث أن فترة الألم الأولى يتبعها التعود على هذا المنع بحيث يخف الألم تدريجياً ثم يزول .

عند ذلك يكون الحاجز قد ارتفع فعلا فى داخل النفس وقام بعملية الحجز لشهوة الثدى وشهوة الحضن . ولكنه حجز غير كامل . حجز جزئى لفترة من الوقت .

ورويداً رويداً يعطى الطفل طعاماً آخر غير الثدى ، ويتعود على التنوع . أى تنمو فى نفسه الفرملة التى تقوم بتنويع مسار الدافع الفطرى ، فلا يعود مساراً واحداً محدداً على طريقة الحيوان !

ورويداً رويداً كذلك يعطى الطفل حضناً آخر غير حضن الأم . . ويتعود على التنوع هناك !

ثم يأتى دور الفطام . .

وهو أشد صدمة يصاب بها الطفل وأقساها . . وأعظمها أثراً فى نفسه . ويحسن بطبيعة الحال أن تكون تدريجية جداً ، وطويلة الأمد ، حتى لا تترك هزة فى نفس الطفل .

ولـكنها تحدث فى النهاية على أى حال . .

وحين يتعودها الطفل فى النهاية يـكون قد نما حاجز مرتفع فى داخل النفس ، يحوّل شهوة الثدى نهائياً إلى طريق جديد !

ويماثلها دور الفطام « النفسى » من الأم ، حين يفد وافد جديد . . وهى صدمة كذلك شاقة وعنيفة وقاسية ، وينبغى أن يخفف وقعها على نفس الطفل بكل وسيلة ممكنة . . ولـكنها تحدث على أى حال بصورة من الصور . ويتعود الطفل فى النهاية ألا ينظر إلى أمه على أنها الملك الخاص الذى يتصرف فيه وحده بلا شريك !

وحين يتعود ذلك يـكون قد نمـا فى نفسه حاجز مرتفع ، يحوّل شهوة الحضن — الحسّى والمعنوى — فى طريق جديد . .

وفى هذا الأمر يستوى الطفل الذكر والطفلة الأنثى بغير فارق ملحوظ . . ولا يوجد ظل لقصة العشق الجنسى المزعوم ، ولا تتجه الغيرة إلى الأب أو الأم وإنما إلى الوافد الجديد !

* * *

ثم تتدرج الحواجز وتتنوع . .

يـكبر الطفل ويأخذ فى الحركة والمشى . . ويأتى بأفعال لا عداد لها ، بعضها صالح وبعضها ضار . فهو بعدُ قليل الإدراك لا يعرف ما ينفع وما يضر . . ثم إن هذه الأفعال هى طريقه الذى لا طريق غيره إلى المعرفة . معرفة باللمس . ومعرفة بالذوق . ومعرفة بالنظر . ومعرفة بالسمع . ومعرفة بالشم .

ولـكن أمه وأباه ينهرانه عن بعض تلك الأعمال المحببة إليه . . وهذا النهر يؤلمه ولا شك وخاصة فى بادئ الأمر ، فيغضب ويبكى ويحتج . ولـكنه

بعد قليل يتعود . ومع كل نهرة أو زجرة ينمو فى داخل النفس حاجز جديد .

وفى هذه الأثناء يتم بين الوعى واللاوعى أمر ذو أهمية بالغة فى حياة الإنسان . فالطفل الذى يتلقى هذا الزجر والنهى من والديه [والتشجيع على الأعمال المستحسنة من جانب آخر] يتلبس — بلا وعى فى بادئ الأمر ، ثم بوعى وإرادة بعد ذلك — بشخصية والديه اللذين ينهرانه أو يقدمان له التشجيع ، فتنمو فى داخل نفسه شخصية جديدة آمرة ناهية ، مشجعة مستحسنة ، تزين له بعض الأعمال وتمنعه من بعضها الآخر ، هى مزيج من شخصيته هو الذاتية وشخصية الوالدين [أحدهما أو كليهما] . وفى هذه الشخصية المزدوجة تنبت النوابت الأولى من الضمير . . .

* * *

ويخرج الطفل من نطاق ذاته رويداً رويداً إلى العالم الخارجى . . إلى المجتمع .. «فيتعامل» مع الناس . مع الوالدين أولا ، ثم مع الإخوة إن وجدوا . ومع الأقرباء والأصدقاء . . ثم مع الغرباء .

وفى كل نوع من أنواع هذا التعامل تنمو حواجز جديدة وضوابط . فهو يتعلم — بالتجربة — أنه ليس كل ما يريده يحصل عليه . أو يمكن أن يحصل عليه . فقد يريد أمراً مستحيلا لا سبيل إلى تحقيقه : كأن يريد بقوته الصغيرة زحزحة الحائط من مكانه ، أو إنزال القمر من السماء ليلمسه بيديه ! وحين يتعود أن يرضى بهذه الأمور تكون الموانع الداخلية قد نبتت بالفعل واستقر بها المقام .

وفى كل مرة تكون عملية شاقة ومجهدة ومؤلمة . ويسبقها فى كل مرة

بكاء طويل وعويل . ولكنها فى النهاية تتم . . لأن هناك استعداداً سابقاً فى النفس لإقامة الحواجز فى طريق الشهوات !

ثم إنه فى تعامله مع الناس تصطدم أنانيته بأنانيتهم ، ويتعلم بعد فترة أنه لا يستطيع فى كل مرة أن يفرض أنانيته هو على الآخرين .

وفى مبدأ الأمر يتألم ويصرخ ويبكى . . ثم يتعود . . وحين يتعود بالفعل . . ثم حين يتعلم — بعد مرحلة أخرى من النمو — أنه لا يجوز له أن يفرض أنانيته على الآخرين ، لا لأنه لا يستطيع ، ولكن لأن هذا أمر غير جائز وغير لائق .. تكون الضوابط قد قطعت شوطاً هاماً فى طريق النمو ،وتكون فى هذه المرة ضوابط « خلقية » بمعناها المباشر الذى يعرفه الكبار .

وفى أثناء ذلك كله تقوم التربية على عنصرين فى آن واحد : التوجيه المباشر الذى يزين بعض الأعمال وينهى عن بعضها الآخر . والقدوة التى يقتديها من أبويه والمحيطين به . وهذه القدوة عامل مهم جداً فى التربية والتوجيه وعظيم الخطورة إلى أقصى حد . والقدوة المباشرة — من الأبوين والأقرباء والأصدقاء — لها الأثر الأكبر ولا شك . ولكن المجتمع كله قدوة على نطاق واسع ، يلتقط منه الطفل قيمه وأخلاقه وتقاليده على غير وعى منه . ويؤثر ذلك كله فى بناء الضوابط الداخلية ، وبناء الضمير .

وفى مرة من المرات يبدأ التفكير فى الخلق والخالق . يبدأ التفكير فى الله والعقيدة .

وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع . فى فصل « الدين والفطرة » .

ولكننا نلاحظ هنا فقط أنها عملية فطرية . وأن العقيدة — حين تأخذ

وضعها الفطرى فى نفس الطفل — تروح تنمّى هى الضوابط فى داخل النفس وتقويها ، وتستغل ما تجمّع من طاقة حيوية وراء الحواجز فى مستويات أعلى من الدفعة الغريزية المباشرة . .

* * *

ويأتى يوم . . بطىء وتدريجى . . ينضج فيه الإنسان . .

تكون الضوابط والحواجز قد أخذت بنيتها الكاملة ، وراحت تؤدى عملها الكامل فى داخل النفس .

عندئذ تكون قد التقطت التوجيه الكامل والتهذيب الصحيح من البيئة من حولها : من الأم والأب . ومن غيرهما من المحيطين بالطفل ، ثم غيرهم ممن يحتك بهم الإنسان . [وحتى الآن نفترض فى كل بحثنا أن التوجيه كامل والتهذيب صحيح والنفس سوية . . وفى الفصل القادم نتحدث عن الانحراف والشذوذ] .

عندئذ تعمل الضوابط عملها الفطرى على نسقه الأعلى . .

عندئذ لا يكون الطعام شهوة . . وإنما يكون رغبة تحفها الضوابط من كل مكان .

الضوابط التى بدأت غير واعية ، ثم تحولت رويداً رويدا إلى دائرة الوعى .

من سلوك وآداب فى تناول الطعام تمنعه أن يكون شرَها وحيوانية وبطنة .

وأهداف تمنع التناول الحرام ، والأثرة البغيضة ، وتتحرى الحلال الطيب وتؤثر الآخرين .

وحرية لا تجعل الطعام ضرورة قاهرة . إنما تتيح للإنسان — فترة من الوقت على الأقل — أن يستعلى على الضرورة ويتحرر من القيد .

ولا يكون الجنس شهوة . . إنما يكون رغبة تحفها الضوابط من كل مكان.

ضوابط السلوك والآداب ، التى تمنع الفوضى الجنسية فى المجتمع . وتمنع ممارسة الجنس —حتى فى النطاق المشروع— على طريقة البهائم : دفعة جسدية بلا مشاعر ولا عواطف ولا وجدان .

وضوابط الأهداف التى تمنع الإسراف فيه وتمنع أن يكون هو هدفاً فى ذاته . وترتب عليه نظما خلقية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية [« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة[1] »] .

والحرية التى تجعل الإنسان — لفترة من الوقت على الأقل — يستعلى على ضرورة الجنس ويتحرر من القيد .

ولا يكون القتال شهوة . . وإنما رغبة تحفها الضوابط من كل مكان .

ضوابط السلوك والآداب التى تمنع الغدر والخيانة والتعذيب والتمثيل [« إن الله كتب الإحسان على كل شىء . . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته[2] »] .

وضوابط الأهداف التى تحوّل القتال إلى صراع نبيل لإقرار الحق والعدل والإنسانية الكريمة ، صراع الشر والطغيان والانحراف . .

والحرية التى تجعل الإنسان —على مقدرة— يكظم الغيظ ويعفو عن الناس [« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين،

---

(١) سورة الروم [٢١] .

(٢) انظر فصل « وليرح ذبيحته » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين[1] »] .

ولا يكون الملك شهوة . وإنما يكون رغبة تحفها الضوابط من كل مكان .

ضوابط الآداب والسلوك التى لا تجعلها مباهاة مؤذية للناس . .

وضوابط الأهداف التى تحُول بينها وبين الترف الفاجر الحرام . . وبينها وبين الغصب والنهب والسلب والطريق الحرام . وتحوّلها إلى إيثار جميل نبيل [« لا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[2] »] .

والحرية التى تكفل للإنسان أن يستعلى على شهوة الملك دون أن يحس بالمذلة أو الهوان . .

وهكذا تتحول الطاقات كلها إلى طاقات رفيعة وقيم عليا .

ولا يحدث الحرمان . .

فالضوابط بأنواعها الثلاثة التى ذكرناها ، لا تهدف إلى حرمان النفس من المتاع ، ولا تهدف — كما حسب فرويد — إلى إشقاء البشرية !

إنها على العكس — تهدف — فطرياً — إلى سعادة البشرية .

فالنمو « الحر » للدوافع الفطرية . . التى هى فى حساب فرويد دوافع كلها جنسية . . هذا النمو الحر لا يسعد البشرية إطلاقاً ، حين يمضى هكذا بلا صمام !

والحيوان له صمامه الفطرى الذى يحول دون الدمار . فيدرك الحيوانَ قبل نقطة الخطر ويقفه عن نشاطه . .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٣ — ١٣٤]   (٢) سورة الحشر [٩]

أفكان يريد فرويد أن يحرم الإنسان من صمام الأمن ؟ ! أو كان يريد أن يكون النمو « الحر » ممتداً حتى يدمر كيان الإنسان كله ويتلفه . . لأنه لا يعرف حد الاكتفاء ؟ !

إن الله فى عليائه قد أراد للبشرية الخير ، حينما أراد فرويد لها الدمار !

أراد أن يرفع مستواها وفى الوقت ذاته لايحرمها من المتاع . فالمتاع الطيب كله مباح : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[1] » . الطيبات من كل شىء : من المأكل والمشرب والملبس والمسكن ومن الجنس ومن الملك ومن القتال ومن حب البروز . .

ثم أراد أن يمنع الطاقة الفطرية الحيوية من الاستهلاك كلها فى مستوى الحيوان فلا تنتج شيئاً . . فرفع مستواها ثم حول جانباً منها إلى « الخلافة » . . إلى العمل المثمر الطيب النظيف .

وأراد أن يكون ذلك كله فطرة فى نفوس الناس .

ولكنه — هكذا شاءت حكمته — أراد أن يكون الأمر كدحاً : « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه »[2] فتنمية الضوابط — الفطرية — تحتاج إلى الكدح والجهاد والمغالبة لتيار الشهوات الدافق . . المغالبة الدائمة التى لا تفتر . .

وإلا . . فالشهوة العنيفة عرضة لأن تهدم الحواجز الضعيفة ، وتغرق القيم العليا ، وتردمها فى الأوحال ! . . وعند ذلك ينشأ الشر فى حياة الإنسان !

---

(١) سورة الأعراف [٣٢]   (٢) سورة الانشقاق [٦]

الانحراف والشذوذ

هذه المراحل الطويلة من النمو التى وصفناها فى الفصول السابقة ، وهذه الجوانب الكثيرة المتعددة المتقابلة فى كيان الإنسان .. كلها عرضة للانحراف!

وقد كنا — حتى الآن — نتحدث عن النفس السوية المتكاملة ، التى نمت نموها الطبيعى ، وتكاملت كل جوانبها ، فقامت — على قواعدها الصحيحة — كالبنيان الراسخ ، ثم انطلقت تعمل بكل طاقتها فى مجالها الصحيح .

وكنا نشير — بين الحين والحين — إشارات عابرة إلى الانحراف والشذوذ ، وأنهما يفسدان هذا البنيان الراسخ ، ويجعلان طاقته بعيدة عن مجالها الصحيح .

فهنا نتتبع النفس فى مراحل نموها المختلفة ، وفى جوانبها المتعددة ، لنرى كيف يحدث الانحراف عن سواء السبيل .

* * *

وينبغى قبل أن نبدأ فى بيان الحالات المختلفة للانحراف والشذوذ ، أن نقرر حقيقة إنسانية جديرة بالتسجيل ، هى تعدد الأنماط البشرية ، وعدم انحصارها فى صورة معينة مكرورة .

لقد ميز الله الإنسان بخصال كثيرة ، من بينها هذه السمة العجيبة فى أنماط البشرية .. تتشابه كلها دون أن تماثل . حتى لنستطيع أن نقول إنه لا يوجد

فردان من البشرية يتماثلان تماثلا كاملا على مدار الأجيال ، كما لا تتماثل بصمات الأصابع بين أى فردين على مدار التاريخ !

هذا التعدد فى الأنماط يعطى الحياة البشرية ولا شك ثراء لا يعرفه عالم الحيوان . . ثراء يجعل الحياة أوسع بكثير وأعمق بكثير من صورتها الظاهرة . فكل إنسان عالم وحده ، مع تشابه هذه العوالم وتقاربها . والتقاء إنسان بإنسان ، هو التقاء بين عالمين مختلفين ، مع تشابه « اللغة » الشعورية والفكرية والجسدية فى نهاية المطاف .

وتلك نعمة كبرى من نعم الخالق على الإنسان . وإلا فلو أن هذا الإنسان — مع ما وهبه الله من قوة الإدراك والمعرفة والإنتاج المادى والفكرى والروحى — كان صورة واحدة مكرورة . . ألا ما أضيق الحياة عندئذ وما أبعثها على الضجر والملال . . ! ولكنها ، بهذا الثراء الناشئ من تعدد الأنماط ، جديرة حقا بهذا المخلوق الذى كرمه الله ورعاه . .

وثمت نعمة أخرى أخصّ من هذه ، هى تعدد الأنماط السوية للإنسان . .

إن الله لم يكتب على الإنسان صورة واحدة من السواء ، بحيث تحتاج البشرية إلى الانحراف والشذوذ لتعدّد أنماطها وتُثرى حياتها ! بل بسط نعمته كاملة . . فجعل السواء أنماطا متعددة ، كلها سوىّ ، ومع ذلك لا يتماثل سواء وسواء ، ولا شخص سوى وشخص سوى . بل يظل كل إنسان سوىّ عالما وحده يلتقى بغيره من العوالم على سواء وعلى اختلاف فى ذات الوقت ، فى البنية النفسية وطريقة التصرف وطريقة الإحساس .

وربما تكون المسألة أقرب إلى التصور لو تذكرنا تعدد أنماط الجمال . . كلها جميلة ، ومع ذلك فكل جمال صورة وحده لا تختلط بغيرها من صور الجمال .

وكذلك النفوس السوية . . جميلة . . ولكنها « متخصصة » فى جمالها ، كل واحدة منها ذات طابع واتجاه .

فلسنا نحتاج إذن إلى الانحراف والشذوذ لتعديد أنماط الحياة وإثرائها ، والثراء متوفر مع الاستواء . ولكن حكمة الله قد خلقت مع ذلك أنماطا أخرى شاذة ومنحرفة ، ليتبين الفرق بين هذا الاتجاه وذاك !

* * *

ثم ننتقل خطوة أخرى فنقرر أن السواء الكامل نادر الوجود . . ولا بد من انحرافة — ولو بسيطة — من هنا ومن هناك ! فهل نقول إذن إن البشرية كلها منحرفة كما قال فرويد ، ونلغى عندئذ جميع المقاييس ؟ ![1] .

كلا !

ونعود ثانية إلى التشبيه بالجسم لأنه يقرب الصورة إلى الأذهان :

الجسم « الكامل » نادر الوجود . سواء من الظاهر أو من الباطن . فالجسم الذى يتساوى فيه الشقان المتقابلان تساويا كاملا ، فلا تختلف عينه اليمنى عن اليسرى أدنى اختلاف ، ولا أذنه اليمنى عن اليسرى ، ولا طاقة أنفه اليمنى عن اليسرى ، ولا كتفه ولا ذراعه ولا يده ولا رجله ولا قدمه ولا أصابعه . . جسم نادر الوجود حقا إن لم يكن مستحيل الوجود ! وذلك مع افتراض أن هذا الجسم سائر على المقاييس الأصولية فى نسبة الطول و نسبة العرض و نسبة الأعضاء بعضها إلى بعض ، بحيث لا يختل مقياس واحد من هذه المقاييس !

---

(١) فى كتابه Three Contributions te the Sexual Theory ص ٣٢ يقول : إننا جميعا مصابون بالهستريا إلى حد ما : « We are all hysterical to some extent » انظر بعد ذلك الفصل الأخير من هذا الكتاب : «بين الواقع والمثال» .

والجسم الذى سلمت أحشاؤه كلها سلامة كاملة ، فلا يختل منه قلب ولا كبد ولا معدة ولا أمعاء فى ليل أو نهـار ، ولا ينبض قلبه نبضة زائدة أو نبضة ناقصة ، ولا يصاب بإمساك ولا إسهال ولا عسر هضم ولا صداع ولا ألم . . هو جسم مستحيل الوجود فى واقع الحياة . .

ومع ذلك لم يقل خبراء « الجمال » إن أجسام البشرية كلها منحرفة ، ولم يقل خبراء الطب إن البشر جميعا مرضى ليس بينهم سليم !

وإنمـا اصطلحوا على كلام معقول : فهناك دائرة من الانحرافات البسيطة نقصاً وزيادة لا تحسب فى عالم الانحراف وإنما تحسب فى عالم الاستواء ، مادامت لا تشوه مظهر الجسم أو لا تفسد دورة الحياة فيه .

فحين تـكون كتف أعلى قليلا من كتف ، أو ساق أقصر قليلا من ساق ، بحيث لا يظهر ذلك إلا للفاحص المدقق الذى يتعمد الفحص والتدقيق ، فهذا الجسم سوىّ رغم ما فيه من انحراف بسيط .

وحين يوجد قلب يخفق أحياناً بسرعة زائدة عن المعدل ، أو كبد تـكسل أحياناً عن الإفراز ، وأمعاء تمسك أحياناً عن العمل ، فهذا الجسم « طبيعى » وليس مريضاً ، رغم ما فيه من اختلال بسيط .

أما حين يصل الأمر إلى التشوه الظاهر أو الاختلال الدائم فى وظيفة من وظائف الأعضاء ، فعندئذ يقال إن هذا الجسم مختل أو مريض .

وكذلك الأمر فى عالم النفوس . هناك دائرة من الانحرافات البسيطة نقصاً وزيادة لا تحسب فى عالم الانحراف وإنمـا تحسب فى عالم الاستواء ، مادامت لا تشوّه النفس ولا تفسد دورة الحياة فيها . . وما دام لا يمكن أن تخلو منها

نفس من النفوس . وإنما يدخل الأمر دائرة الانحراف حين يزيد الاختلال عن حده البسيط .

وليست هناك بطبيعة الحال خطوط حاسمة للسواء والانحراف فى عالم النفوس ، كما لا توجد خطوط حاسمة للصحة والمرض فى عالم الأجسام . ولكن هناك أموراً معينة يكون من المؤكد أنها داخلة فى دائرة الانحراف ، وأموراً أخرى داخلة فى دائرة الاستواء . وبينهما متشابهات ، قد تحسب هنا مرة ومرة هناك .

ويبقى بعد ذلك بيان الفرق بين ما يسمى بالانحراف وما يسمى بالشذوذ .

كلاهما خارج بطبيعة الحال عن دائرة الاستواء ، ولكنهما يختلفان فى درجة الخروج . فأما الانحراف فهو الشوط الأول من الخلل ، وأما الشذوذ فهو شوطه الأخير .

ولكن المسألة ليست مجرد الاختلاف فى الدرجة . . فهناك قانون من قوانين الطبيعة يقول إن التغيّر الكمى إذا زاد عن درجة معينة ينقلب إلى تغيّر نوعى . فالإنسان مثلا يسرع فى المشى ، فيظل يسمى ماشياً إلى درجة معينة . فإذا زادت سرعته بعد ذلك فإن حركته لا تعود تسمى مشياً ، وإنما تتحول إلى جرى . فليست « كمية » الحركة وحدها هى التى تغيرت . وإنما « نوع » الحركة كذلك تغير .

وفى عالم النفوس ينطبق كذلك هذا القانون . فحين يزيد الانحراف عن درجة معينة فإن وضعه فى النفس يتغير ، ويصبح عملية أخرى مختلفة ، توصف بأنها شذوذ .

وكما أنه لا توجد خطوط حاسمة تفصل بين الاستواء والانحراف ،

فكذلك لا توجد خطوط حاسمة تفصل بين الانحراف والشذوذ، فهما دائرتان — إلى حد ما — متداخلتان، نهاية هذه فى بداية تلك. ولكن « العملية النفسية » مختلفة فى الحالتين رغم وجود هذه المنطقة المشتركة عند الطرفين. فالانحراف يحدث خللا فى دورة الحياة السوية ولكنه لا يعطلها تعطيلا كاملا ولا يقلب وظيفتها فى النفس، بينما الشذوذ يحدث هذا القلب والتعطيل.

مرة أخرى مثال من الجسم :

قد تكسل المرارة مثلا عن وظيفتها، فلا تفرز السائل الذى يهضم المواد الدهنية، فيحدث عن ذلك خلل — يتراوح مقداره — فى عملية الهضم. ولكن فى مرحلة معينة من مراحل المرض قد تفرز المرارة سائلها الأصفر فى الدم. فيحدث تسمم سريع. هذه عملية غير تلك.. وهكذا بقية الأمراض.

وكذلك الأمر فى النفوس.. فالأنانية الزائدة انحراف.. وهى تظل فى دائرة الانحراف ما دامت لا تصل إلى حد الجريمة. فإذا وصلت إلى الجريمة: إلى العدوان على الآخرين وعدم الاكتفاء بالموقف السلبي منهم، فهى شذوذ.

والانحراف كما قلنا لا يعطل دورة الحياة.. كما قد يعيش إنسان حياته كلها بقلب مريض أو كلية مريضة. وتكون حياته مهددة دائماً وناقصة النشاط، ولكنه يعيش. غير أنه لا يستطيع أن يعيش حين تزيد نسبة البولينا فى الدم، أو حين يعجز الدم عن تغذية عضلة القلب ذاتها.. وكذلك قد يعيش الإنسان بانحراف نفسى مدى حياته كلها، ويكون مريضاً بلا شك، ونشاطه السوىّ محدود. ولكنه — بطريقة ما — يعيش. أما حين تصل المسألة إلى الشذوذ فالأمر مختلف. ولن « يموت » الإنسان بطبيعة الحال حين

تختل نفسه إلى درجة الشذوذ ، ولكنه يعيش فى اضطراب دائم وإيذاء دائم للآخرين .

* * *

والآن نبدأ الحديث عن ألوان الانحراف المختلفة وألوان الشذوذ .

قلنا بادئ ذى بدء إن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة وكيان موحد .

هذا هو الوصف الشامل للإنسان . وهذه كذلك أول نقطة يمكن أن يبدأ عندها الانحراف والشذوذ .

الإنسان على فطرته السوية كيان متعادل متوازن . . قبضة الطين ونفخة الروح يكونان مزاجه الممتزج المترابط الموحد . . الذى يختلط فيه العنصران ويمتزجان ، فلا يعود هناك انفصال بينهما ولا اثنينية متميزة . . وإنما يصير الإنسان جسما وروحاً معاً فى كل حالة من حالاته ، مع اختلاف النسب بين مختلف الحالات . .

نعم ، هما عنصران متداخلان . لا يوجد أيهما بمفرده على الحالة التى كان عليها قبل الامتزاج . ولكنهما لا يظهران بنسبة واحدة فى جميع حالات الإنسان . فأحياناً تغلب نسبة هذا العنصر أو ذاك . ولكن لا يحدث أبداً أن يكون أحدهما موجوداً بمفرده والآخر غائباً عن الوجود . وما بين الطرفين المتطرفين توجد آلاف من النسب المختلفة ، كل منها يمكن أن يكون حالة من حالات الإنسان . وهو يتدرج ما بين هذه النسب المختلفة المتفاوتة تدرجاً طبيعياً سوياً فيما سميناه من قبل « الجنوح » ناحية الجسد أو ناحية الروح . . ولكننا لاحظنا فى هذا الشأن أمرين : أن النفس السوية تتداول هذا الجنوح بصفة مستمرة ، فتجنح مرة هنا ومرة هناك ، ولا تثبت على جنوح واحد

[إلا فى الحالة المرضية] وأنها تصل بهذا التداول المستمر إلى التوازن فى نهاية الأمر . . كما يميل الإنسان الواقف على عارضة رفيعة مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار ليحفظ توازنه ، فيكون هذا الميل من هنا ومن هناك هو المعين له على التوازن المنشود .

فالآن نصل إلى بيان أول نقطة يمكن أن يحدث فيها لونان من الانحراف والشذوذ .

هذه النسب المتفاوتة التى أشرنا إليها من قبل ، وقلنا إنها تتسع لآلاف من الحالات المختلفة ، ينبغى فى الحالة السوية ألا تقترب من الأطراف التى تقع عندها نقطة الصفر فى هذا الاتجاه أو ذاك : لا صفر الجسد ولا صفر الروح !

وقد لا يحدث أبداً — مهما كانت شدة المرض النفسى — أن تصل إلى نقطة الصفر . ولكن الحالات التى تصغر فيها نسبة أحد العنصرين إلى ما يقرب من نقطة الصفر هى حالات غير سوية إذا زادت عن لحظات عارضة من هنا أو من هناك . وهى تدخل فى دائرة الانحراف أو دائرة الشذوذ بمقدار ما تقترب من نقطة الصفر ، وبمقدار ما تثبت على هذا الاقتراب .

حقاً إن هناك ساعات يغلب فيها الجسد ، وساعات تغلب فيها الروح .

فساعة المتاع الجنسى — حتى فى أنظف حالاته — هى من غير شك ساعة متاع جسدى غالب ظاهر صريح .

وساعة العبادة المستغرقة هى من غير شك ساعة متاع روحى غالب صريح.

ولكنا بيّنا فى فصل « طبيعة مزدوجة » أنه لا يمكن فى الحالة السوية أن يكون الجنس متاعاً جسدياً خالصاً ولا أن تكون العبادة متاعاً روحياً خالصاً ، فلا بد من امتزاج العنصرين فى كل حالة .

أما فى حالة المرض فإن النسبة تقترب كما قلنا من نقطة الصفر اقتراباً يزيد أو ينقص بحسب درجة المرض ، فيكون الانحراف أو يكون الشذوذ .

هناك شخص همه هو جسده وملذاته وشهواته .. لا يكاد يفيق منها ، ولا يكاد يذكر أن له طاقة روحية مودعة فى كيانه ليحقق بها هدفاً أسمى من نشاط الحيوان . هدفاً يتمثل فى « الإنتاج » المادى والفكرى والروحى جميعاً . . يتمثل فى إقامة الحياة البشرية على أسس نظيفة وعادلة ، بريئة من الظلم والفساد .

فهذا بلا شك شخص منحرف . يعمل بجانب واحد من كيانه ويعطل الجانب الآخر أو يكاد . فهو كالشخص الذى يميل بكتف واحدة من كتفيه على الدوام ، فى مشيته وجلسته وحركته ومنامه . .

وبصرف النظر عن وضع هذا الانحراف فى ميزان الأخلاق [سنعالج هذا الأمر فى الفصل القادم : الخير والشر فى النفس البشرية] فإننا نتكلم هنا عن الناحية النفسية البحتة [بغرض البحث التفصيلى فقط . وإلا فالإنسان وحدة متراكبة كما أكدنا فى الفصول السابقة ، لا يمكن فصل بعضه عن بعض].. ومثل هذا الشخص — من الناحية النفسية — منحرف كذى الكتف الواحدة المائلة .

وهناك شخص همّه نظافة روحه . . فيقلل من متاع جسده إلى أقصى حد . . بل ينقلب على جسده يعذبه ويهينه . . يجيعه ويظمئه ويؤلمه ويؤذيه . . ليظفر — فى وهمه — برفعة الروح .

وهذا أيضاً شخص منحرف . يعمل بجانب واحد من كيانه ويعطل الجانب الآخر أو يكاد . ولا يفترق عن الأول إلا بأنه يميل بكتفه الأخرى . وفى كلتا الحالتين لا استواء .

الشخص الأول انحرف ناحية الحيوان . لا لأنه يستمتع بمتاع الجسد ، فهذا نشاط إنسانى أصيل ، مطلوب فى حالته السوية . ولكن لأنه جنح جنوحا ثابتاً ناحية الحيوان ، فثبت على الحالة التى ينبغى — فى الحالة السوية — أن يمر بها مروراً ولا يثبت عليها .

والشخص الثانى انحرف ناحية الملك . لا لأنه يستمتع بمتاع الروح . فهذا نشاط إنسانى أصيل ، مطلوب فى حالته السوية . ولكن لأنه جنح جنوحا ثابتاً ناحية الملك . فثبت على حالة كان ينبغى — فى الحالة السوية — أن يمر بها مروراً ولا يثبت عليها .

ومن ثم فأى مخالفة للوضع الطبيعى للإنسان تسبب الانحراف . فليس الانحراف هو الجنوح الثابت نحو الحيوانية وحده كما قد يخيل الكثير من الناس [وإن كان هذا هو الأكثر حدوثا] ولكن الجنوح الدائم نحو الملائكية هو كذلك انحراف بالنسبة للإنسان .

وليس الأمر هنا أمر هبوط أو رفعة . فالذى يعذب جسده لتصفو روحه يهدف فى وهم نفسه إلى الرفعة . . ولكنه يخالف طبيعة « الإنسان » . ومن ثم فهو منحرف عن الوضع السوى الذى ينبغى أن يكون عليه . والمحك فى ذلك ينبغى أن يكون هو الإنسان ذاته كما خلقه الله . فهو لم يخلقه حيوانا ولا ملكا . ومن ثم فالجنوح الدائم نحو الحيوانية أو الملائكية انحراف عن طبيعة الإنسان ووظيفة الإنسان .

وكما قلنا لن نتحدث فى هذا الفصل عن القيم الخلقية رغم استحالة تجزئة الإنسان ونشاطه وقيمه ، وسنتحدث فقط عن القيم النفسية [كل القيم تلتقى فى النهاية على سواء . ولكننا نفصل بينها هنا لضرورة البحث] .

الإنسان الجانح نحو الحيوانية قد نما جانب من جوانب نفسه نمواً زائداً عن الحد ، بينما ضمر فى نفسه الجانب المقابل . فهو إذن ليس فى حالته السوية التى تنمو فيها كل أجزاء النفس بنسب متعادلة متوازنة . فهو كالمصاب بتضخم عضو من أعضائه ، أو بورم خبيث فى مكان من جسمه : لا يحسب له هذا التضخم فى جانب الصحة ، بل يحسب فى جانب المرض الذى يهلك الجسم ويدمره إذا لم يعالج فى وقته المناسب .

والإنسان الجانح نحو الملائكية مثله تماماً من الناحية المقابلة . لقد نما جانب من نفسه نمواً زائداً عن الحد وضمر فى نفسه الجانب المقابل . ولا عبرة بأن هذا الجانب مشرق فى ذاته ومضىء ورفيع . . فهو متصف بهذه الصفات كلها وهو فى وضعه الطبيعى ، أى على ركيزته الفطرية السوية التى ترتكز على بناء جسدى روحى فى ذات الوقت . ولكنه حين يزيد عن حده يدمر القاعدة التى يرتكز عليها . وينشأ عن ذلك تعطيل للكيان البشرى فى مجموعه . تعطيل بالسلبية . وتعطيل بعدم الإنتاج . وتعطيل بصرف الطاقة فى مناوأة الجسم ومتاعه [السوىّ] بدلا من صرفها فى مقاومة شرور المجتمع الخارجى ، والتعرف على قوانين الكون والحياة ، والاستفادة بها فى إقامة الحياة على أسس نظيفة جميلة وعادلة .

* * *

ذلك هو اللون الأول من ألوان الانحراف : الجنوح الدائم نحو الملَك أو الحيوان .

أما اللون الثانى فهو جنوح مؤقت ولكنه شديد نحو هذا الجانب أوذاك . هذا إنسان يتداول فى نفسه نشاط الجسد و نشاط الروح . ولكنه حين

يقوم بنشاط الجسد يقوم به صرفا [تقريباً] فلا يمزج به إشراقة الروح . وحين يقوم بنشاط الروح يقوم به صرفاً تقريباً فلا يمزج به نشاط الجسد المعقول .

مثل أولئك الناس فيهم اختلال ولا شك . وهم متطرفون فى تصرفاتهم وإن كانوا يمارسون كل نشاط الإنسان . ففى ساعة المتاع الجسدى يقبلون عليه كالحيوان . يأكلون بشراهة لا تلطفها إشراقة الروح التى تجعل للطعام هدفاً ، وتخلط به قيا ، وتهذب من شراهته . ويمارسون نشاطهم الجنسى فى تلمظ حيوانى غليظ ، لا تلطفه إشراقة الروح التى تمزج به عواطف جميلة وفنوناً رقيقة وتهذيبا فى السلوك . . وفى ساعة المتاع الروحى يغرقون فيه إلى حد نسيان أنفسهم . . إلى حد التصوف والتزهد ! ثم يعودون .

وقد يبدو لأولى وهلة أن ذلك شئ نادر الحدوث فى بنى الإنسان ! ولكنه — على درجات متفاوتة — كثير الحدوث جداً .. إلى درجة لا تخطر على البال !

لقد كان المصريون الفراعنة يُغرِقون فى متاع الجسد فيسكرون ويرقصون ، ويَغرَقون فى حمأة الجنس . . ثم يخرجون إلى المعبد يبكون وينوحون ويتذكرون الموت ، وينقطعون — فترة — عن الحياة !

ومازال أبناؤهم حتى اليوم يقولون فى أمثالهم : « ساعة لربك وساعة لقلبك . . ! » بمعنى انفصال هذه الساعة عن تلك . ساعة الرب لا مجال فيها للقلب — أى للمتاع « الدنيوى » . وساعة القلب لا مجال فيها للرب — أى لتذكر الآخرة وعبادة الله !

ومن ثم تتفكك شخصية الإنسان وتنحل .. لا « المبادئ » والعقائد تحكم السلوك . . ولا السلوك يرتبط بشئ من المبادئ والمثل . . ويبدو الإنسان

كأنه شخصيتان منفصلتان ، إحداهما حيوان أو قريب من الحيوان . والآخر زاهد متصوف منصرف عن متاع الأرض !

وكذلك — على طريقة أخرى — كانت أوربا فى عصورها الوسطى تعيش بشخصيتين منفصلتين : إحداهما الشخصية المسيحية المتعبدة المتصوفة الزاهدة — فى داخل الكنيسة ! — تسمو أرواحها على التراتيل الشجية والأنغام الرائقة . . والأخرى هى الشخصية الرومانية الإغريقية التى تعيش فى حدود ما تدركه الحواس فحسب . . ومن ثم تظل الحياة « الواقعية » غير محكومة بمبادئ المسيحية ومثلها المترفعة التى تقول : « أحب أعداءك » . والتى تقول : « إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . والتى تقول : « إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله فى جهنم » . وتظل المسيحية قابعة فى داخل المعبد لا تنشر لواءها على واقع الحياة .

وظلت أوربا بذلك مفككة مجزأة الشخصية ، حتى جنحت فى عصرها الحديث نحو عالم الجسد ، فاستبدلت انحرافا بانحراف ، وشذوذا بشذوذ ! فضلا عن أنها لم تفق بعد من آثار انحرافها الأول . فكأنها تضيف هذا إلى ذاك !

والإنسان الذى يعيش على هذا النحو المزدوج ، لا ينحرف لأنه يجنح جنوحا مؤقتا نحو عالم الجسد أو نحو عالم الروح . فتلك عملية سوية فطرية . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ... »[1].

(١) رواه ابن حبان والحاكم عن أبى ذر .

ولكن الانحراف نشأ من التطرف فى هذا الجنوح المؤقت ، بصورة تكاد تفصل الجسد عن الروح ، وتجعل لكل منهما عالما غير متصل بالآخر أى اتصال .

والإنسان فى فطرته السوية لا يعرف هذا الانفصال — الدائم أو المؤقت . ومن ثم فنشاطه الفطرى السوى نشاط متكامل مترابط .. السلوك مرتبط بالقيم . والقيم تحكم السلوك . فإذا انفصل السلوك عن القيم كما هو منفصل فى حياة البشرية اليوم — شرقها وغربها — فصار لها سلوك «واقعى» تحكمه الضرورة القاهرة ودفعة الغريزة ، وقيم معلقة فى الفضاء تُبحث وتُفَلْسَف بمعزل عن الحياة الواقعة . . فذلك انحراف خطر على كيان البشرية لأنه غير أصيل فى كيانها ولا يتمشى مع فطرتها . إنه تمزيق للشخصية وتفتيت . . لا ينتج عنه إلا الضعف والتفكك والانحلال . . وفى نهاية الأمر يصل إلى البوار .

والأفراد فى ذلك كالشعوب . فهى عملية واحدة تصيب الفرد فتدمر كيانه . وتصيب الأمة فتدمرها . و « علم النفس » القائم اليوم فى الغرب لا يحسب هذا انحرافا ولا شذوذا إلا حين يتم اختلال الجهاز النفسى ، فيعجز عجزا تاما عن « التكيف » أو التفاهم مع البيئة الخارجية . . ولكن الواقع أن هناك درجات كثيرة من الاختلال تسبق هذه الصورة الحادة . وهى إن كانت لا تُعْجِزُ الكيان النفسى عجزا كاملا ، فذلك لا ينفى عنها صفة الانحراف . كما يمرض الجسد — لفترات طويلة أحيانا — دون أن يعجز عجزا كاملا عن العمل . ولكن أحدا من الأطباء لا يقول عنه عندئذ إنه سليم ! أو يسكت عن علاجه بحجة أنه لم يعجز تماما عن القيام بشىء من النشاط .

والبشرية اليوم تعانى هذا المرض النفسى على درجاته المختلفة من الانحراف إلى الشذوذ . فتجد الشخص الواحد — فى حالات الانحراف — يعيش حياتين

منفصلتين ، إحداهما أشبه بالآلة أو البهيمة ، والأخرى متعلقة بمثل جوفاء لا رصيد لها من الواقع . وتجد الأمة الواحدة — فى حالات الشذوذ — تتغنى بالحرية والعدالة والإخاء — ثم ترسل قواتها لتبيد ألوفا من البشر لأنهم يطلبون الحرية والعدالة والإخاء !

وأوربا لا ترى ذلك انحرافا ولا شذوذا لأنها غارقة فيه قد أعماها الدوار . ولكن المقاييس السوية أمامنا ، وهى المرجع الذى ينبغى أن تقاس به الأمور !

* * *

وننتقل مع التركيب النفسى للإنسان خطوة أخرى ، فنتحدث عن الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية ، وكيف يحدث فيها الانحراف والشذوذ .

إن من المهام الرئيسية لهذه الخطوط إحداث التوازن فى نفس الإنسان بتوازيها وتقابلها ، ومع ذلك فهى عرضة للانحراف والشذوذ ، وعندئذ تصبح سببا من أسباب الخلل بدلا من أن تكون عامل اتزان ! مثلها فى ذلك مثل الساقين أو الذراعين والكتفين ، المفروض فيهما أن يمنحا الجسم اعتداله وتوازنه . ولكن حين يحدث الخلل فى ذات الساق أو الذراع أو الكتف فإنها تخل بتوازن الجسم كله وتصبح من أسباب التشويه بعد أن كانت من عوامل الجمال .

وهناك لونان من الخلل يمكن أن يصيبا الخطوط النفسية المتقابلة فينتج عن كل منهما انحراف أو شذوذ :

الخلل الأول هو انحراف أى خط من الخطوط [أو أى زوج] عن مساره السوىّ الذى كان ينبغى أن يسير فيه . كما تعوجّ فى الجسم الساق أو القدم أو الذراع أو الكتف [أو الزوجان معا] فلا تكون فى وضعها الصحيح

ولا تؤدى مهمتها الأصيلة . والخلل الثانى هو زيادة أىٍّ من الخطين المتقابلين عن زميله المقابل له ، بما يفقدهما توازنهما بالنسبة لبعضهما البعض ، ويفقد النفس كلها توازنها تبعا لذلك . كما تطول فى الجسم ساق عن ساق ، أو كتف عن كتف . . فتختل حركة الجسم جميعا . .

وقدر من هذا الانحراف يحدث فى كل نفس سوية كما بيّنا من قبل . ولن توجد النفس التى تتوازن توازنها الكامل فى كل لحظة وإزاء كل حدث من الأحداث [وليس مطلوبا أن توجد !] وإنما نسميه انحرافا أو شذوذا حين يزيد عن القدر المعقول .

وسنتتبع الخطوط المتقابلة كلها لنستعرض فى كل منها ألوان الاختلال .

* * *

الخوف والرجاء أكبر خطوط النفس البشرية وأوسعها مجالا[1] . . وفى الوقت ذاته [أو لهذا السبب ذاته] هى أشدها عرضة لاتساع مجالات الانحراف والشذوذ !

وقد بينا فى فصل « الخطوط المتقابلة » أن الخوف والرجاء يؤديان مهمة رئيسية فى حياة الإنسان . فكل منهما لازم للحياة لا تستقيم بدونه النفس . ولكن على شرط أن يكون كل منهما فى وضعه الصحيح ويؤدى مهمته الصحيحة .

الخوف مهمته الأولى صيانة حياة الإنسان من الخطر والتلف اللذين يمكن أن يقضيا عليه لو لم يكن فى تركيبه هذا الشعور الفطرى بالخوف .

ولكن حين ينحرف خط الخوف عن مساره فإنه هو ذاته يعرض الإنسان للتلف والبوار !

---

(١) راجع فصل « الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية » فى هذا الكتاب .

الإنسان الذى يخاف كل شىء لا يقدم على عمل ولا يتقدم من مكانه خطوة مخافة الأخطار فى الطريق ! وبهذا يتعطل قدر كبير من نشاطه وإنتاجه الذى كان يمكن أن يؤديه فى حالته السوية ، فضلا عن القلق الدائم والاضطراب النفسى الذى يصيبه من التوقع الدائم للأخطار . وفوق ذلك فهو شخص جبان حياته كلها خوف ولا إقدام. فلا هو يدفع عن نفسه أذى ولا يذود ظلما ،ولا يسعى للمشاركة فى أمر من الأمور العامة التى تعرض الإنسان لشىء من المشقة . وبذلك يفقد نفسه ويفقده مجتمعه على قدر ما يعمل فى نفسه هذا الانحراف أو ذلك الشذوذ .

وقد يكون الخوف عاما وقد يكون متخصصا . . فبعض « المرضى » يخافون كل شىء . وبعضهم يخاف شيئاً معينا كالذى يخاف الوحدة . أو الظلام. أو الموت . أو الفقر . أو المرض . أو الحوادث . . أو الصرصار ! وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نشرح الأسباب الشعورية أو اللاشعورية التى تحدث هذه الانحرافات . فذلك مبحث متخصص ، ونحن هنا بصدد نظرية عامة عن النفس الإنسانية . فبحسنا هنا أن نصف هذه الظاهرة ، وأن نذكر أنه لا بد لها من أسباب تحدثها [فالأصل هو الاستواء ، والانحراف لا بد له من سبب] سواء كانت هذه الأسباب استعداداً وراثياً أو اكتساباً فى أثناء الطفولة بصفة خاصة . كما نذكر كذلك أن التربية السليمة — فى فترة الطفولة خاصة — هى الموكلة بتقويم هذا الاعوجاج ، وتوجيه طاقة الخوف الفطرية فى مسارها السليم[1] .

---

(١) راجع كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصل « خطوط متقابلة فى النفس البشرية » بصفة خاصة .

وقد تحدثنا عن الخوف حين ينحرف بالزيادة عن قدره الطبيعى . وقد ينحرف كذلك بالنقصان ! وقد يبدو لأول وهلة أن نقصان الخوف فضيلة جميلة لا عيب فيها ولا داعى لعلاجها ، بل هى شىء يسعى الإنسان لأن يناله !

وليس الأمر كذلك ! فالشخص الذى ينقص الخوف فى نفسه عن مقداره الطبيعى قد يبدو جريئا مقداما . ولكنه فى الحقيقة متبجح معتد أثيم . . لأنه لا يخاف ! لا يخاف الله ، ولا يخاف الحق ، ولا يخاف العواقب .. وحتى إذا لم ينحرف فى طريق الشر والإيذاء ، فقد يخاطر بلا مبالاة فيتعرض للعطب والهلاك .

ولا يوجد بطبيعة الحال مقياس دقيق للسواء والانحراف . . وقد يكون الإقدام فى موقف ضرورة لازمة ويكون فى موقف آخر مخاطرة غير متعقلة . . ولا يمكن الحكم على إنسان بأنه سوى أو منحرف بموقف واحد أو تصرف واحد ، وإنما يكون الحكم بمجموعة من المواقف ومجموعة من التصرفات .

والرجاء من الجانب الآخر . . مهمته موازنة الخوف من ناحية ، وإغراء البشرية بالتقدم والإنتاج والبناء من ناحية أخرى . وهو فى حالته السوية يؤدى دوراً رئيسياً فى حياة الإنسان . ولكنه عرضة للانحراف بالنقص والزيادة كالخوف سواء .

حين ينقص الرجاء عن معدله الطبيعى يصبح الشخص متشائماً والحياة فى عينيه قاتمة . والتشاؤم مرض يصيب النفس فتنكمش وتنحسر عن مجالات نشاطها الحيوى ، فضلا عن أنه شعور مؤذ يفسد متاع الحياة ويفوّت على النفس طيباتها ، فضلا عن الأسى والحزن والألم الذى يصيب النفوس المتشائمة ، ويكيف كل تصرف وكلّ شعور .

وحين يزيد عن معدله الطبيعى يصبح خيالا أجوف وأحلاما فارغة !
وهو مرض كذلك وإن كان مرضاً براقا فى ظاهره ، كالذى يتورد خداه نتيجة الحمى لا من السلامة والنشاط !

والمصابون بالتفاؤل الزائد عن الحد ينفقون حياتهم فى أوهام لا تعود عليهم بطائل ، وتبدد نشاطهم الحيوى فى غير إنتاج نافع . كإناء البخار المثقوب ، يتسرب منه البخار أولا بأول بدلا من أن يتحول إلى طاقة محركة فى عالم الواقع .

وهذا غير ما يصيب هذا الخط من انحرافات فى « نوع » الرجاء . فقد يرجو باطلا ، وقد يتعلق بأمر لا يصيبه منه إلا الضرر والبوار . وفى الجملة هو اختلال يفقد التوازن ويبدد الطاقات .

تلك ألوان من الانحراف والشذوذ تصيب كل خط بمفرده من الخطين المتقابلين . ثم يوجد انحراف آخر حين لا يتوازن الخطان بالنسبة لبعضهما البعض ، والمفروض فيهما فى الحالة السوية أن يتوازنا ليعادل كل منهما الآخر. فإذا زاد الخوف على الرجاء ، أو زاد الرجاء على الخوف حدث جنوح مرضىّ شبهناه من قبل بذى الكتف الواحدة المائلة من اليمين أو من اليسار .

وكما قلنا من قبل لا يحكم على الإنسان بموقف واحد ولا تصرف واحد .. وإنما بمجموعة كاملة من المواقف والتصرفات .

* * *

والحب والكره هما الخطان التاليان فى النفس البشرية ، اللذان تكاد مساحتهما تساوى مساحة الخوف والرجاء .

وهما عرضة لألوان شتى من الانحراف والشذوذ .

وقد تحدث فرويد بتفصيل شديد عن هذه الانحرافات لأنه اعتبرهما الخطين الرئيسيين فى النفس البشرية بل الخطين الوحيدين ، ومن هنا صب فيهما كل انحرافات البشرية !

والواقع — بصرف النظر عن فرويد — أن انحرافاتهما شديدة وكثيرة. ومع أن مساحتهما فى النفس ليست أكبر من مساحة الخوف والرجاء ولا مقدمة عليهما كما ظن فرويد ، إلا أن هذه المساحة مملوءة بخيوط أدق ومن ثم فهى أكثر !

الانحراف الأكبر فى الحب أن يتوجه إلى شيء أو شخص لا يستحق الحب ! والانحراف الثانى أن يتوجه إلى شيء أو شخص — ولو كان مستحقاً للحب — بقدر أكبر مما ينبغى ! وكلا الأمرين يفقد الإنسان التوازن المطلوب.

حين يتوجه الإنسان بطاقة الحب إلى شخص أو شيء أو فكرة أو نظام أو موقف أو تصرف لا يستحق الحب ، فهو ينحرف وراء هذا الحب فى اتجاه باطل ، ولا يكون مستخدماً لطاقة الحب الفطرية فى مجالها الصحيح . وعلى قدر ما يكون الفساد فى ذلك الشخص أو الشيء أو الفكرة أو النظام أو الموقف أو التصرف تكون خطورة الانحراف أو خطورة الشذوذ .

وحين يتوجه الإنسان إلى شيء من ذلك كله توجهاً عنيفاً يفقده ضوابطه، فلا يملك نفسه ، ولا يملك رشده ، ولا يعرف أين ينبغى أن يقف ولا متى ينبغى أن يرجع . . فهذا اختلال ظاهر ملموس .

ولا نريد أن نخوض فى ألوان الحب الفاسد ولا مظاهر الانحراف فيه ، فهى ظاهرة . ولكننا نشير فقط إلى أن فرويد — الذى تخصص فى الكتابة عن شذوذات الحب — لم يجعل فى حسابه أن حب القيم الفاسدة لون من

الانحراف . . لأنه لا يُدْخِلُ القيم فى حسابه ! ولم يجعل فى حسابه أن مشاعر الحب المحرمة لون من الشذوذ ، لأنه يعتبر « النظافة » وحدها هى الشذوذ .! [قال فرويد صراحة فى كتاب Three Contributions ص٨٢ إن التسامى لون من الشذوذ !!] ومن ثم يضيع كثير من الجهد العلمى الذى بذله فرويد هباء بسبب ما فى نظريته من انحراف وشذوذ !

والكره صنو الحب فى انحرافاته وشذوذاته . فهو عرضة لانحرافين رئيسيين : التوجه إلى شخص أو شئ أو فكرة أو نظام أو موقف أو تصرف لا يستحق الكره [بل يستحق الحب] والتوجه إلى شئ من ذلك كله [ولو كان مستحقاً للكره حقاً] بدرجة من العنف تفقد الإنسان تعقّله واتزانه.

ومرة أخرى لا ينبغى الجرى وراء فرويد فى نظريته الخاطئة عن الكره [وقد شرحنا ذلك من قبل فى الحديث عن الحب والكره فى فصل الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية] ولا يجوز أن نصدق أسطورته القائلة بأن الإنسان يتوجه تلقائياً بشعور الكره إلى كل شخص أو شيء يتوجه إليه بشعور الحب! [أسطورة الازدواج العاطفى Ambivilence] .

ثم يأتى الانحراف الآخر من زيادة نسبة أحد الخطين إلى الآخر ، والمفروض فيهما أنهما متوازيان ومتعادلان .

فالشخص الذى تزيد فيه نسبة الحب عن الكره شخص لطيف حقاً ، متسامح ، ودود . وكل ذلك جميل فى ظاهره . ولكنه حين يزيد عن مقداره شخص سلبى وغير واقعى . وغير منتج . فهو حين لا يكره الشر ولا يقاومه . ولا يكره الظلم والفساد . ولا يكره انحرافات الناس ولا يقوّمها . . فماذا تكون

النتيجة ؟! وما القيمة العملية لـكل الصفاء الذى يصنعه الحب ؟ ! وماذا صنعت الهندوكية على كل ما فيها من صفاء ومودة ولطف ، فى تحسين حال البشرية وإقامتها على منهج صحيح ؟ !

أما الشخص الذى تزيد فيه نسبة الـكره فهو شخص حقود لا يحب الخير للناس لأنه لا يحب الناس . وهو شخص مريض لأنه « يفرز » إفرازاً زائداً من إحدى « غدده النفسية » التى ينبغى أن يظل إفرازها فى حدود المعدل المطلوب.

ولا ينبغى أن ننسى أن قدراً من الحب والـكره لا إرادة للإنسان فيه ولا حيلة ! ولذلك لا يعتبر فى دائرة الانحراف . ولـكن المطلوب من الإنسان أن يستخدم فراملهُ الضابطة ليصبح هذا الحب أو الـكره فى نطاق المعقول [أحبب حبيبك هوناً ما .. وابغض عدوك هونا ما . . !][1] ولا يعتبر فى دائرة الانحراف على أى حال إلا القدر الزائد عن المعقول . والإنسان المتوازن — بحكم توازنه — يضبط هذه الانفعالات ويوجهها الوجهة الصحيحة بقدر ما يستطيع . ولـكنه منحرف حين لا يحاول الوصول إلى هذا الاتزان .

* * *

الحسية والمعنوية . . والواقع والخيال . . والإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب . . تلك الأزواج الثلاثة المتداخلة ، وإن كانت — كما بينا من قبـل — متميزة ومستقلة ، يصيبها الانحراف والشذوذ كما يصيب بقية الخطوط .

حين تزيد الحسية عن معدلها يغرق الإنسان فى المتاع الحسى ويصبح كل همه وكل مشتهاه .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وحين تزيد المعنوية عن معدلها ينسى الإنسان متاعه الحسى ويصبح كل همه القيم والمعنويات . ولا شك أنه يبدو لنا — لأول وهلة — أن هذا شيء جميل لا عيب فيه . ولكننا لو تدبرنا الأمر لم نجده كذلك .

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ! فقالوا : أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1] .

وتدبر هذه الواقعة يعطينا مفتاح الموقف : ليس الاهتمام بالمعنويات أمراً مذموماً فى ذاته . بل هو طلبة الإنسانية الراشدة الجديرة بالخلافة عن الله . ولكن الأمور لا تستقيم حين يهمل الإنسان عالم الحس ويترهبن . فأبسط النتائج لذلك توقف عملية الحياة وتوقف الإنتاج ! وإنما نحمد من إنسان معين أن يغلّب معنوياته على حسياته ليضرب المثل للناس . ولكننا لا نحمد له أن يبالغ فى ذلك كما صنع أولئك الرهط الثلاثة ، لأنه يعطى مثلا سيئاً لا ينفع الحياة . [وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا][2] .

والواقع والخيال طاقتان فطريتان متوازنتان . . وضروريتان .

فإذا زادت الواقعية فذلك انحراف . . وهو انحراف شديد الظهور فى هذا الجيل من البشرية الذى يعيش اليوم فى ظل التقدم العلمى وفتوحاته الباهرة .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه .   (٢) سورة القصص [٧٧]

وفى غير هذا الكتاب تحدثنا عن هذه الواقعية المريضة التى أصابت الغرب فى « نهضته » الحديثة[1]. ولن نعيد هنا ما كتبناه هناك. وإنما نتحدث عن هذا المرض كظاهرة نفسية.

الشخص الذى ينهمك فى عالم « الواقع » يُنتج فيه ولا شك إنتاجاً ظاهراً، ويزداد قوة فى حساب المادة. ولكنه يضيّق أفقه إلى أقصى مدى حين يحصر اهتمامه فى هذا الواقع الضيق المحصور. ومهما يكن من إضافته للحياة بهذه الواقعية فهو ينقص منها بتضييق آفاقها. والشعب الأمريكى مثل بارز لهذا الانحراف، فهو — من شدة حياته فى دائرة الواقع — قد صار يشبه الآلة فى انتظامها ودقتها.. وعدم إحساسها.

والأزمة التى تمر بها الفنون فى العصر الحديث أزمة ذات دلالة. فهى تدل على نضوب جانب من جوانب الإنسان وجفافه، وهى ظاهرة خطيرة حين تصل إلى مداها، لأنها تقف النمو البشرى وتحصره فى محيط الآلة ومحيط الحيوان.

وعلى كل « العلم » الذى تعلمه أمريكا وروسيا، وتبدو ظواهره فى سباق الفضاء الجبار، فإن « إنسانية » هذين الشعبين فى طريقها إلى الهبوط الدائم بسبب إغراقها فى الواقع المحصور.

والخيال هو الذى يوازن الواقع ويوسع آفاقه. وهو — كما بينا من قبل — عنصر ضرورى للحياة. فلن يحسّن الإنسان نظمه وأفكاره ومشاعره إلا إذا « تخيّل » ما هو خير منها. والإحساس بالجمال وتصور الكمال — وهما

---

(١) كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » و « معركة التقاليد » و « منهج الفن الإسلامى » بصفة خاصة.

دافعان أصيلان من دوافع البشرية إلى التقدم — لا يتمان إلا عن طريق القدرة على التخيّل والإبداع . وتلك مهمة الخيال فى حياة البشرية . .

ولكن الزيادة فى نسبة الخيال تضر ولاتنفع . . فالشخص أوالأمة اللذان يعيشان فى الخيال لا ينتجان شيئاً لعالم الواقع ، ويبددان طاقتهما فى لا شيء .

. . والشخص الذى يعيش فى أوهام دائمة من الخيال شخص مريض . . وعرضة لكثير من ألوان الشذوذ ، الجنسى بصفة خاصة ، وعرضة للانطواء والسلبية . وليس من الضرورى أن يصاب بكل هذه الانحرافات ، ولكنه كما نقول عرضة لها ، لأنه لا يوجه طاقته نحو الواقع ليوازن خيالاته ، ولأنه يتعود أن يحقق وجوده — نظرياً — فى عالم الخيال فيصاب بأحلام اليقظة ، وتصبح تلك بديلا من النشاط الواقعى المثمر . . وهو فى كل حالاته شخص غير موزون .

وقريب من ذلك — وليس الشيء ذاته — الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب .

فالذى يحصر عالمه فيما تدركه الحواس فحسب ، يلغى من حسابه الله والعقيدة وما يتصل بها من قيم ونظم ومشاعر وأفكار . وهذا الانحراف الخطر هو الذى يستولى على الغرب فى وقته الحاضر ، ويتسبب عنه كل ما يعانيه الغرب من اختلالات فى النظم والعقائد والأفكار .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر — وهو إيمان بالغيب — يعدّل كثيراً من ألوان السلوك البشرى ، ويوازن كثيراً من الطاقات والتصرفات . أما إنكار الله واليوم الآخر فأقل ماينتج عنه هذه المظالم التى تملأ وجه الأرض ، والتى يرتكبها من يرتكبها لأنه ليس فى حسابه أنه سيلقى الله . وهذا التكالب البشع على متاع الأرض — وما ينتج عنه من انحرافات —

هو تكالبُ العاملُ الأساسى فيه عدم إيمان الناس بوجود يوم آخر خالد النعيم ، يعوض الإنسان عن متاعه الزائل الذى لا يشبع منه بنعيم خالد لا يزول. ولو آمن الناس بالله واليوم الآخر لانصلح حال البشرية وزال ما تعانيه اليوم من القلق والاضطراب النفسى والعصبى الذى لا مثيل له فى كل تاريخ البشرية.

والغرب بطبيعة الحال لا يسمى هذا مرضاً ، ولا انحرافاً ولا شذوذاً . . حتى وهو يرى ما ينشأ عنه من أمراض وانحرافات وشذوذات !

ولكن الإيمان بالغيب ينبغى أن يظل فى حدود معدله المطلوب . وإلا فإن زيادته عن المعدل السوىّ تصيب الإنسان بألوان أخرى من الانحراف .

الإيمان الزائد بالغيب — على حساب الإيمان بما تدركه الحواس — يعرض الإنسان لإهمال عقله وفكره ، والنتائج العملية التى يجنيها من إعمال عقله وفكره .

يعرضه لإهمال «العلم» النظرى والتجريبى القائم كله على ما تدركه الحواس ، فيفسر الحياة كلها بعوامل غيبية لا سبيل إلى السيطرة عليها ولا التحكم فيها [إلا بأعمال السحر . . وهذا منشأ الخرافة] .

ويعرضه كذلك للوسواس .. فما دام كل شئ نابعا مما وراء الحس [ولا شئ فى عالم الحس] فلا يقين بشئ ، وكل شئ عرضة للتغير بلا سبب ظاهر ولا مفهوم ، وكل حركة وكل سانحة قد تكون رمزا لشئ مجهول .. [وهذا منشأ الوسواس]

وحقيقة إن ما وراء الحس هو المنبع الحقيقى لكل شئ . وإن العوامل الغيبية هى التى تسيطر على الكون والحياة . ولكن الله — من وراء الغيب — قد أعطى الإنسان عالما محسوسا يعيش فيه ، وأعطاه الأداة التى تتفاهم مع هذا العالم المحسوس وتتعرف قوانينه لتستخدمها وتنتفع بها — وهى العقل —

وسخر للإنسان كل ما فى السماوات والأرض [« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه »[1]] . فأصبح متعينا على الإنسان أن يستخدم ما تدركه حواسه ويؤمن به — مع إيمانه بالغيب — ليتوازن هذا وذاك .

أما الإيمان بالغيب وحده ، أو بنسبة زائدة عن المعدل ، فهو إهدار للواقع الحسّى وتعطيل عن الإنتاج المثمر وقلق كذلك فى النفس واضطراب .

والتوازن هو الإيمان بالعالمين معاً ، والعمل بمقتضى هذا الإيمان . [« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[2]] .

* * *

الفردية والجماعية نزعتان فطريتان ، متعادلتان متوازنتان ، وهما تؤديان دورهما فى حياة الإنسان بهذا التعادل والتوازن . فإذا زادت إحدى النزعتين على حساب الأخرى فذلك انحراف يخل بتوازن النفس .

فحين تزيد النزعة الفردية فهى إما فردية انعزالية انطوائية ، وإما فردية أنانية عدوانية . وفى كلتا الحالتين هى مرض وانحراف عما ينبغى للنفس السوية .

الفردية الانطوائية [وهى فى الغالب مزيج من مرضين معا : الفردية والسلبية[3]] تقبع داخل ذاتها ولا تخرج إلى المجتمع ولا واقع الحياة . لقد تجسم فيها جانب الفرد وانحسر جانب الجماعة . وهى ليست شريرة [فى الغالب] بل قد يكون منها علماء وفنانون يخدمون البشرية بعلمهم وفنهم . ولكنهم لا يحبون التعامل المباشر مع الحياة ولا يطيقونه .. معاملاتهم ضيقة ومحصورة ، وفى حدود

---

(١) سورة الجاثية [١٣] (٢) سورة آل عمران [١١٠] .

(٣) سنتحدث فى آخر الفصل عن امتزاج الأمراض وتداخلها .

الأفراد لا الجماعات . وقد يعطفون على المجتمع جدا ، ولكنهم يهربون منه ، لأن جهاز التعامل المباشر مع الآخرين معطل فى نفوسهم ، لا يحدث النشوة الطبيعية التى يحدثها فى النفوس السوية . . ولأنهم [فى الغالب] طيبون ونافعون بإنتاجهم الفكرى ، فالناس تتجاوز عن انحرافهم أو شذوذهم ، أو تتسلى بالحديث عنه ! ولكنه فى مقياس النفس اختلال ! وهو ليس فريضة على الفنانين والمفكرين ! فالاستواء لا يمنع المواهب من الظهور . بل على العكس يوسع مساحتها ويزيد ثمرتها . والمفكرون والفنانون الأسوياء فى تركيبهم النفسى أبعد أثرا فى الحياة من الانعزاليين الانطوائيين الذين يقدمون للبشرية أفكارهم دون أن يجاهدوا فى عالم الواقع لتحقيق هذه الأفكار . ولكل درجات مما عملوا . ولكن بعضهم أفضل من بعض بجميع المقاييس ..

أما الفردية العدوانية فهى التى يحس الناس فيها بالانحراف واضحا ، لأن العدوان يظهره ويجسمه . والمصاب بهذا المرض شخص أنانى لا يحس بوجود أحد إلا ذاته . وحين يحس بالآخرين ، فهو يحس بهم كأن وجودهم يضغط وجوده هو المنتفش الزائد عن حقه ! فيكرههم ويعتدى عليهم .

والطغاة كلهم من ذوى الفردية الأنانية العدوانية . ولذلك فالطغيان مرض نفسى . ولا يمكن أن يلجأ إليه شخص سوى . وهنا الفرق بين الزعامة والطغيان . فالزعيم شخص « عظيم » أى أنه ضخم الشخصية ، ولكنه ليس فرديا أنانيا . بل هو محب للجماعة متجاوب معها مخلص لها حسن المعاملة لها . وإنما عظم شخصيته هو الذى يجعله فى مكان القيادة ، وليس أنانيته الطاغية التى تميل إلى استعباد الآخرين وإخضاعهم . وربما كان المحك الواضح للفرق بين التركيب النفسى للزعيم والتركيب النفسى للطاغية ، أن الزعيم يبحث عن القوى والطاقات فى الجماعة فينميها ، ويفرح كلما وقع على طاقة نافعة فيستعين

بها ويدفعها إلى الأمام ، بينما الطاغية لا يطيق إلا نفسه ، فكلما وجد طاقة بارزة سعى إلى التخلص منها ولو بطريق الغدر الخسيس ! ولا يعنيه أن تكون نافعة للمجموع . فنفع نفسه عنده هو الأول والآخر ، ولا مصلحة لأحد سواه.

وكما أن الفردية الانطوائية مزيج من مرضين معا : الفردية والسلبية الزائدة ، فكذلك الفردية العدوانية مزيج من مرضين : الفردية والإيجابية الزائدة . وفى كلا الحالين ينحسر الجانب الجماعى من النفس ويبرز الكيان الفردى فى صورة من الصور . وتختلف درجة السوء من فردية لأخرى ، ولكنها فى جميع الحالات انحراف عن الاستواء الفطرى الجميل .

أما النزعة الجماعية الزائدة . . أو الانسياح فى الجماعة .. فهى مرض يذهب بالشخصية أو يضعفها . فالإمعة الذى لا رأى له ولا شخصية ، الذى ينساق وراء كل رأى ، ويهتف وراء كل ناعق ، ويسير تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين .. هو شخص ضاعت فرديته فامحت شخصيته ، وأصبح كمًا مهملا لا حساب له ولا وزن . وهذا مرض خطر .. فإن الله لم يخلق الناس ليذيبوا ذواتهم ويعدموا شخصيتهم على هذا النحو . فضلا عن أن إقامة الحياة الراشدة التى أمر بها الله تحتاج إلى أشخاص ذوى شخصية ورأى وقدرة على احتمال التبعات . أما هؤلاء الإمعات فلا يقيمون شيئاً ولا ينقضون شيئا . وهم هم الوقود الذى يأكله الطغاة ، بل هم الذين يشجعون الطغاة على طغيانهم . فالعبيد يصنعون الطاغية . [« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين »[1]] .

وجميل أن يخدم الإنسان الجماعة ويحبها ويتجاوب معها . وهى نزعة سوية مطلوبة تؤدى دورها فى الحياة . أما أن يفنى فيها ، فيسايرها وهى صاعدة ،

---

(١) سورة الزخرف [٥٤] .

ويسايرها وهى هابطة سيان ، ولا يفكر فى تقويمها حين تخطىء ، ولو بالقلب ، وهو أضعف الإيمان .. فأمر لا جميل ولا مفيد ، فضلا عن الضعف والخزى والهوان .

* * *

والسلبية والإيجابية نزعتان فطريتان متعادلتان ، فإذا زادت إحداهما أو نقصت حدث فى النفس الاختلال .

وقد بيّنا من قبل دور السلبية السوية ، وكيف أنها ضرورية فى حياة الإنسان . فأما السلبية الزائدة ، سواء كانت انعزالا انطوائياً عن الحياة ، أو انسياحاً فى الجماعة تضيع فيه الشخصية وتمحّى . . فهى مرض يبدد طاقة الإنسان الحية ويضيعها بغير ثمرة ، أو بغير ثمرتها الكاملة التى كان يمكن أن تؤدى إليها فى الحالة السوية . وهى من الأمراض التى تصيب « الشخصية » . فالشخص السلبي لا يمكن أن يكون ذا شخصية قوية ، ولا يمكن أن يكون له تأثير على الآخرين . [قلنا فى الفقرة السابقة إن بعض الانطوائيين يكونون علماء وفنانين ينفعون البشرية بإنتاجهم الفكرى . ولكن ليس كلهم بطبيعة الحال ! وهؤلاء الانطوائيون المنتجون ليسوا سلبيين إلى درجة المرض] فالنفع ، والتأثير ، يحتاجان إلى قدر من الإيجابية يجعل الناس يحسون «بوجود» الشخصية فيحترمونها . ولا يمكن أن يتأثر الناس بشخص لا احترام له فى نفوسهم !

أما الإيجابية الزائدة فانحراف مقابل ، يؤدى إلى التبجح والعناد والطغيان والعدوان وعدم احترام حقوق الآخرين ووجودهم .

وقد يبدو لأول وهلة أن الإيجابية الزائدة مزية وفضيلة ، فهى تورث الشجاعة وبروز الشخصية واحترام الآخرين لصاحبها . وذلك كله صحيح

فى الحدود السوية المعقولة . أما حين تزيد عن حدودها فهى مرض متعب ! متعب لصاحبه وللآخرين . فصاحب هذا المرض صعب الانقياد جداً . . حتى للحق ! فهو يظن الخضوع للحق حطة ومذلة ! وصعب الانقياد للجماعة . فهو نافر ناشز . ولا تستقيم أمور الجماعة حين ينشز أفرادها على هذا النحو . وفوق ذلك كله فهو ذاته لا يعيش فى راحة ، فهو لا يفتأ يحس أن افتياتا وقع عليه من هنا أو من هنا . وهو إما أن يصل إلى القيادة والزعامة ليتصرف فى الناس على هواه ، وإما أن ينشز و يشغب على النظام ، ولذلك فهو دائم الاحتكاك بالناس حتى يقهرهم أو يقهروه. ولـكنه لا يحسن أن يعيش فى سلام ومودة مع الآخرين.

وتلك ليست فضيلة بطبيعة الحال . . وإنمـا هى مرض متعب خطير !

* * *

والزوج الأخير من الخطوط المتقابلة التى أثبتناها فى هذا الـكتاب هو الالتزام والتحرر . وقد بينا من قبل وظيفة كل من الخطين وطريقة تعادلها فى الحياة السوية . فأما حين تزيد النسبة أو تنقص عن معدلها السوى فلا بد أن يحدث انحراف .

حين يزيد الميل إلى الالتزام فإنه يوشك أن يستعبد الإنسان حتى لا يملك التصرف فى أبسط الأمور . ويصبح الإنسان بالفعل أقرب إلى العبد منه إلى الشخص الحر . . ولو كان رسمياً من الأحرار !

والموظفون فى دواوين الحـكومة مثل من أمثلة هذا الانحراف . فقد انطبعوا على الالتزام « بالأوامر » و « الروتين » حتى صاروا أدوات عاجزة ، تعجز حتى عن التنفيذ السليم للروتين !

والطغيان فى أى بلد يسعى إلى بذر هذا اللون من المرض فى نفوس

الشعب الذى يحكمه ، ليأمن على وجوده ، ويضمن أن تنفذ أوامره بلا معارضة ولا سؤال .

ولسنا هنا نتحدث عن أسباب الانحراف وإنما نصف مظاهره . ومظاهره هى هذه العبودية الصريحة أو المقنعة التى تتملك المصابين بهذا المرض ، فتعجزهم عن التصرف فى المواقف التى لا تسعفهم فيها القوالب المحفوظة ، ويتعين عليهم فيها أن يتصرفوا من ذات أنفسهم .

وهو — ككل مرض نفسى — درجات مختلفة ، تبدأ من الانحراف البسيط إلى الشذوذ . والشذوذ فى هذه الحالة يصل إلى العجز الكامل عن التصرف ، والنفور من الحرية حين يعطى المريض الحرية . لأنه يحس كأنما الجن والغيلان ستتلقفه فى كل خطوة لو خرج عن الروتين المرسوم ، أو لو وجد فى موقف ليس له روتين سابق محفوظ !

وطبيعى أن مثل هؤلاء الأشخاص — أو الشعوب — يرفضون كل فكرة جديدة ولو كانت صائبة ، ويرفضون كل تقدم ولو كان إلى الخير : [« إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنّا على آثارهم مقتدون »][1] .

وعندئذ يكون الالتزام قد جاوز غايته السوية ، التى مؤداها إطاعة النظم والقوانين الصالحة وعلى وعى وبصيرة ورشد ، وليست الطاعة العمياء التى لا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة وتحول الناس إلى آلات .

أما التحرر الزائد عن الحد فعيبه أنه مرض يجعل صاحبه يستنكف الالتزام بأى أمر من الأمور ، وينفر من القيود إطلاقاً ولو كانت قيوداً ضرورية وصالحة . لأنه يرى فى الالتزام مساساً بكرامته ، وفى التقيد حداً من

(١) سورة الزخرف [٢٣]

كيانه الذاتى . وهذا مرض ولا شك . فالشخص السوى لا يستنكف الالتزام بالأوامر الصالحة ، ولا يحس فيها ما يجرح كرامته . بل على العكس يجد راحة حقيقية فى إطاعة داعى الخير والالتزام بأوامره . أما المريض بالرغبة الزائدة فى التحرر فقد يتعمد مخالفة كل أمر رغبة فى المخالفة ليس غير ، لا عن اقتناع حقيقى بأن المخالفة أصوب من الالتزام !

والغرب اليوم مصاب بهذا المرض إلى درجة الشذوذ . . فهو يستنكف أن يعبد الله ، وينفر من القيود الخلقية فى سلوكه الجنسى ، ويحسب هذا « تحرراً » سوياً ، وهو مرض بالتحرر الزائد عن الحد . .

وفى كتاب « الإنسان » وكتاب « معركة التقاليد » وكتاب « منهج الفن الإسلامى » تحدثت عن الأسباب التى أدت بالغرب إلى الإصابة بهذا المرض الذى وصل هناك إلى درجة الشذوذ . ونكتفى هنا بأن نذكر أن « العقلاء » فى الغرب ، من الساسة والزعماء والمفكرين قد بدأوا يحسون بخطر هذا المرض المدمر ، فيدقون لشعوبهم أجراس الخطر ، وينذرون هذه الشعوب بأنها معرضة للانحلال والانهيار . .

والغرب — مع ذلك — لم يضع يده على موطن الداء كله . . ولكنه بدأ يحس على أى حال أن ما أصابه لم يكن تحرراً سوياً وإنما هو مرض يحتاج إلى علاج .

أما علم النفس فى الغرب فلعله لم يفق بعد من النكسة التى أصابته على يد فرويد . . ولكنه سيثوب حتماً إلى رشده ويرى الأمر فى وضعه الصحيح.

* * *

تحدثنا حتى الآن عن الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية ومظاهر الاختلال التى تتعرض لها فى أثناء النمو . ولعلنا لاحظنا أن بعض مظاهر الاختلال متداخلة

بعضها فى بعض . فالسلبية الزائدة والالتزام الزائد عن الحد مرضان متشابهان من بعض الوجوه ومتداخلان . وكذلك من الجانب الآخر الإيجابية الزائدة والتحرر الزائد عن الحد . كما تتداخل الواقعية الزائدة مع الإيمان المفرط بما تدركه الحواس ، وتتداخل من الجانب الآخر النزعة الخيالية المسرفة مع الإيمان المفرط بما لا تدركه الحواس . . الخ .

وليس منشأ هذا التداخل أن هذه الخطوط — فى أصلها السوى — غير متميز بعضها عن بعض . فهى — كما رأينا فى حديثنا السابق عنها — متميزة ومستقلة . ولكنها متشابكة كشبكة الأعصاب فى الجسم يتصل بعضها ببعض . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن المرض قلما يصيب « عضوا نفسياً » واحداً ، وإنما يصيب مجموعة الأعضاء المتشابكة ، وتنتقل العدوى انتقالاً طبيعياً من عضو إلى عضو . كما تحدث — فى حالة الجسم — إصابة بالدوسنتاريا فى الأمعاء وتتلف الكبد بعد ذلك أو تتلف الزائدة الدودية !

وفضلا عن ذلك فإن العمليات النفسية — كما بيّنا فى فصل « الخطوط المتقابلة » — معقدة شديدة التعقيد . ولا توجد عملية واحدة تصدر عن جزء واحد من النفس ، وإنما تصدر عن النفس فى مجموعها ، مع « تخصص » فى أحد الجوانب ، لذلك يكون طبيعياً أن تتعدد مصادر المرض وتتشابه بعض الأعراض.

* * *

وننتقل مع الانحرافات خطوة أخرى فنتحدث عما يحدث بالنسبة للدوافع والضوابط من أمراض . وسنجد — مرة أخرى — تشابهاً مع بعض الأمراض التى ذكرناها من قبل ، بسبب ما أشرنا إليه منذ هنيهة من تشابك وتعقد فى بناء النفس البشرية .

الدوافع والضوابط — فى حدودها السوية — تؤدى — كما ذكرنا

فى الفصل الخاص بها — مهمة المحرك والفرملة فى النفس . ولنا أن نتصور ما يمكن أن يحدث حين يكون المحرك أقوى من طاقة السيارة — والفرامل ضعيفة — أو تكون الفرامل لاصقة بالعجلات تمنعها من الاستجابة لدفعة المحرك . . وما أشبه ذلك من اختلالات .

وقد قلنا إن الدوافع بصفة عامة يمكن أن تختصر فى دافع أصلى شامل ، هو حب الحياة . وهو دافع ضرورى وأساسى فى مهمة الخلافة التى يقوم بها الإنسان فى الحياة . ولكنه دافع خطر حين يزيد عن الحد . فالتعلق الشديد بالحياة مصيره إلى إفساد الحياة ذاتها باللهفة الدائمة التى لا تشبع ، والقلق الدائم والاضطراب .

وقد خرجت أوربا من رهبانية القرون الوسطى متلهفة إلى الحياة ، ممسكة فيها بأنيابها . وحدث تقدم عظيم فى العلوم والإنتاج المادى بهر العيون وزاد القوم تشبثاً بالحياة . وظن الناس أن هذا هو الطريق ! وأن التقدم العلمى والمادى لا يأتى إلا من هذا الطريق .

ثم مر جيل أو جيلان .. وبدأت الموجة المندفعة تكشف عن مخاطرها .. إن هذا التشبث الزائد بالحياة هو ذاته الذى يصيب النفوس هناك بالقلق والاضطراب النفسى والعصبى وضغط الدم والجنون والإحساس الدائم بالفراغ والخواء ، والمحاولة الدائمة للهروب من هذا الفراغ والخواء بالبحث من متعة جديدة . . أو بالانتحار . . !

وتلك نتيجة طبيعية — غير مستغربة ولا مفاجئة — للتشبث الزائد بالحياة.

فالدوافع الفطرية بصفة عامة — سواء الأصل أو الفروع — خلقت هكذا : لا تشبع بالغذاء الزائد عن الحد ، وإنما تنفلت من حيزها المعقول ؛

ولا تعود تشبع مهما قدم إليها من الغذاء ! وهذا مبدأ الانحراف الذى ينتهى بالشذوذ . وقد استفحل المرض فى الغرب ونشأ عنه كل ما هو مشاهد اليوم من انحرافات خلقية واقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية . . الفوضى الجنسية . وتفكك روابط الأسرة . والرأسمالية . والشيوعية . والشقاء الفردى والجماعى الذى يظلل الأرض بوجهه البشع كما لم تعرفه البشرية قط فى تاريخها الطويل .. ثم الحروب المدمرة الكافرة : حربان فى ربع قرن والثالثة تهدد العالم بالدمار المفزع الرهيب .

من أجل ماذا ؟

من أجل التشبث الزائد بالحياة .

وليس معنى ذلك أن ينصرف الناس عن الحياة لينجوا من هذه الأمراض والاختلالات . .

فالانصراف عن الحياة . . أو ضعف الدفعة الحيوية . . هو الانحراف المقابل . وهو مرض كذلك . لأنه يعطل وظيفة الإنسان الرئيسية التى خلق من أجلها . وظيفة الخلافة عن الله فى الأرض . ويؤدى إلى سلبية مريضة لا تنتج ولا تتقدم ، ولا تضيف فى عالم الواقع جديداً ينفع الأحياء [كالهندوكية والرهبانية] .

وكلاهما اختلال يصيب الدوافع الفطرية بصفة عامة ، ويصدق كذلك على كل دافع بالتفصيل .

* * *

قسمنا الدوافع من قبل إلى : حفظ الذات ، وحفظ النوع ، والملك والقتال ، وحب البروز .

ونتحدث الآن عن كل واحد من هذه الدوافع ، وما يصيبها — بالنقص والزيادة — من انحرافات .

حفظ الذات ، بما يشمله من طعام وشراب ، وما يتبعه من حب للراحة والاستمتاع ، دافع طبيعي فطري يؤدي مهمته السوية في حياة البشرية .

ولكنه حين يزيد عن حده المرسوم تنشأ عنه ألوان مختلفة من الأمراض والانحرافات . .

الأنانية التي تبحث عن خيرها وحدها على حساب الآخرين . والاستعباد لشهوة الطعام والشراب والملبس والمسكن . والترف والاسترخاء . والقعود عن الجهاد في سبيل الحق ودفع الظلم ، حرصاً على سلامة الذات من التعرض للأخطار . وقد جاء في تصريح للرئيس الأمريكي أن مستقبل أمريكا في خطر ، لأنه من بين كل سبعة شبان يطلبون للتجنيد لا يوجد إلا ستة يصلحون للتجنيد ، والآخرون أفسدهم الترف والإغراق في الشهوات . فضلا عن فرار المجندين من الجيش بنسبة ذريعة ، إذ فر في سنة واحدة مائة وعشرون ألفاً من الجيش الأمريكي إيثاراً للراحة وابتعاداً عن الأخطار !

ومن جهة أخرى حين ينقص هذا الدافع تنشأ السلبية المترهبنة التي لا تبالي بالحياة . . فلا تتقدم عن طريقها الحياة .

وقد أشرت في كتاب « منهج التربية الإسلامية » إلى وجوب التفريق بين الزهادة في متاع الأرض ، التي يتصف بها المصلحون ، والرهبانية السالبة التي لا تهتم بأمر الحياة والأحياء . فهذه الزهادة ليست ضعفاً في الدافع الحيوي ، وإنما هي ضبط فائق لهذا الدافع ، في سبيل القيم العليا في الحياة . وينبغي على أي حال ألا تصل إلى الانصراف الكامل الذي يعطل دفعة الحياة .

وحفظ النوع يتمثل فى الدافع الجنسى . .

والزيادة فيه تؤدى إلى أمراض وانحرافات غنية عن الإشارة . والمجتمع الغربى الذى أصيب فى نكسته الأخيرة بالسعار الجنسى ، يعرض أمثلة شتى لهذا الانحراف . . بما فى ذلك الشذوذ الجنسى بمعناه المعروف ، والذى ينشأ كنتيجة فرعية لهذا السعار ! [جاء فى الأخبار أن أمريكا — وهى من أشد البلاد إباحية وفوضى فى المسألة الجنسية — طردت ثلاثة وثلاثين من موظفى خارجيتها لإصابتهم بالشذوذ الجنسى ، ولأنهم — بهذه الصفة — لا يؤتمنون على أسرار الدولة !] .

أما النقص فى هذا الدافع فيولد أمراضا أخرى ، منها البلادة والسلبية والرهبانية وعدم الإقبال الجاد على الحياة .

وقد تحدث فرويد حديثا مستفيضا — مسرفا — عن الدافع الجنسى فى جميع صوره وأشكاله ، وانحرافاته وشذوذاته ، وليس من همنا هنا استقصاء هذه الصور وتتبعها . فذلك مبحث متخصص . وسنعود إلى بعض هذا الحديث عند الكلام عن الضوابط وأثرها الزائد بالنسبة للدافع الجنسى . ولكننا نكرر ما أشرنا إليه مراراً من شذوذ فرويد وانحرافاته وهو يتكلم عن دافع الجنس بهذا الإسراف المعيب .

والملك دافع فطرى يؤدى مهمته فى الحياة البشرية . .

ولكنه حين يزيد ينقلب إلى أثرة بغيضة لا تشبع ، وعدوان على حقوق الآخرين . وهو مرض يصيب الأفراد والشعوب والدول فلا يتركها فى راحة ، ولا يسلم من عدوانها الآخرون . والاستعمار بكل جرائمه لون من هذا الانحراف يقول علماء الاقتصاد إنه نتيجة « حتمية » لرأس المال ! ! وحقيقته أنه انحراف فى النفوس .

أما نقص هذا الدافع فنتيجته السلبية والخنوع لعدوان الآخرين الراغبين في مزيد من التملك والاستحواذ !

والقتال دافع فطرى ضرورى للحياة . .

ولكنه يزيد فينقلب إلى رغبة فى العدوان وتلذذ بإذلال الآخرين . ويصل فى حالات الشذوذ إلى شهوة فى القسوة والتعذيب [سادزم] تلتذ بمنظر الدم ، ومشاهدة الألم . . كتلذذ الحيوان المفترس ، بل أشد من الحيوان . فمعظم الوحوش لا تفتك إلا فى حالة الجوع ، ولا تلتذ بتعذيب الفريسة إلا من أجل الحصول على الطعام . وهى وحوش على أى حال .

وينقص هذا الدافع فيتحول إلى خنوع واستسلام وضعف وسلبية ورضا بالمذلة والهوان . . ويصل فى حالات الشذوذ إلى تلذذ بالألم الذى يحدثه الآخرون [ماسوشزم] وإلى الاستمتاع بالحياة كلها عن طريق الألم والعذاب !

وأخيراً حب البروز . .

إنه دافع خطير من دوافع البشرية . . ضرورى جداً . وخطر جداً فى ذات الوقت !

فهو المسئول — فى الحياة السوية — عن كثير من ألوان التقدم البشرى ، وكثير من ألوان الإنتاج ، المادى والفكرى والروحى سواء . .

وهو المسئول — فى حالات المرض — عن كثير من انحرافات البشرية !

حين يزيد حب البروز فهو يتخذ صوراً مختلفة ، تتشكل غالباً بشكل الدافع — أو الدوافع — الأقوى فى النفس . فحين يكون حفظ الذات هو الدافع الأقوى يتخذ حب البروز صورة الإسراف فى الطعام والشراب والملبس والمسكن . وحين يكون الجنس هو الأقوى يتخذ صورة الإسراف الجنسى

والتباهى به . وحين يكون الملك هو الأقوى يتخذ صورة الإسراف فى الملك والتباهى بالاقتناء . وحين يكون القتـال هو الأقوى يتخذ صورة التباهى بالعدوان .

ولا يمتنع أن تـكون الدوافع كلها قوية فى وقت واحد ، فيتخذ حب البروز صورة الإسراف فيها جميعاً فى وقت واحد ، على اختلاف فى الدرجات .. وفى حالات الشذوذ يصل الأمر إلى « جنون » العظمة . . وهو آخر الطريق !

وفى جميع الدوافع يختلف الجنسان قليلا أو كثيرا فى طريقة الانحراف . ولـكنهما أشد اختلافا فى دافع البروز . فقد يتشابهان — أو يتماثلان — فى انحراف الطعام والشراب أو الملك . ولـكنهما يختلفان حتما فى طريقة البروز . فالرجل يبرز بخصائص الرجولة ، والمرأة تبرز بخصائص الأنوثة [إلا إذا حدث اختلال جنسى إضافى يجعل الرجل مخنثا والأنثى مسترجلة] . .

وأشد ما تختلف فيه المرأة عن الرجل فى مرض البروز ، أنها تحب البروز بملابسها ، وفتنتها الجسدية . . ويصل الأمر فى حالات الشذوذ إلى مرض حب الاستعراض . . سواء بالملابس الشاذة أو المغرية . . أو بالعرى لاستعراض اللحم العريان .

وقدر من حب البروز فطرى كما قدمنا . وقدر من رغبة المرأة فى نيل الإعجاب فطرى كذلك ونظيف . ولـكننا هنا نتحدث عن القدر الزائد عن الحد السوى . فحب الاستعراض ليس فطرة سوية . بل مرض . وحب التعرى للفتنة الجنسية ليس فطرة [فنى الفطرة حياء جنسى] وإنمـا هو مرض . وهو مرض مستفحل فى « الحضـارة » الحديثة بصفة خاصة . وفرويد صاحب نصيب وافر فى نشر هذا المرض ، بالإضافة إلى الظروف الاقتصادية

والاجتماعية التى صاحبت الثورة الصناعية والحربين العالميتين. وانتشر الوباء إلى حد أن الإصابة به صارت شيئا عاديا لا يلفت النظر ولا يثير الإنكار. بل وصل الشذوذ إلى درجة أن الحالة السوية السليمة هى التى صارت تلفت النظر وتثير الاستنكار! ولكن انتشار الأمراض لم يكن قط مبررا لاعتبارها حالة سوية، ولا للقعود عن العلاج!

وقد بدأت الحضارة الغربية — كما قلنا — تتنبه إلى أمراضها. وفى مقدمة هذه الأمراض العمل الدائم بكل الوسائل: السينما والإذاعة والتلفزيون، على إفساد فطرة المرأة، وإقناعها بأن دورها الأصيل فى الحياة هو الإغراء!

أما النقص فى هذا الدافع فيؤدى إلى سلبية مريضة وانطوائية ونفور من العمل المثمر وانحسار عن الحياة.

* * *

أما الانحراف من جهة الضوابط فمتعدد الألوان.

وقد لا نحتاج إلى الحديث عن ضعف الضوابط.. فهو شبيه بالحديث عن زيادة الدوافع عن قدرها السوىّ. فلن تصل الدوافع إلى حد الإسراف فى الحقيقة إلا بسبب ضعف الضوابط التى تضبطها وتحدد لها مسالكها.

أما الإسراف فى عملية الضبط فهو الذى يحتاج إلى بيان.

وقد أسرف فرويد فى الحديث عن الكبت حتى خَيّل للناس أن كل عملية ضبط هى عملية ضارة مدمرة للكيان البشرى، معطلة للدفعة الحيوية عن الانطلاق... وأحسب أننا تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذا الأمر. ولكن لا بأس هنا من الاستشهاد بفرويد ذاته فى التفريق بين الضبط والكبت فى كتابه

« Three Gontributions » حيث يقول إن الكبت هو استقذار الدافع الغريزى ، وعدم اعتراف الإنسان فيما بينه وبين نفسه أن هذا الدافع يحق له أن يوجد فى نفسه . ثم قال : « وَفَرْقٌ بين هذا الكبت (اللاشعورى) وبين الامتناع عن إتيان العمل الغريزى . فهذا مجرد تعليق للعمل » .

فليس كل ضبط إذن كبتا ضارا مقلقا للأعصاب . فضلا عن كون الضبط عملية ضرورية للحياة البشرية لا تستقيم بدونها هذه الحياة . وفضلا عن أنها — كما بينا — عملية فطرية ، نابعة من كيان النفس ذاته وليست مفروضة عليها من الخارج .

إنما يحدث المرض من زيادة الضبط عن الحد المقرر ، بحيث يغلق مصارف الدافع الفطرى أو يضيّق عليها الخناق . وذلك أمر لم يأمر به الله الذى خلق الدوافع والضوابط معا ليعملا — متساندين — فى إرساء الحياة البشرية على قواعدها السليمة بلا تفريط ولا إفراط .

حين يشتد الضبط عن قدره الضرورى فإنه يمنع تدفق الحياة فى مساربها الفطرية كما ينبغى لها ..وهذا يؤدى إلى أحد شيئين: إما أن يضعف الدافع الفطرى ويذبل .. وإما أن يتفجر فى غير سبيله الطبيعى. . فى مسارب منحرفة عن الغاية الأصيلة ، أو منقلبة عليها . . وقد بيّن علم النفس التحليلى أن كثيرا من الجرائم متصل بالكبت . أى بالقمع اللاشعورى للدوافع الفطرية ، وسد المنافذ النظيفة أمامها . وإن كنا لا نؤمن بكل ما يقول به التحليليون الفرويديون كما سنبين بعد قليل .

حب الحياة هو الدافع الأكبر فى كيان الإنسان [كما هو فى كيان كل كائن حىّ] . هو السيل المتدفق فى مسارب النفس ومسارب الحياة .

والضبط المسرف الذى يخنق الدوافع الفطرية قد يفلح فى إضعاف هذا الدافع الأكبر حتى ليوشك أن يذيل ويموت . وينصرف الإنسان عندئذ عن الحياة فى زهادة يائسة لا تقبل على شىء من متاع الدنيا ولا نشاطها المعقول . وتصير الحياة فى نظر صاحبها أياما تقضى حيثما اتفق ، بلا هدف محدد ولا غاية مأمولة . ولا يخفى مافى ذلك من تبديد للنشاط وتضييع للطاقة . . ووقف كذلك لدفعة الحياة. فالآمال فى الحياة لا تتحقق إلا بالكدح المتواصل. ولايكدح الإنسان إلا لأنه يريد شيئافيسعى إلى تحقيقه. فإذا كان لايريد ، فلِمَ يكدح إلا مضطرا لمجرد المحافظة على الحياة فى أضيق نطاقاتها ؟

والفلسفة الهندوكية المتصوفة المترهبنة قائمة على ذلك : تقوية الضوابط إلى أقصى حد ممكن ، وإضعاف الدوافع كذلك إلى أقصى حد . ويقولون إنهم ينعمون بمتاع الروح . . نعم . ولكنهم يغالبون الفطرة البشرية ويحاولون أن يصنعوا منها مالم تخلق له . فتفسد حياتهم فى النهاية وتتوقف عن العمل والإنتاج والامتداد . فضلا عن عملية التعذيب الدائمة للجسد ، بمنعه من الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس [إلا قطرات من الشراب وكسر من الطعام وخرق من الملبس لا تقيم حياة إنسان] وتعذيب النفس بمنعها من رغباتها جميعاً فى الاستمتاع بالملك والاستمتاع بالبروز [النظيف] . . .

وهؤلاء الرهبان الفلاسفة مع ذلك خير بكثير من الأفراد العاديين المرضى بالإسراف فى الضبط . فإن لهم إرادة هادفة . . وإن كانوا قد ضلوا الطريق ولكن كثيراً من المرضى العاديين يفقدون حتى إرادتهم ، ويصيرون إلى سلبية ميتة لا خير فيها للحياة .

فأما حين يقوم الصراع العنيف بين القوة الضابطة والدوافع الفطرية ،

ثم لا تقدر القوة الضابطة على إماتة الدوافع أو إضعافها، وهى مع ذلك لا تصرح لهـا بالانطلاق فى مجراها الطبيعى ، فحينئذ تحدث تلك الانحرافات العديدة التى تخصص فى كشفها علم النفس التحليلى : من سلوك منحرف [سيكوباتى] وتصرفات شاذة . تصل إلى الجريمة الصريحة فى نهاية الشوط .

والـكبت الجنسى خاصـة مسئول عن كثير من السلوك المنحرف والتصرفات الشاذة ، وعن كثير من الجرائم . ولـكن ليس على النحو الذى بالغ فرويد فى وصفه وتحليله وادعائه . . فعقدة أوديب التى ألصقها بالبشرية كلها لا يوجد عليها دليل علمى . وإنمـا هى حالة مرضية شاذة تنشأ من التعلق الشديد بالأم لأسباب فردية — لا أسباب بشرية عامة. وأياً كانت الأسباب — وليس هذا مبحثنا هنا — سواء كانت قسوة الأب الشديدة ، أو تدليل الأم الزائد ، أو عدم وجود الأب ، أو نفور الطفل من سلوك شائن يتعلق به . . إلخ . . فهى حالة فردية شاذة ، قد تمنع الطفل الذكر من الاتجاه الجنسى الصحيح ، وقد تدفعه لاستقذار الجنس فى لاشعوره. وقد تدفع به إلى الشذوذ ، أو ألوان أخرى من الانحراف . كما أن التربية التى تصب فى نفوس الأطفال النفور من الجنس واستقذاره تؤدى إلى انحرافات من هذا النوع . ولـكن فرويد وأتباعه قد بالغوا فى ذلك إلى حد يفهم منه أن أى ضبط للمشاعر الجنسية أو توجيه بشأنها سيؤدى إلى تلك الانحرافات . وذلك غير صحيح . فلا بد من الضبط فى شئون الجنس كما لا بد منـه فى كل تصرف إنسانى . فى الطعـام والشراب والملك والقتال والبروز . . وإلا فـكيف نتصور الإنسان فى هذه الأمور كلها بغير ضبط ؟ ولماذا نجيز الضبط فى الأمور كلها إلا فى الجنس ؟!

هذا هو الإسراف الذى ينبغى أن نحذره ونحن نتحدث عن الـكبت الجنسى.

الكبت ضار. نعم .. في كل شيء، وفي الجنس كذلك. ولكن الضبط ضروري في كل شيء. وفي الجنس ككل شيء.. لأنه لا يزيد عن كونه دافعا فطريا في حاجة دائمة للتهذيب.

ثم إن كثيراً من الجرائم والانحرافات التي أصر فرويد على تفسيرها تفسيراً جنسيا، تحتمل تفسيرات أخرى لا جنسية. ولكنه — في إصراره على تلويث البشرية كلها بلوثة الجنس — كان يرفض أي تفسير لا يدخل فيه الجنس!

فكراهية الأب — المكبوتة — التي قد تؤدي في نهاية الشوط إلى جريمة القتل، ليس من الضروري على الإطلاق أن ترتبط بعشق الأم! فهي وحدها تحمل مبرراتها وخط سيرها الذاتي! وقد تقترن بالالتصاق بالأم، نعم. ولكنها كذلك قد لا تقترن. ولا تحتاج إلى دافع إضافي لتصل إلى الجريمة! ولكن كيف يترك فرويد فرصة لإدخال الجنس في الموضوع ولا يستغلها؟! وكيف يؤدي إذن مهمته الأصيلة في تلويث البشرية؟

ثم.. لقد أغفل الكبت الاقتصادي والكبت السياسي والكبت الاجتماعي إغفالا كاملا من الموضوع! وهي — كالكبت الجنسي — مسئولة عن كثير من الجرائم وكثير من الانحرافات.

أوليس الفقر — وهو كبت قهري لرغبة الملك — مسئولا عن انحرافات كثيرة فيها الحسد والحقد، والسرقة والنهب والغصب والقتل والتشرد النفسي.. أي إباء الاندماج في الجماعة والسلوك الصالح معها؟

والكبت الاجتماعي أو السياسي — أي كبت الرغبة السوية في البروز — أليس مسئولا عن انحرافات كثيرة منها الميوعة والتفاهة والتعلق « بالتقاليع »

الفارغة لتحقيق البروز من غير طريقه السليم . ثم الجريمة كذلك لتحقيق نفس الهدف . . للوصول إلى الشهرة والذكر بين الناس ؟ !

نعم . إن كل أنواع الكبت ضارة . سواء كان العامل فيها أمراً خارجا عن الإرادة - كالقوة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو سلطة الوالدين - أو كانت عوامل شخصية يقوم بها صاحبها نتيجة اقتناع خاطئ . ولكن القول بأن كل الكبت كبت جنسي ، أو بأن الكبت الجنسي وحده هو المسئول عن كل انحرافات الأرض . . فقول لا يصدر إلا عن شخص شاذ مريض !

ومن نتائج الكبت كذلك — أحيانا — الصراع الدائم في باطن النفس ، الذي يجعلها كمناطق البراكين والزلازل عرضة للهزات الدائمة والانفجارات . . وعرضة للتشقق والانفصال أحيانا كما يحدث في حالة الفصام [الشيزوفرينيا] وازدواج الشخصية ، الذي يجعل الإنسان شخصين منفصلين ليس بينهما ارتباط.

* * *

وأخيرا نتحدث عن النوع الأخير من المرض النفسي الذي ينشأ من توقف النمو عند مرحلة نفسية معينة ، أو عدم تكامل النضوج في جميع أجزاء النفس .

فالمفروض أن تنمو النفس نموا دائماً حتى تصل إلى مرحلة النضوج والاستقرار ، كما يستمر نمو الجسم إلى أقصى درجات الاكتمال المتاحة له ، ثم يثبت على ذلك فترة طويلة لا تصيبه إلا تغيرات طفيفة ، حتى تصيبه الشيخوخة في نهاية المطاف . ولو تصورنا جسما لا ينمو مع السن فيقف عند مرحلة الطفولة أو المراهقة أو الشباب المبكر غير المكتمل . . أو تصورنا جسما ينمو في جميع أجزائه إلا جزءاً واحداً أو بضعة أجزاء تظل على حالة الطفولة [كالمصابين بشلل الأطفال في عضو من أعضائهم] . . إذا تصورنا

هذه الصورة أمكن أن نتصور ما يقابلها فى عالم النفس ، إذا توقف النمو النفسى كله عند مرحلة معينة ، أو تكامل النمو فى أجزاء من النفس دون أجزاء .

والنفس تتعرض لهذين المرضين لأسباب مختلفة ، قد يكون من بينها قسوة المعاملة فى أثناء الطفولة وقد يكون التدليل الشديد ! فكلا الطرفين المتطرفين يعرض النفس للاختلال ! أحدهما يضيق مجارى الدفعة الحيوية ويضع لها قيودا حديدية فتظل ضامرة [كأقدام الصينيات فى الأجيال الماضية التى كانت توضع فى قوالب معدنية منذ الطفولة فتظل على وضع الطفولة مدى الحياة ، وتعجز بطبيعة الحال عن حمل الجسم !] والثانى — وهو التدليل — يعوّد النفس الاسترخاء فتترهل ولا تنمو . . كالطفل الذى يحمله أبواه باستمرار ، لا تنمو عضلات رجليه ولا يشتد عوده ولا يتعود المشى وتحمل المشاق . وقد يكون السبب — بغير تدليل — حمل المسئوليات كلها عن الطفل ، وتعويده على أن يقوم غيره بأمره باستمرار ، فلا تعركه التجربة الذاتية التى هى الوسيلة الوحيدة لتدريب « عضلات النفس » وتقويتها . . أو قد تكون صدمات نفسية عنيفة تجعل الشخص يتشبث — لاشعوريا — بفترة نفسية معينة لايريد أن يغادرها ، أو يرتد إليها بعد أن يكون قد غادرها ، ليهرب من مواجهة واقع سيء لا يقدر على مواجهته أو تغييره . .

وأياً كانت الأسباب — ولسنا هنا بصدد بسطها وشرحها — فهى تحدث وقفاً كاملا أو جزئيا فى النمو النفسى . فتجد إنسانا بالغا يتصرف تصرفات الأطفال أو تصرفات المراهقين . . فلا يقدر المسئولية فى أعماله ، أو يعبث عبثا صبيانيا لا يليق بالكبار ، أو يندفع اندفاعات عاطفية مفاجئة كأيام المراهقة .

أو قد تجد إنسانا يتصنع التعب أو المرض أو الحزن أو الألم لتدلله وتعطف عليه . . وتراه يستبقى دائماً سبباً لاستدرار العطف ، فإذا مرض لا يحب أن يشفى من قريب ! وإذا وقع فى أزمة يحب أن تطول إلى أقصى مدى — ولو ضايقته ! — لأنها تثير عطف الناس عليه !

أو تجد رجلا همه — كالمراهقة المنحرفة — أن يوقع الفتيات فى هواه ! وينفق جهده وماله فى تجميعهن حوله بالهدايا والتزين فى الملبس ليبدو وجيهاً فى أنظارهن ! أو امرأة همها إيقاع الشبان . . تتزين لهم وتستعرض نفسها أمامهم لتعجبهم . . إلى غير ذلك من أمثال هذه التصرفات . .

ثم . . قد تجد إنسانا عاقلا راشدا فى كل تصرفاته إلا نقطة معينة ، هى نقطة مرضه التى يشابه فيها الطفل أو المراهق . . وغالبا ما يكون فى هذه الحالة واعيا لنقطة المرض فيه ، فيحاول أن يداريها ، أو يواجهها بصراحة على أنها « نقطة ضعف » فيه ! وغالبا ما يستطيع كذلك أن يحافظ على اتزانه — رغم وجود نقطة الضعف هذه — لأن القوة الواعية الضابطة تكون فى مجموعها أكبر من دفعة الانحراف .

وأخيراً قد تجد إنسانا كان سويا فى كل شئ ، ثم أصابته صدمة نفسية عنيفة فأفقدته توازنه . . فعاد — من حيث لا يشعر ومن حيث لا يَقْدِرُ — إلى حالة طفولة أو حالة مراهقة . . ولا تدخل هذه الحالة فى نطاق المرض الواعى الذى يملك الإنسان تغييره أو « ينبغى » عليه تغييره . إنما تحتاج إلى علاج نفسى خاص . .

* * *

تلك جملة الانحرافات التى تتعرض لها النفس الإنسانية فى مراحل نموها المختلفة . . وقد تحدثنا عن أعراضها ولم نتحدث عن أسبابها إلا فى إشارات عابرة ، لأن ذلك مبحث متخصص ليس مكانه الكلام عن نظرية عامة فى النفس الإنسانية . . ولكنا نردف تلك الإشارات العابرة بكلمة أخرى موجزة عن أسباب الانحراف بصفة عامة ، وهى أربعة أنواع من الأسباب .

* * *

أول الأسباب وأكبرها هو سوء النظام الذى يحكم المجتمع ، ويعدى — بالقدوة السيئة — فى أثناء مراحل النمو والالتقاط . . يدخل فى ذلك النظام الروحى والفكرى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى . . على الاتساع .

وكل فساد فى النظام ينعكس حتما على الأفراد ، وعلى الأطفال بصفة خاصة فى مرحلة التكوين . وما دامت العزلة غير مستطاعة ، فلا يمكن حماية الطفل من انعكاسات الفساد فى المجتمع إلا بجهد تبذله التربية المنزلية . فإذا لم تقم التربية بهذا الجهد ، وهى غالبا لا تقوم ما دام الفساد هو الغالب على النظام ، فلا مناص إذن من العدوى والمرض والانحراف .

* * *

النظام الفكرى والروحى الذى لا يؤمن بالله ولا يسير وفق هدى الله . الذى يعبّد البشر للبشر ، ولا يدعهم يعبدون الله وحده ويستمدون منه وحده ، فيحرمهم من فطرتهم الطبيعية فى عبادة الله ويستبدل بها عبادة العباد . . الذى لا يؤمن بالقيم العليا ولا يؤمن بضرورة الضوابط فى حياة الإنسان . . والذى يبيح الفوضى الجنسية على أنها انطلاق وتحرر ، ويبيح الأنانية والأثرة على أنها حرية شخصية . .

النظام الاقتصادى الذى ينشر الفقر فى جانب والترف فى جانب آخر . .

النظام الاجتماعى الذى لا يعطى الفرد وضعه الصحيح فى المجتمع ، فيضخم كيانه على حساب المجتمع أو كيان المجتمع على حسابه . .

كل هذه الأنظمة الفاسدة لابد أن تطبع بطابعها المنحرف كيان الأفراد . . ولابد أن يلتقط الطفل توجيهها الفاسد بغير وعى ، وينشأ على أنها وضع طبيعى لا انحراف فيه . .

صحيح أن الفطرة البشرية — بقوتها الذاتية التى أودعها الله فيها — تثور بعد أمد على هذه الانحرافات ، حين تذوق نتائجها الفاسدة ، وتحس بالتعارض القائم بينها وبين هذه الانحرافات . . ولكن هذه عملية طويلة بطيئة الأمد ، قد تستغرق أجيالا بعد أجيال . . وفى أثناء هذه الأجيال كلها يكون الناس عرضة للانحرافات ما لم يعصمهم عاصم من اقتناع شخصى بخط الفطرة الأصيل .

* * *

وسوء التربية من أكبر أسباب الانحراف . فالتربية هى الوسيلة الوحيدة للتقويم . وحين يترك الطفل بلا تقويم فهو عرضة على الدوام لأن يصيبه أى انحراف من تلك الانحرافات المتعددة التى بيناها فى هذا الفصل . . حتى بدون أسباب خارجية أو قاهرة . . فالدفعات الفطرية ذاتها إذا لم تنظمها الحواجز والضوابط ستنشأ طاغية لا محالة . . لأنها لم تتعود على الضبط ، ولأن جهاز الضبط لم ينمُ ليقوم بمهمته . وقد بينا بوضوح أن الضوابط — ولو أنها فطرية — فى حاجة إلى معونة خارجية لتنميتها . كما يحتاج المشى والنطق . وتلك مهمة التربية . فإذا لم تقم التربية بمهمتها فى تنمية الضوابط ، فكل انحرافات الدوافع يمكن أن توجد بصورة تلقائية ودون أى سبب إضافى ! كالأشجار التى لابد أن تقلم وتشذب لكى تثمر . . إذا تركت بلا تقليم ولا تشذيب فلن تحمل الثمار . .

وذلك أبسط ما يمكن أن ينشأ من سوء التربية . . أو فى الحقيقة من عدم التربية ! ولكنه ليس النتيجة الوحيدة . ففى إمكان سوء التربية أن يزرع فى النفس أمراضا لم تكن لتوجد بطبيعتها لولا سوء التوجيه .

فعن طريق القدوة السيئة أو التوجيه الفاسد يمكن تنمية الحسية المفرطة أو السلبية المفرطة أو الفردية المفرطة . . أو العكس . ويمكن تربية الطفل على الانطوائية المريضة أو الجرأة المتبجحة . ويمكن أن يوقف نموه عند درجة معينة لا يتعداها ، أو يُشل جزء من نفسه عن النمو والنضوج .

وهكذا وهكذا . . كل الانحرافات يمكن أن تحدث من سوء التربية ، كما أن كل الانحرافات يمكن أن تقوّم عن طريق التربية السليمة الراشدة الواعية الدائبة . . وهى المهمة الحقيقية للوالدين .

* * *

وهناك الاستعداد الوراثى للانحراف . . فقد يولد الطفل باستعداد وراثى لعنف الدوافع الفطرية أو عنف الضوابط ، أو عنف الحسية أو المعنوية ، أو عنف السلبية أو الإيجابية ، أو عنف الواقعية أو الخيالية ، أو الفردية أو الجماعية . . الخ . . الخ . . وهذا الاستعداد الوراثى لا حيلة للطفل فيه . . فهو مفروض عليه ، يحمله فى « جينات » الوراثة من قبل الميلاد . ولكنه مع ذلك ليس أمرا حتميا . والتربية هى صمام الأمن ضد هذا الاستعداد . وهى كفيلة بتصحيحه وتوجيهه الوجهة الصحيحة ، بشئ من التعب والدأب واليقظة الدائمة والانتباه .

فالمعروف طبيا أن أبناء المدخنين أو المدمنين على الشراب يولدون وفيهم استعداد وراثى للتدخين أو تعاطى الشراب . ولكنه ليس حتما أن يصبحوا

كذلك ! ومن الممكن جدا أن ينجوا من الخطر ويصبحوا أشخاصا عاديين أسوياء ، حين يجدون التوجيه السليم ، أو فقط حين لا يجدون المغريات التى تدفع بهم فى هذا السبيل .

والاستعداد النفسى للمرض شأنه شأن هذا الاستعداد سواء . ليس حتما أن يصيب الطفل لو وجد التوجيه والتصحيح .

* * *

والسبب الأخير هو العيوب الجسمية الخِلْقية والتشوهات التى تشعر الطفل بالنقص فيحاول التعويض فينحرف فى محاولة التعويض . ومنذ القدم لاحظ الناس أن « كل ذى عاهة جبار » . وهو قول صحيح وإن لم يكن على إطلاقه.. فمحاولة التعويض عن النقص مسألة فطرية يقوم بها الجسم ذاته — آليا — كما تقوم بها النفس . فالذى تنقصه إحدى الحواس يعوضها — فى الغالب — بحاسة أخرى . الأذن تعوض العين . والعين تعوض النطق . . وهكذا . ثم وجد أنه حين تستأصل إحدى الكليتين لمرض يصيبها يتضاعف نشاط الكلية الأخرى لتعوضها ، وحين تستأصل اللوزتان تنمو الغدد الصغيرة القريبة منها كأنما لتعوض مكانها . وهكذا .

والنفس كذلك تتجه — بلا وعى تقريباً — إلى تعويض النقص . ومن هنا يتجبر ذو العاهة ليشعر الناس أنه قوىّ ، وأن عاهته لم تنقصه عن البشر العاديين ! ويبالغ فى ذلك — لأن النقص يوجعه — فيصل إلى التطرف المريض .

ولكن ذلك ليس حتما . . فليست هناك وسيلة واحدة حتمية للتعويض هى الانحراف . بل هناك عشرات الوسائل النظيفة الخيّرة المستعلية التى يعوض بها الناقصون نقصهم . فقد يصبح فناناً . وقد يصبح عالماً بارعاً .

أو عاملا ماهراً . أو شخصاً نبيل العواطف حى المروءة ، يعوض بفيض مروءته ما يحس به من نقص ، فينال من حب الناس واحترامهم وإعزازهم ما يكفل له التعويض المطلوب . . أو يكون قوىّ الشخصية — فى غير انحراف — ينال بالمهابة — السوية — ما يعوض عن ضآلة الحجم — مثلا — أو عن عيب خِلقى فيه ، فتكون المهابة وقاية له من تفحّص الناس للعيب وتقحّمهم له .

والتوجيه السليم فى التربية هو المعين الأكبر على توقى مثل هذه الانحرافات ، وإتاحة الفرصة للتعويض الخيّر السليم .

* * *

تلك جملة الانحرافات وأسبابها العامة . . وطريقة الوقاية منها — وكذلك طريقة علاجها — هى تتبع خط الفطرة السوية وتقويم النفس — فى مرحلة الطفولة خاصة — على هدى الفطرة السليمة السوية .

وليس هذا كتاباً فى التربية . . وإنما نحن هنا ندرس فقط ظواهر النفس المختلفة فى حالة السواء وحالة الانحراف[1] .

وينبغى — قبل أن نختتم هذا الفصل — أن نشير إلى موقف علم النفس الغربى من موضوع الانحراف والشذوذ .

لقد بالغ علم النفس الغربى مبالغة شديدة فى تصوير بعض أنواع الانحراف ، بينما أغفل إغفالا معيبا أنواعا أخرى من المرض تبلغ أحيانا درجة الشذوذ ، لأن الغرب لا يحسبها على أنها أمراض ، وهو غارق فيها إلى

(١) انظر فى موضوع التربية كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

الأذقان . كما أضاف إلى قائمة المرض حالات سوية لأنها لا تعجبه فى انتكاسه الحاضر ولا ينظر إليها بعين الارتياح !

لقد بالغ علم النفس الغربى مثلا فى تصوير الانحرافات التى تنشأ عن شدة الضبط — أو الكبت — حتى كاد يوحى بأن الضبط ذاته عملية ضارة لاينبغى القيام بها ، وأن الأطفال لاينبغى أن يوجَّهوا خوفا من العقد النفسية التى يمكن أن تصيبهم ، وإنما يكون التوجيه — إذا لزم الأمر — من بعيد جداً وعلى حذر شديد !

ثم خرج على ضوء هذا « العلم » جيل مائع رخو متحلل من الأمريكان ، هو الذى شكا منه كنيدى خشية على مستقبل أمريكا ، وطلب تربية جادة تزيل هذا الترهل الخطر والميوعة المتحللة !

وفى الوقت ذاته أغفل علم النفس الغربى إغفالا يكاد يكون تاما كل الانحرافات التى تنشأ من عدم الضبط ، أو من الإفراط فى مسايرة الدوافع الفطرية ! ولم ير فيها انحرافاً على الإطلاق !

ونعت ظروف محلية كثيرة فى أوربا قد أدت إلى هذا الوضع . وكان فرويد أحد العوامل الرئيسية فى هذا الاتجاه ، كما أن الثورة الصناعية والحربين العالميتين وما أحدثتا من تدمير للقيم والمعتقدات ، و « انفلات » من القيود ، كانت كلها أسبابا لتبرير هذا الانحراف فى نظر الغربيين . . ولكن هذا كله قد يفسر ولكنه لا يبرر ! فلا شئ يبرر الانحراف !

كذلك لم يضع علم النفس الغربى فى حسابه وهو يشخص الأمراض النفسية أن نقص الاتجاه الروحى أو انعدامه ، هو من الأمراض التى تصيب النفس ! لأن الغرب كله واقع فى هذا المرض حتى لم يعد ينكر وقوعه !

ولم يضع فى حسابه كذلك أن الواقعية المفرطة ، أو الإيمان المفرط بما تدركه الحواس أمراض نفسية ينبغى أن تعالج . . لأن الغرب واقع لقمته فى هذا الانحراف !

ولم يضع فى حسابه أن إيمان الإنسان بمثل وقيم مثالية معلقة فى الفضاء ، وجريان سلوكه الواقعى بعيداً عن تلك المثل والقيم مرض يفكك الشخصية فى النهاية . . لأن الغرب كله مصاب بهذا التفكك الوبيل !

ولم يضع فى حسابه أن الابتعاد عن الله ، والاستنكاف عن عبادته ، و « التحرر » من التزامات العقيدة أمراض نفسية لا وجود لها فى الفطرة السوية . . لأن الغرب كله واقع فى هذا الداء[1] !

ولم يضع فى حسابه أن السعار الجنسى مرض ، وأن خروج المرأة للفتنة والإغراء شذوذ بالنسبة للفطرة .. لأن الغرب صار يرى — فى نكسته المقلوبة — أن هذه هى الفطرة وما عداها شذوذ !

وفى الوقت ذاته صار ينظر إلى الإيمان بالغيب على أنه انحراف عن الواقعية لا ينبغى أن يقع فيه الأسوياء ! وإلى العفة الجنسية على أنها انحراف وكبت لا يلجأ إليه الشخص السوى فتى كان أو فتاة !

وهكذا تنقلب الموازين فى حساب « العلم الموضوعى » الذى لا يتحيز ولا يتأثر بالمسائل الشخصية والاتجاهات الذاتية ! !

* * *

إن عيب هذا العلم أنه لا يتتبع الفطرة البشرية ذاتها ليتخذ منها الأوزان والمقاييس . . وإنما يأخذ أحكامه وقيمه وموازينه من واقع جيل منحرف

---

(١) راجع فصل « الدين والفطرة » فى هذا الكتاب .

أثرت فيه عوامل محلية — ومؤقتة — فأخرجته عن صوابه وانحرفت به عن السبيل .

والعلم — نور الإنسانية الهادى ! — ينبغى أن يكون أوسع أفقاً من واقع جيل .. أى جيل . ينبغى أن يجعل فى حسابه الأجيال كلها ، والبشرية كلها .. وأن يتجاوز النكسة الحاضرة ويخرج من إسارها ، إن كان فى مكنته حقاً أن يفعل ، ويكون « موضوعياً » حقاً كما يقول .

إن مرجع الحكم على الإنسان .. هو الإنسان ! الإنسان فى واقعه الأكبر الشامل المحيط ، الذى يشمل كل جوانب النفس لا يهمل منها شيئاً ولا يستصغر منها جانباً ، ولا يتحيز لجانب دون جانب[1] .

والانحراف والشذوذ ينبغى أن يقاسا بمقياس الفطرة السوية المتكاملة ، لا بمقياس جيل معين ، منحرف شديد الانحراف . . .

وحين نهتدى إلى الفطرة — كما خلقها الله — فى تكاملها العجيب وتناسقها الدقيق ، ستتبين لنا على الفور أماكن الانحراف والشذوذ ، وطريقة التقويم ، بغير كد ولا افتعال ولا تزوير . .

(١) انظر فى أواخر الكتاب فصل « التفسير الإنسانى للإنسان » .

الخير والشر فى النفس البشرية

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ،
قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .
صدق الله العظيم

ما الخير وما الشر فى حقيقة الواقع ؟

وما المقياس الذى تقاس به هذه القيم فى حياة الإنسان ؟

إن هذا الموضوع بالذات طالما تخبطت فيه الفلسفات المختلفة منذ بدء التفكير البشرى إلى اليوم ، واختلف فيه الفلاسفة والمفكرون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وأدلى بدلوهم فيه الفلاسفة المثاليون والواقعيون والتجريبيون والماديون والروحيون . . وكان من بين من أدلى فيه بدلوه : التفسير المادى للتاريخ ، الذى زعم أن « القيم » غير ثابتة ، ولا يمكن أن تكون ثابتة . . لأنها تُستمد من « الطور » الاقتصادى والاجتماعى الذى يكون فيه الإنسان ؛ وما دامت الحياة الاقتصادية والاجتماعية متطورة على الدوام ، فالقيم لا بد أن تكون متطورة معها ، غير ثابتة على وضع من الأوضاع . وأن ما يعتبر خيراً فى لحظة قد يصبح شراً فى لحظة أخرى . وما يكون « قيمة » فى طور من الأطوار قد يصبح لا قيمة له ، حين يفقد الرصيد الاقتصادى والاجتماعى الذى أعطاه قيمته . . فالطور الإقطاعى مثلا ينشئ قيمه الخاصة ، الخلقية والفكرية والروحية ، ومن بينها التدين والمحافظة الشديدة على كيان الأسرة ، والتعاون والتكافل فى المجتمع ، والفروسية وما حولها من تقاليد وأخلاق ،

وسيطرة الأب والزوج وتشددها فى وضع « القيود » الخلقيـة على المرأة . .
الخ . . الخ . وذلك كله ناشئ — فى نظر التفسير المـادى للتاريخ — عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الزراعى الإقطاعى ، لا لأن شيئاً من ذلك ذو قيمة ذاتيـة ثابتة . . ثم يتطور المجتمع فينتقل من الإقطاع إلى الرأسمالية فتذوب « القيم » السابقة كلها وتنشأ قيم جديدة متمشية مع الطور الاقتصادى الجديد . . فيذهب عن الناس تدينهم ، ويصبح عدم التدين « قيمة » ناشئة من المجتمع الجديد ومتمشية مع تطوراته ! ويذهب عنهم المحافظة على تقاليد الأسرة ، ويصبح تفـكك الأسرة وانحلال روابطها قيمة جديدة « تطورية » وتقدمية ! وتذهب عنهم أخلاق الفروسية ويحل محلها شعور فردى أنانى يبحث عن صالح نفسه فى عزلة عن الآخرين ، ولا يؤمن بالمروءة والنخوة والبذل . . ويصبح ذلك كله قيمة اجتماعية جديدة ، تطورية تقدمية ! وهكذا ! وإن كان فلاسفتهم يزعمون أن الطور الأخير للبشرية — حين تصل إليه — وهو الطور الشيوعى ، سيكون طورا ثابتا (لِمَ ؟) وستـكون قيمه ثابتة !

وأدلى بدلوه كذلك التفسير الجنسى للسلوك البشرى ، الذى أقامه فرويد وحواريوه ، والمستمد فى الأصل من التفسير المادى الحيوانى للإنسان الذى أقامه دارون من قبل . . وزعم هذا التفسير أنه لا توجد قيم على الإطلاق فى نفس الفرد ! فهو محكوم بغرائزه أبدا [وبغريزة الجنس بصفة خاصة فى نظر فرويد] وأن هذه الغريزة تسعى إلى الحصول على اللذة والهروب من الألم . . وأن هذه هى « القيمة » الوحيدة فى كيان الفرد . . وهى قيمة غير خلقية . وإنما الأخلاق والتقاليد والقيم الخلقية كلها مفروضة على الإنسان من الخارج — من المجتمع — ومن سلطة الأقوياء الذين يريدون أن يخضعوا الضعفاء لسلطانهم ، فينشئون لهم قيودا قهرية يحددون بها سلوكهم ، وتلك هى القيم الاجتماعية والخلقية والدينية !

وأدلى بدلوه كذلك التفسير الجمعى للسلوك البشرى — يمثله دركايم وحواريوه — وهو قريب من التفسير المادى للتاريخ من إحدى نواحيه . . وهى زعمه أن القيم كلها ينشئها « العقل الجمعى » دون أن يستشير فيها الأفراد أو يخضع لميولهم ورغباتهم ، أو يرتكز بالضرورة على شئ فى داخل كيانهم . وأن هذا « العقل الجمعى » متطور على الدوام متغير ، ومن ثم فهو يغيّر قيمه باستمرار ، ويُخْضِعُ لها الأفراد بالقوة القاهرة ، الناشئة من أن الفرد بمفرده لا يستطيع أن يقف أمام سطوة المجتمع ، وأنه ينشأ مطبوعا بطابعه أراد أم لم يرد . . والقيم على أى حال غير ثابتة ، لأن العقل الجمعى لا يثبت على شئ إلا ريثما يتحول عنه إلى وضع جديد . . !

وثمت مذاهب أخرى شتى . . متشعبة حسب مزاج أصحابها وتصورهم لحقائق الحياة .

وقد ناقشت هذه المذاهب كلها أو بعضها فى الكتب الأخرى[1] ، ولن أناقشها هنا تفصيلا . . ولكنى أكتفى بأن أقول إن موضع الخلل فيها جميعاً أنها تنشئ أفكارها بعيداً عن الفطرة البشرية فى واقعها الحقيقى ، وتتخيل أشياء لا صلة لها بهذا الواقع . . أو تتخيل صورة منحرفة لهذه الفطرة تبنى عليها أفكارها ومذاهبها . . أو قد تهتدى إلى حقيقة جزئية فى الكيان البشرى ، فترسم على أساسها صورة جزئية غير شاملة للكيان كله ، ومن ثم تخرج صورة مشوهة لا تعبر عن حقيقة الإنسان .

ومعظم هذه المذاهب يركز على حقيقة الجسد ، وينفى أو يستصغر حقيقة الروح ، وحقيقة ارتباط الروح بالجسد فى كل نشاط يقوم به الإنسان .

---

(١) كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » وكتاب « معركة التقاليد » وكتاب « منهج الفن الإسلامى » .

التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ يريان الحياة كلها من خلال ضرورات الجسد القاهرة ، من خلال حاجة الإنسان إلى المأكل والمسكن والجنس ، وسيطرة هذه الحاجات على سلوك الإنسان . ومع ذلك فهما — بعد هنيهة — ينسيان وجود الإنسان كلية ، ويقيسان الحياة من خلال القيم الاقتصادية « المستقلة عن إرادة الإنسان » [كما يقول ماركس] والتى تفرض نفسها فرضا على حياة الناس . وكأنما يتصورونها قائمة بذاتها ، وإنما تتخذ الناس فقط إطارا لقوتها ومظهراً لتحققها ! ! [كما يتصور المؤمنون قوة الله !]

والتفسير الجنسى للسلوك البشرى كذلك يرى الحياة كلها من خلال ضرورات الجسد ، ولكنه يحصرها فى ضرورة الجنس ، ويجعل الحياة كلها تنبثق من هذه الضرورة . وينفى حتى تأثير العوامل الاقتصادية والبيئية وتطور أساليب الإنتاج . . التى هى عماد التفسير المادى للتاريخ .

والتفسير الجمعى يتخيل — مثل التفسير المادى — وجود قوة مستقلة عن كيان الفرد قائمة بذاتها ، كأنما بغير إطار ! ! وكأنما تتخذ الأفراد مجرد إطار لقدرتها ! وهو بذلك يلغى ما للإنسان الفرد من حرية واختيار . . أى أنه فى الحقيقة يشارك التفسيرين الآخرين فى إهمال الجانب الروحى من الإنسان ، الذى تتمثل فيه الإرادة والإيجابية والاختيار . .

كلها اختلالات . .

ولا تقل عنها اختلالا تلك المذاهب المثالية التى تركز على حقيقة الروح وحدها ، وتنفى أو تستصغر حقيقة الجسد ، وحقيقة ارتباط الروح بالجسد فى كل نشاط يقوم به الإنسان .

المذاهب البوذية والهندوكية وما شابهها ، التى ترى أن « الخير » هو سحق

الجسد أو كبته وحرمانه ، بحجة تطهيره ، وأن القيم الروحية وحدها هى الحقيقة الجديرة بالاتباع . . تنسى كلها أنه لا وجود فى كيان الإنسان للروح الخالصة الصافية التى يتخيلونها ، وأن كل حركات التجويع والإنهاك والتحكم فى الجسم — على كل ما تأتى به من « معجزات » روحية ، كأولئك الذين يدخلون النار فلا يحترقون ، أو يظلون بلا طعام شهورا ولا يموتون ، أو يسيطرون بقوتهم الروحية على قوانين المادة — كل ذلك لا ينشئ مذهبا اجتماعيا ، ولا يصلح للتطبيق فى الحياة البشرية « على الاتساع » . ومن ثم فكل ما تحمله تلك المذاهب من « القيم » لا يعيش فى عالم الواقع ، وليس له رصيد من الحق يعطيه قيمة فى الحياة .

والمذهب الحق هو الذى يتمشى مع الفطرة الحقيقية للإنسان ، ويعيش كذلك فى واقع الإنسان .

فطرة الإنسان جسم وروح مترابطان ممتزجان . ومن ثم فكل مذهب يريد أن يتمشى مع الفطرة ينبغى أن يكون شاملا لهذين العنصرين ، وشاملا لهما فى حالة ارتباط وامتزاج .

ولكن . .

من الذى يحكم هذا المزاج المترابط من قبضة الطين ونفخة الروح ؟

تحكمه قبضة الطين ؟ أم تحكمه نفخة الروح ؟

هذه هى المسألة التى تحدد « القيم » كلها فى حياة الإنسان .

إنها ليست — بادئ ذى بدء — مسألة الفصل بين الجسم والروح . . .

إن الله قد خلق الإنسان على هذه الصورة ، لأنه — سبحانه — يريده على هذه الصورة ! وجعل الخير كل الخير بالنسبة للوجود الإنسانى أن يعمل الإنسان

بكيانه المجتمع المترابط ، لا بأي من عنصريه دون الآخر ، ولا بالعنصرين منفصلين كل يسير فى اتجاه .

إنما هى فقط مسألة من يحكم هذا المزاج المترابط المكون من الطين والروح ..

وهنا ترجع المسألة إلى « النشأة التاريخية » للإنسان . . كيف صار إنسانا ، ومتى صار . .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » .

هذه أولا قبضة الطين تُسَوَّى جسدا . ثم تنفخ فيه الروح العلوية . وهنا .. هنا فقط يلتزم الملائكة بالسجود — خضوعا لأمر الله — ولم يأمرهم بالسجود للجسد المسوَّى على هيئة الإنسان . . وإنما بعد نفخة الروح العلوية فيه . .

« فالقيمة » إذن فى كيان الإنسان لم تنشأ من قبضة الطين . لم تنشأ من الوجود الجسدى . .

وإنما نشأت القيمة حين تلبست نفخة الروح بقبضة الطين فغيّرت طبيعتها ، فشفّت بالمعرفة والإدراك والإرادة والاختيار . . ولم يعد فيها ما كان فيها من قبل من صفاقة وعتامة وانطماس .

تلك هى النشأة التاريخية . . .

أى أن الإنسان يكون على فطرته الحقة — وهو مزاج مترابط من الجسد والروح — حين تمنحه الروح المعرفة والإدراك والإرادة والاختيار . . أى حين تحكمه الروح .

ولا يكون على فطرته السوية — وهو مزاج مترابط من الجسد والروح —

حين يـكون الجسد هو الحا كم ، فيطمس إشعاعة الروح وشفافيتها ، ويحجب المعرفة والإدراك والإرادة والاختيار .

هو فى كلتا حالتيه مزاج مجتمع مترابط . . غير منفصل الأجزاء [ولا يحدث هذا الانفصال أبدا إلا إذا حدث اختلال فى كيان الإنسان] ولـكن هذا المزاج يـكون محـكوما بالجسد تارة ، وتارة يكون محكوما بالروح .

ونعبر عن ذلك بقولنا إنه يـكون شريرا تارة وخيّرا تارة .

شريرا حين يحـكم الجسد مزاجه المجتمع المترابط ، وخيّرا حين تحـكم الروح هذا المزاج .

وليس هذا حـكما تعسفيا مفروضا على الإنسان من خارج كيانه . وإنما هو الحـكم الذى يتمشى مع حقيقة الفطرة ، ومع النشأة التاريخية للإنسان .

والخير والشر بذلك يصبحان ذَوَىْ مفهومين واضحين محددين لا يلتبسان ولا يحـار فيهما الإنسان .

حين يحـكم الجسد هذا المزاج المجتمع المترابط فما الذى يحدث ؟

إنه لا يلغى وجود الروح . ولـكنه يطمس عليها بعتامة الطين ، فتختنق وتُـكْبتُ إشعاعاتها التى تمنح الطين خفة وشفافية وانطلاقاً .

الجسد يريد يأكل ويشرب و « يستمتع » . .

وليس هذا «حراما» فى ذاته . ولـكنه ، حين يصير الجسد هو المسيطر ، ينقلب إلى « فاحشة » لأنه يزيد على القدر السليم المعقول الذى لا يعطب الـكيان ولا يفسد « الجمال » الواجب فى حياة الإنسان .

فما دام الجسد هو المسيطر ، فسوف يسعى إلى الطعام إسرافا ، وبغير

توخٍّ للنظافة والطهارة فى اكتسابه ، وبغير تحرز من ظلم الآخرين فى سبيل الحصول عليه . . فينشأ عن ذلك الشر .

وما دام الجسد هو المسيطر فسوف يسعى إلى الجنس إسرافا وبغير توخٍّ للنظافة والطهارة فى الحصول عليه ، وبغير تحرز من الاعتداء على أعراض الآخرين خلسة أو جهارا . فينشأ عن ذلك الشر[1] .

وما دام الجسد — بنوازعه — هو المسيطر فسوف يسعى إلى السلطان إسرافا ليحقق لنفسه المتاع ، وليضمن لنفسه الفائدة ، دون توقٍ لظلم الآخرين وسحقهم إذا وقفوا فى الطريق . . فينشأ عن ذلك الشر .

وصحيح أن شهوة السلطان تبدو أحيانا شهوة « نفسية » لا صلة لها « بالجسد » إذ تستولى على أفراد لا همّ لهم فى الطعام والشراب أو الجنس ، أو المتاع الجسدى على وجه العموم . . كما يحدث فى الطغاة « المتقشفين » من أمثال هتلر وستالين . . وأن هذه الشهوة هى تضخيم « للإرادة » فى كيان فردٍ مختل ، أى تضخيم لسمة هى أصلا من سمات الروح .

---

(١) الجدل كله حول القيم الأخلاقية كامن فى هذه النقطة . إذ يرى التطوريون والتقدميون أنه لا شر فى الانطلاق الجنسى ولو وصل إلى آخر الحدود ! والمسألة — فيما أرى — لم تعد فى حاجة إلى جدل ! فالأمم التى أباحت هذا الانطلاق الجنسى هى ذاتها التى بدأت تصرخ اليوم محذرة من نتائجه الخطيرة . وفى سنة واحدة [١٩٦٢] صدر تصريحان خطيران أحدهما من خروشوف زعيم روسيا الشيوعية يقول فيه إن الشباب الروسى مائع منحل متفكك غارق فى الانحراف ، وأنه لا يؤتمن — بذلك — على مستقبل روسيا ! والآخر من كنيدى حاكم الولايات المتحدة يقول فيه إن الشباب الأمريكى شباب تافه تأكله المتع الجسدية الزائدة عن الحد وتفسد أخلاقه وتشيع فيه الطراوة والنعومة والشذوذ ، فهو بذلك يشكل خطرا على مستقبل أمريكا ! وكلا التصريحين ذو دلالة خطيرة فى شأن « الحرية » الجنسية التى يراها هذا الجيل من البشرية خيرا ، وتصرخ الوقائع بأنها شر لا خير فيه ! [انظر بالتفصيل كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية »] .

ولكن هذا الذى يبدو فى الظاهر ليس صحيحا فى الحقيقة ، فعلى الرغم من أن الإنسان يعمل دائماً - حتى فى حالات اختلاله - بمزاجه المجتمع من الجسم والروح ، إلا أن « السيطرة » على هذا النحو غريزة حيوانية ، يمارسها الحيوان بكاملها ، ويمارسها الإنسان المختل على صورة قريبة من الحيوان . و «الإرادة» التى تكوّن الطغيان هى إرادة النوازع المرتبطة بالكيان الحيوانى وليست إرادة النوازع المرتبطة بكيان الروح . والحيوان يحب أن يسيطر بأن يقتل الآخرين أو يسلبهم غذاءهم أو أرضهم أو أمنهم وراحتهم . . ومن ثم تصبح السيطرة الطغيانية عملية حيوانية فى أساسها ، تجرجر الروح فى ركابها ، مقهورة مسلوبة مطموسة الإشعاع . ويستوى أن يكون الطغيان سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا . . فرديا أو جماعيا . . فهو أصل واحد متعدد الأشكال .

وفى كل ذلك ينشأ الشر . . وينشأ من خضوع الكيان المجتمع المترابط لسيطرة الجسد . . ويكون شرا فى جميع الأوضاع والبيئات ، وجميع الأجيال و « الأطوار » . . لأنه اختلال فى ميزان « الإنسان » .

* * *

أما حين تحكم الروح هذا الكيان المجتمع المترابط فإنه يحدث شىء آخر .

إن هذا أولا يكون الوضع « الطبيعى » للإنسان ، الذى يتمشى مع نشأته التاريخية ، ويحققها فى كمالها .

وهو ثانيا لا يكبت الجسد ولا النشاط الجسدى [إلا فى حالات الاختلال التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، ونحن هنا نتحدث عن الأوضاع السوية] وإنما ينظم فقط منطلقات هذا النشاط وينظفها ويضبطها .

إن حكم الروح للكيان الإنسانى المترابط لا يمنع الإنسان من الطعام

والشراب والجنس ، والمتاع الحسى بكل أنواعه ، وإنما يضيف إليه فقط متاعا روحيا لطيفا ، يجعله شفافا رائقا ، متحررا — إلى حد ما — من الضرورة القاهرة والقيد المتحكم .

إنه يأكل ويشرب — كما مر بنا — ولكن بلا إسراف . فسيطرة الروح تضبط هذا الإسراف وتنظمه ، وإن كانت لا تكبته من أساسه . ثم لا يجعل الطعام والشراب هدفا فى ذاته ، وإنما وسيلة لحفظ الأود ؛ وسيطرة الروح هى التى توقظ الإنسان للهدف من كل عمل يعمله ، لأنها هى المنوطة بالوعى والإدراك . ثم يتحرى النظافة والطهارة فى طعامه وشرابه ؛ وسيطرة الروح هى التى تتحرز من القذارة الحسية والمعنوية ، وتختار السلوك النظيف لأنها هى المنوطة بالاختيار . ثم هو يبعد عن نفسه الأثرة البغيضة ، فيشرك معه غيره فى طعامه وشرابه [« ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ولو كان بهم خصاصة »] وسيطرة الروح هى التى تدفع إلى هذا البذل والإيثار ، لأنها هى المنوطة « بالحب » الذى يتوجه للغير .

وينشأ من ذلك الخير . . .

خير لا يفوت الفرد ذاته — فهو يستمتع بالقسط المعقول من الطعام والشراب — ثم يصل كذلك للآخرين .

وهو يستمتع بمتاع الجنس بلا إسراف ولا فاحشة ، ويستمتع به على مستوى المشاعر والعواطف لا على مستوى الجسد وحده ، فيوسع مساحته فى النفس ، ويضيف إليه ألواناً من الجمال .

وينشأ من ذلك الخير . .

الخير الفردى ، بتمتيع كل فرد بنصيب معقول من المتاع . والخير الجماعى

بحفظ المجتمع من الجريمة والتفكك والانحلال والهبوط والتفاهة ، التي تصاحب دائماً الانفلات والإباحية في شئون الجنس .

وهو يملك . . ولكنه يتحرى النظافة فيما يملك ، ويتحرى عدم إيقاع الظلم بالآخرين ، ويتحرى التزكية لما يملك بإشراك الآخرين فيه .

وينشأ عن ذلك الخير . .

الخير الفردى فى الاستجابة لنزعة التملك الفطرية فى الإنسان . والخير الجماعى بتكافل المجتمع وتعاونه ، واشتراكه فى الجهد والجزاء .

وهو يَبْرُزُ ويسيطر . . ولكنه يتحرى البروز النظيف والسيطرة فى سبيل الخير : [« واجعلنا للمتقين إماماً »[1] . « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »[2]] البروز الذى لا يتم بتحطيم الآخرين وسحقهم ، وإخضاعهم لنزوات إنسان . والسيطرة التى توجّه إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . .

وينشأ عن ذلك الخير . .

خير فردى بإعطاء الإنسان شخصية إيجابية فاعلة متحركة نشيطة منتجة ، مستمتعة راضية . وخير جماعى ، بتوجيه المجتمع نحو الخير ، وتقليل فرصة الظلم والطغيان التى تنشأ من وجود مجتمع خانع سلبى يستسلم لكل طغيان .

وسيطرة الروح هى المنظم لكل ذلك ، والضامن له فى داخل النفس وواقع الحياة .

---

(١) سورة الفرقان [٧٤] .　　(٢) سورة المطففين [٢٦] .

وفى كل ذلك لا يكبت نشاط الجسم ، ولا تمتنع لحظات « الجنوح » الطبيعية التى يجنح فيها الإنسان بجسده فى لذة أو متاع . . وإنما ينطلق الجسم والروح ما تزال ممسكة بالقياد ، فتسمح بالمتاع ولكنها تمنع الفحش والإسراف.

وفى كل ذلك يكون الخير صادراً عن الكيان الطبيعى للإنسان .. حسب تركيبه الأول الذى خلق به بادئ ذى بدء [« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »](1) ويكون متمشياً مع الفطرة السوية التى ليس فيها اختلال ، ولا هى مضغوط عليها من الخارج بشئ لا يناسب طبيعتها .

ويكون ذلك الخير خيراً فى جميع الأحوال والملابسات ، والأطوار والبيئات . . لأنه ناشئ عن الحقيقة الطبيعية « للإنسان » . . الإنسان عامة فى كل زمان ومكان .

* * *

والإنسان — بطبيعته المزدوجة — قابل قبولا طبيعياً أن يتخذ هذا الوضع أو ذاك : وضع سيطرة الجسم على الكيان الممتزج ، أو سيطرة الروح . أى أنه مشتمل — بصورة طبيعية — على استعداد للخير واستعداد للشر : [«وهديناه النجدين»(2) .« إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا »(3). « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ،وقد خاب من دساها »](4) .

بل إنه — حين يترك وشأنه — أكثر ميلا لأن يستجيب لثقلة الطين :

---

(1) سورة التين [٤] .
(2) سورة البلد [١٠] .
(3) سورة الإنسان [٣] .
(4) سورة الشمس [٧—١٠] .

[وخلق الإنسان ضعيفاً »[1] . « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين »[2]] .

ومن ذلك ينشأ الشر فى حيـاة الإنسان ويملأ وجه الأرض : [« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس »][3] .

وليس هذا الشر ناشئاً من الاستجابة إلى دوافع الجسم . فهذا بذاته لاينشئ شرا ، بل ينشأ عنه الخير حين يكون فى الصورة التى وصفناها من قبل.

إن الجسم ليس شريراً بذاته ، ولا منبوذاً ولا محتقراً ولا ساقطاً من الحساب . فهو لم يخلق عبثاً . . تعالى الله عن العبث وعن عدم القصد .. وإنما الجسم هو وعاء الطاقة الحيوية العاملة النشيطة التى تعمّر الأرض ، وتستخرج كنوزها وتستغل طاقاتها ، وتنشئ وتبنى وتنتج ، فتسمح للحياة الإنسانية بالوجود والبقاء ، والامتداد والارتقاء . .

والاستجابة لدوافع الجسم هى التى ينشأ عنها الوجود والحركة والعمل والإنتاج . . وكل ذلك مطلوب ومقصود ، لأنه الأداة التى تقوم عليها خلافة الإنسان عن الله فى الأرض ، والتى بغيرها لا يـكون لهذه الخلافة معنى ولا وجود .

فليس الجسم ولا الاستجابة لدوافعه هما منبـع الشر فى حياة الإنسان .

إنما الشر — كما أسلفنا — ينشأ من تولى الجسم قيادة الـكيان المجتمع المترابط الذى ينبغى أن تتولى قياده الروح ، بحـكم النشأة الطبيعية التى جعلت

---

(١) سورة النساء [٢٨] . (٢) سورة التين [٤ — ٥]
(٣) سورة الروم [٤١] .

الإنسان إنسانا ، ورفعته عن الحيوان ، وقد كان قمينا أن يكون حيوانا لولا تلك النفخة العلوية فى قبضة الطين .

وحين يلغى الإنسان كيانه الروحى [وهو تعبير مجازى ، لأنه لا يحدث — بغير خلل وظيفى — أن يصبح الإنسان جسدا خالصا بغير روح] أى حين يجعل الجسم هو صاحب القياد ، فتنطمس إشعاعة الروح المضيئة وتخبو فى عتامة الطين . . فحينذاك ينشأ الشر ، وحينذاك يهبط الإنسان إلى مستوى أسوأ من مستوى الحيوان رغم أنه ما زال محتويا على عنصر الروح !

يهبط . . لأنه لا يستخدم طاقات روحه :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام . بل هم أضل . أولئك هم الغافلون »[1] .

والإشارة إلى القلوب والأعين والآذان ليس المقصود بها الحواس الظاهرة بطبيعة الحال ، وإنما المقصود ما وراءها من وعى وفهم وإدراك ، والاستفادة بما يُرى ويُسمع ويُحس ، فى انتهاج النهج السوى واتخاذ الطريق المستقيم .

عندئذ يصبح الإنسان كالأنعام [أى كالحيوان] بل أضل .

أضل لأن الحيوان من ناحية ليس مطالبا بالارتفاع ولا قادرا عليه . وإنما هو على فطرته الطبيعية حين يأتى ما يأتى من أعمال . وليس من شأنه أن يقدّر « قيما » لأعماله . ومن ثم فهو لا يخالف عن طبيعته ولا عن الدور المقدر له فى الحياة . والحيوان من ناحية أخرى له غريزة تضبط أعماله وتقف بها عند الحد

(١) سورة الأعراف [١٧٩] .

الملائم لفطرته ، فتمنع عنه الإسراف والشطط بالنسبة للمقاييس الحيوانية وبالنسبة للقصد الذى يقصده الخالق منه ، وإن كان الحيوان ذاته يأتيه بلا وعى ولا اختيار.

أما الإنسان الذى لا يستفيد بطاقات روحه — مع أنه ما زال محتويا على عنصر الروح — فهو أضل . لأنه يخالف فطرته السوية ويهبط عنها ، وفى الوقت ذاته يسرف ويشتط ، لأنه — وقد عطّل الضابط الإرادى الذى وهبه له الله متمثلا فى نفخة الروح — لا يملك الضابط الغريزى الذى يضبط تصرفات الحيوان .

ويكون ذلك شرا لا شك فيه ، وانحرافا عما ينبغى أن يكون عليه الإنسان .

ولكنه كما قلنا انحراف « طبيعى » إذا ترك الإنسان وشأنه ، لأنه — وهو مشتمل على استعداد الخير واستعداد الشر — قمين فى هذه الحالة أن ينقلب وينتكس إلى أسفل ، بسبب ثقلة الطين . . وعندئذ تصدق عليه كل التفسيرات المنحرفة التى تصور الحياة البشرية فى صورة حيوانية ، كالتفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الجنسى للسلوك البشرى . .

ولكن الله لا يترك الإنسان وشأنه . . !

لقد خلقه . . وهو يحبه ويعطف عليه ويريد له الخير . .

ولذلك يرسل الرسل يعرّفونه المنهج الصحيح ويردونه إليه . .

والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية فى حياة البشرية ، وليست نافلة تستغنى عنها حين تريد .

والإنسان إما أن يهتدى بهذا الهدى الإلهى ، فيجعل لروحه قياد كيانه

الممتزج المترابط ، ويكون فى وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة ، وإما أن يرفض الهدى ، ويجعل القياد لجسمه وشهواته ، فهو كالأنعام بل هو أضل . وهو منتكس بروحه إلى أسفل ، وغارق بكيانه فى الطين .

وهذا هو التفسير « النفسى » للخير والشر فى كيان الإنسان . . وهو تفسير واضح بسيط ، لايتخبط تخبط « الفلسفات » التى تشطح هنا وتشطح هناك ، وتتجافى المنبع الأصيل الذى ينبغى أن ترجع إليه فى قياس الخير والشر فى كيان الإنسان . . وهو فطرة ذلك الإنسان !

الثابت والمتطور في كيان الإنسان

علم النفس يرسم الإنسان فى صورة ثابتة كأنه ذو كيان ثابت لا يتغير على مدار القرون والأجيال . . فهل هذه حقيقة ؟

هل إنسان الغابات كإنسان المراعى كإنسان الزراعة كإنسان الصناعة كإنسان العصر الذرى والسفر بين الكواكب ؟ وهل من المعقول أن ما ينطبق على واحد من هذه الأناسى ينطبق على الآخرين ؟

وما قيمة التقدم والتطور إذن ؟ وما دوره فى حياة البشرية ، إذا كانت البشرية ستظل ثابتة على ما هى عليه فى كل التاريخ ؟

هذا السؤال — أو هذا الاعتراض — تعترض به المذاهب الاجتماعية الحديثة التى تبنى مباحثها كلها على أساس فكرة التطور ، وتصل — من زاوية نظرها الخاصة — إلى أنه لا وجود لشىء ثابت فى حياة الإنسان ، ومن ثم فلا توجد — فى رأيها — أية مقاييس ثابتة يقاس بها نشاطه العقلى أو النفسى أو المادى . . ولا يصح أن ترسم له صورة ثابتة . وإنما ترسم صورة للوجه الموجود فى هذه اللحظة — أو فى هذا الجيل — وهى عرضة لأن تتبدل غدا ، وتصبح غير ذات موضوع .

هذه النظرة « الحديثة » للموضوع متأثرة دون شك بنظرية دارون ، الذى ألغى فكرة الثبات إطلاقا ، والذى قال إن الأصل الذى نشأ عنه الإنسان بمفهومه الحالى مختلف أشد الاختلاف عن « الإنسان » . وإن ما يسمى بالإنسان فعلا ، قد تطور تطورات شتى حتى صار إلى ما هو عليه اليوم . وإنه بناء

على ذلك لا ينبغى أن يُنظر إلى الإنسان الحالى بأكثر من أنه طور انتقالى فى حيـاة هذا المخلوق ، يمكن أن يتطور غدا إلى شئ آخر مختلف عنه.

وقد أَخَذَتْ المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الحديثة عن هذه النظرية بلا تحفظ . . لأنها أُخِذَتْ بها بادئ ذى بدء على أنها الـكلمة النهائيـة فى الموضوع ! ولأن هذه المذاهب ولدت فى عصر الانقلاب الصناعى فى الغرب ، الذى غيّر صورة الحياة تغييرا شاملا ، وغيّر علاقات الناس بعضهم ببعض ، كما غير تقاليدهم وأخلاقهم وعقائدهم فى هزات عنيفة متوالية ، خيّلت لمن يشاهدها من الظاهر أنها تنشئ الإنسان إنشاء من جديد ، وتبت ما بينه وبين ماضيه ، وتعده فى الوقت ذاته لمستقبل قد يكون مقطوع الصلة بحاضره!

ثم كانت الفتوح العلمية المتوالية التى ساعدت من جانبها على تغيير صورة الحياة تغييرا شاملا ، حتى خيَّلت للناس أن « العـلم يعيد إنشاء الحياة » كما يقولون ، وأن الإنسان ، صاحبَ هذا العلم وصانعَه ، لم يعد مقيدا بشئ . . ولا بذات نفسه ! وأنه غدا سيصنع نفسه ! [Man Makes Himself عنوان كتاب من تأليف جوردون تشايلد V. Gordon Childe] وسيكيف دوافعه وأهدافه غير متقيد بما كان يسميه من قبل « الطبيعة » وينسب إليه الإبداع والخلق . . فقد سيطر الإنسان على الطبيعة ، وصار — كما يقول جوليان هكسلى فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World — صار الإنسان هو الله المنشئ المريد ! [ص٢٢٤ من الترجمة العربية]

بمثل هذه النظرة المبهورة اللاهثة نظر الإنسان إلى « التطور » . . ففقد نفسه وفقد رشده ! وظن أنه لا يوجد مقياس ثابت للنفس الإنسانية ، ولا لشئ ألبتة فى حياة الإنسان . .

ولـكنه — لأكثر من سبب ، وفى أكثر من جانب — بدأ يفيق !

وبدأ يعدل نظرياته . . وإن كان لم يفق بعد إفاقة كاملة ، ولم يستطع التغلب الكامل على البهر الذى أصابه فى القرن الماضى وبداية القرن العشرين .

فالداروينية الحديثة — التى يمثلها جوليان هكسلى وغيره من العلماء — لم تعد تؤمن — رغم إلحادها بالله — أن الإنسان مجرد حيوان متطور بلا زيادة ، يتطور على قاعدته الحيوانية التى صدر عنها [فى رأى دارون] وإنما تؤمن بأنه ذو خصائص متفردة متميزة . وأنه يتطور على قاعدته الإنسانية الواضحة الخطوط والسمات ، التى تتميز بخصائص معينة أهمها :

« قدرته على التفكير الخاص والعام — التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان — وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها » ثم « أنه لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره[1] » .

وليس يهمنا هنا أن نناقش فكرة التطور من أساسها ، ومدى صحتها العلمية . فالعلماء البيولوجيون يتولون ذلك ، ويناقشون بالفعل أسس النظرية على ضوء الأبحاث العلمية الحديثة .

وإنما يهمنا أن نثبت نقطة واحدة من كلام الداروينية الحديثة هى القاعدة الإنسانية للإنسان التى يتطور على أساسها . فهناك إذن على أقل تقدير خطوط عريضة ثابتة فى الكيان الإنسانى ، يزيدها التطور ثباتا ورسوخا وتعمقا نحو الإنسانية ، ولا ينحرف بها خارج نطاق الإنسان . .

تلك نقطة رئيسية فى البحث . .

---

(١) من كتاب « الإنسان فى العالم الحديث » تأليف جوليان هكسلى ، ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر .

ثم هناك مجموعة من الحقائق الهامة فى الموضوع .

إن التغير الاقتصادى والاجتماعى والحضارى والعلمى الذى حدث فى القرنين الأخيرين ، والذى ظل مستمراً فى الحقيقة منذ بداية عهد الإنسان إلى العصر الحاضر ، قد غيّر « صورة » الحياة ولم يغير جوهرها . . .

ولنأخذ مثلا رغبة اتخاذ السكن . .

إنها رغبة فطرية .. يحققها إنسان الغابات باتخاذ «عش» معلق فى الشجرة، وإنسان المراعى باتخاذ مثابة من البوص والغاب ، وإنسان الزراعة بكوخ من الطين ، وإنسان المدينة ببيت مشيد أو عمارة . . وقد يتخذ إنسان الفضاء غدا سفينة فضاء يسكن فيها وينتقل بها بين الكواكب . . فما الذى تغيّر ؟

تغيرت « الصورة » التى تتحقق بها الرغبة الفطرية . تغيرت بتغير الإمكانيات المادية والعلمية ، وتطور قدرات الإنسان العقلية والفنية . ولكنها ظلت فى خطها الأصيل . وحين تطورت ، تطورت على قاعدتها الإنسانية المتخصصة ، لا على أية قاعدة أخرى [الحيوان لا يطور مسكنه !] والقاعدة الإنسانية هنا ترتكز على ركائز إنسانية متفردة هى القدرة على استخدام الأدوات والاستفادة من « الأفكار » السابقة ، ثم النزعة إلى « الجمال » ، التى تسعى دائماً لتجميل ماهو كائن بالفعل ، لتصل به إلى « الكمال » بقدر مايتحقق فى عالم الإنسان .

الجوهر إذن لم يتغير ، وإنما « تطور » على خط امتداده الأصيل ، الذى ترسم إمكانياته فطرة الإنسان ذاتها ، وليست هناك عوامل أخرى غير فطرة الإنسان هى التى أحدثت التطور . فالكون المادى . . أو القوى المادية التى يعزو إليها التفسير المادى للتاريخ كل تطور فى حياة الإنسان . . هذه

القوى موجودة بالنسبة للحيوان . . والحيوان يتطور فيما يقول دارون . . ولكنه — على فرض صحة النظرية — يتطور على قاعدة حيوانية لا تشبه فى شئ تطور الإنسان . .

ومن ثم فالعنصر الفعال فى الأمر هو الإنسان . الإنسان بفطرته المتفردة ، المتطورة فى حدود هذه الفطرة وعلى خطوطها الأصيلة ، والتى تزداد — كلما تطورت — رسوخاً وتعمقاً فى القاعدة الإنسانية ، لا تحيد عنها إلى فطرة أخرى ، أو تسير بلا هدى من خطوط الفطرة الأصيلة !

ولنأخذ رغبة اللبس . .

إنها رغبة أخرى فطرية .. يحققها سكان الغابات بمنطقة من الجلد أو الريش تستر العورة ، ويحققها البدوى غزلا خشناً من الصوف ، ويحققها المدنى نسيجا متقناً وأزياء متفننة . . فما الذى تغير ؟

تغيرت الصورة التى تتحقق بها الرغبة الفطرية بتغير الإمكانيات المادية والعلمية وتطور قدرات الإنسان . . ولكنها تتغير وتتطور على قاعدتها الإنسانية المتخصصة المتفردة ، المرتكزة على ذات الركائز الإنسانية : القدرة على استخدام الأدوات ، والاستفادة من الأفكار السابقة ، والنزعة إلى الجمال . . .

ثم تنحرف هذه الفطرة فى العالم الغربى فتنتكس نحو العرى . . فهل يعتبر ذلك إلغاء للفطرة أو إعلانا عملياً بعدم وجودها ؛ وأن الأمر فى مسألة اللبس متروك « للتطور » الاجتماعى الذى لا يرتكز على أساس ثابت ؟ !

هذا هو الوهم الذى يقع فيه بعض « علماء » الغرب الحديث . .

فهذا « التطور » المزعوم — رغم انحرافه عن الفطرة وانتكاسه —

لم يغادر ركيزته الإنسانية المتخصصة مغادرة كاملة . فالمرأة التي تتعرى في الغرب الحديث تظن أنها هكذا أجمل . . فهي إذن نزعة جمالية . . لكنها منحرفة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فما زالت — فيما عدا حالات الشذوذ المرضي — تستر ذات الأماكن التي اتجهت الفطرة إلى سترها منذ بدء التاريخ الإنساني [« فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة »][1] .

والأمر الثالث — الذي سنتحدث عنه في النقطة التالية — هو أن هذا الانحراف عن الفطرة لم يسعد البشرية .. وإنما أحدث لها القلق والاضطراب .. لأنه خروج على الفطرة ، وكل خروج على الفطرة لابد أن يحدث في النهاية الشقاء !

إنما نريد أن نقول قبل الانتقال إلى هذه النقطة ، إن الدوافع الفطرية كلها التي تحدثنا عنها على أنها « مكوّنات » النفس الإنسانية لم ينلها أي تغيير جذري حين تغيرت صورة الحياة في القرنين الأخيرين هذا التغيّر الشامل . . وإنما تغيرت فقط الصورة التي تتحقق بها الرغبة الفطرية دون تغيير في منبعها ولا في خط تطورها المرسوم من لدن الفطرة التي فطرها الله .

فما زالت الرغبة الدافعة الأولى هي حب الحياة . . يتخذ صوراً شتى ولكنه هو هو حب الحياة والتشبث بها والرغبة بالاستمتاع بما فيها من متاع .

وما زالت الرغبة في حفظ الذات ، وما يتفرع عنها تفرعا مباشراً من مطعم ومشرب وملبس ومسكن . . هي ذاتها لم تتحور ، ولم تتحول عن وجهتها ، وإنما تغيرت الصور التي يحفظ بها الإنسان ذاته . .

ومازالت رغبة الجنس هي رغبة الجنس الفطرية العميقة في كيان الجنسين ..

وما زالت رغبة الاقتناء والملك هي رغبة الاقتناء والملك . وحين حاربتها

---

(1) سورة طه [١٢١] .

الدول الشيوعية وحاولت استئصالها من النفوس تغلبت الفطرة فى نهاية الأمر ، واضطرت الدول الشيوعية إلى التزحزح عن موقفها المعاند ، فأباحت اقتناء بعض الأشياء ، وأباحت اختلاف الأجور بين الطبقة الواحدة ، لمن شاء من العمال والصناع أن يبذل مزيداً من الجهد ليحصل على مزيد من الأجر « يقتنى » به ما يباح اقتناؤه من الأشياء !

وما زالت نزعة القتال هى نزعة القتال . . تتخذ صوراً شتى . . من أول المباريات الرياضية إلى التهديد بتدمير العالم كله بالصواريخ ! !

وما زال حب البروز هو حب البروز . . يتخذ صوراً شتى .. من « خدمة الجماعة » إلى الدكتاتورية والطغيان ! !

فحين نقول إن هذه هى « الدوافع الفطرية » فى كيان الإنسان ، فما الذى تغيّر إذن فى كيان الإنسان حين انتقل من حياة الغابة إلى غزو الفضاء ؟ ! !

والنقطة الثالثة التى أشرنا إليها آنفاً هى أن الفطرة قد تنحرف انحرافاً قاسياً عن خط سيرها الأصيل . . ولكننا نخطئ إذا ظننا أن هذا الانحراف « تطور » أصاب الفطرة فى جوهرها فغيّر مسارها . . والأمر ليس متروكا لأوهامنا نتخيل كيف نشاء .

ففى الفطرة مثلا حياء جنسى يجعل الأنثى تظهر ثم تختفى ليبحث عنها الرجل ويتعب فى البحث عنها حتى يملكها فى النهاية . ولهذه الفطرة حكمتها .. فهى تضمن للأنثى — فطرياً — أن تحصل على رجل يستحق أن تكل إليه أمرها وتهبه نفسها ، بعد أن يثبت أنه أهل لذلك . وتضمن لها فطرياً كذلك ألا ينصرف عنها حين يجدها سهلة بين يديه يحصل عليها بأقل الجهد . وقد تدرك الأنثى هذه الفطرة إدراكا واعيا وقد لا تدرك . . ولكنها — على فطرتها

السوية — تتصرف دائماً بموجب هذه الفطرة وعلى خطوطها المرسومة . .

ثم جاء العصر الحديث « فحرر » المرأة . .

وقد تحدثت فى كتاب « معركة التقاليد » عن قصة التحرر هذه ، فلن أعيدها فى هذا المكان . وإنما نأخذ الأمر من واقعه الحالى . . تحررت المرأة وتعرت فى ذات الوقت ، وفقدت — فى الغرب المتحضر — حياءها الجنسى ، فصارت فى كل ملبسها وحركاتها وتصرفاتها تعمل — علانية — على إغراء الرجل ، ودعوته — بشتى السبل — أن يتقضى معها دافع الجنس .

فما الذى حدث ؟ !

حدثت نتائج عظيمة الخطورة من وجهة النظر التى نبحث فيها . .

حدث أن الرجل — فى أمريكا المتحررة إلى أقصى حد ، وفى دول الشمال فى أوربا كذلك — صار هو الذى يتدلل و « يتعزز ! » والأنثى تجرى وراءه وترتمى فى أحضانه . ليَقْبَلَها . . ذلك أنه انصرف عنها حين ابتذلت نفسها له وخلعت حياءها الفطرى ، الذى كان يضمن لها — فطريا — أن يكون الرجل هو الذى يسعى إليها !

وصارت الفتاة — فى حلبات الرقص هناك — تتودد وتتظرف لتحصل على رقصة من شاب ، فإذا أخفقت كل محاولات الإثارة والإغراء انكفأت تبكى فى مرارة . . علنا فى المرقص . . لأنها لم تنل أحد الشبان !

فهى إذن لم تسعد حين غادرت خط فطرتها الأصيل ، وإن توهمت أنها تحصل على متاع بغير حد !

وحدث أن خرج جيل من الأولاد الذكور مخنثين ومصابين بنسبة عالية من الشذوذ الجنسى فى ذات البلاد التى خلعت المرأة فيها حياءها ونزلت إلى

السوق تصطاد هي الرجال ! والعلاقة دقيقة ومتشابكة بين خروج المرأة هكذا وانتشار الشذوذ الجنسي في الأجيال الحديثة في أوربا وأمريكا . . فالطفل الذكر يتلبس لا شعوريا بشخصية أبيه بوصفه الجنس الغالب . وذلك جزء من الفطرة ! فلما تحررت المرأة ، وخلعت — فيما خلعت — حياءها ، وصارت تشبه الرجل أو تريد أن تشبهه في كل شيء ، تشوش الأمر في نفس الطفل الذكر ، وصار يتلبس — لا شعوريا — بشخصية أمه بوصفها الجنس الغالب على الوضع الجديد ! فينشأ — من الوجهة النفسية — خليطا شاذا من شخصيته المذكرة الأصيلة وشخصية أمه المؤنثة ، فيصبح شديد الاستهداف للشذوذ الجنسي(1) !

فالأجيال الناشئة لم تسعد إذن حين غادرت الأم خط فطرتها الأصيل . .

وحدث أن فسدت الحياة الأسرية فارتفعت نسبة الطلاق في أمريكا إلى ٤٠٪ ، وهي نسبة بشعة جدا ، معناها تهدم الأسرة وانحلال روابطها وشقاء زيجاتها وعدم استقرارها . وهو أمر شديد الاتصال بالفتنة الدائمة التي تقدمها المرأة للرجل [والرجل للمرأة] الفتنة التي تجعل متاع الحس هو مقياس الحياة ، وتجعل الزواج يبدو شيئا بليدا خامدا لا فتنة فيه ولا إغراء ! فما أسرع ما تنفصم العرى ويبحث كل من الزوجين عن صيد جديد . فإذا حالت قوانين الدولة دون الطلاق — كما في الدول الكاثوليكية — حدث ما هو أشنع من الطلاق ، وهو المحافظة على الرباط الرسمي مع اتخاذ العشاق والعشيقات للهرب من جحيم الأسرة المفككة العواطف النافرة القلوب !

فالرجل والمرأة كلاهما لم يسعدا إذن حين خرجت المرأة عن خط فطرتها الأصيل !

---

(١) هذه التجربة الجديدة في الغرب لم تبحث هناك بحثا كافيا من الوجهة النفسية . ولكنها حكمة قديمة يعرفها الشرق ، حين يقول عن الولد المائع المخنث إنه « تربية أمه » ! وهي حقيقة نفسية عميقة . . مع اختلاف الظروف الظاهرية في الموضوع !

وبعد ذلك ومعه ، ذلك الاضطراب والقلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية وضغط الدم والانتحار والجنون . . أعراض مصاحبة كلها للخروج على الفطرة السوية ، تدل دلالة واضحة على شيئين معا : الأول أن هناك فطرة يشقى الإنسان شقاء بالغا حين يخالفها . والثانى أن الانحراف عن الفطرة لا يكون فطرة جديدة للإنسان . . ولا يلغى واقع الفطرة الأصيلة ، أو يجعل الإنسان بلا فطرة على الإطلاق !

وفوق ذلك جميعا . . فلا ينبغى أن ننسى أن هذا الانحراف كله لم يأت به «التقدم» الصناعى ، ولم تأت به الحتمية التاريخية والاقتصادية ولا المادية . . وإنما جاء من أن دفعة فطرية أصيلة هى دفعة الجنس قد انحل عقدها وانفلتت من القيد ! أى أن انحراف الفطرة قد جاء من داخل الفطرة لا من خارجها كما يحب أن يزعم التطوريون وهواة التفسير المادى والاقتصادى للتاريخ ! وقد سبق أن بينا فى فصل الانحراف والشذوذ كيف يحدث انحراف الفطرة حين يساء توجيهها أو لا توجّه على الإطلاق ! !

فالفطرة إذن شىء حقيقى واقعى له وزن وثقل .. حتى فى حالات الانحراف !

والأمر الأخير أن فى الإنسان قدرا ضخما من المرونة يخيِّل لمن يأخذ الأمر من ظاهره أنه ليس للإنسان كيان ثابت ، وأن التطور المادى والاقتصادى هو الذى يصنع الإنسان ، على غير قواعد ثابتة ولا نمط معروف .

ولسنا هنا نتحدث عن الانحرافات . بل نتحدث عن حالات نفترض أنها كلها سوية طبيعية . . فما الذى يحدث فى حقيقة الأمر حين ينتقل الإنسان من طور اجتماعى إلى طور ؟

قلنا من قبل إنه يغيّر فقط صورة الدافع الفطرى لا حقيقته الجوهرية .

ونزيد هنا أن فى الإنسان جوانب كثيرة متعددة وطاقات مختلفة قد لا تعمل كلها فى وقت واحد ، لأن الإمكانيات الحضارية ، ولأن التوجيه القائم لا يحركانها للعمل جميعا .

ونشبه الأمر بما يحدث فى الجسم لتتضح الصورة . .

فى الجسم مئات من الأعضاء والأحشاء المفروض فيها أن تعمل جميعا فى وقت واحد . ولا يكتمل نشاط الجسم وقيامه بوظائفه الحيوية إلا بعملها جميعا فى مجالاتها المقررة . ولكن يحدث فى عالم الواقع أن يدرب الإنسان بعض عضلاته فتنمو نموا بارزا ، ويهمل أخرى فتضمر عن حجمها « الطبيعى » . أو يكسل عضو من الأعضاء الداخلية فلا يفرز إفرازه الكامل ، أو ينشط نشاطا زائدا فيفرز زيادة عن المقرر . . فهذا كله لا يعنى أنه لا توجد مقاييس ثابتة لمكونات الجسم البشرى ووظائفه و نشاطاته ! وإنما يعنى فقط تلك الحقيقة : وهى النمو البارز هنا والضمور هناك .. وحقيقة إن الظروف الخارجية هى التى تصنع ذلك بالجسم . ولكن لا يقول أحد إن هذه الظروف قد خلقت عضوا جديدا أو أزالت أحد الأعضاء !

ونعود إلى عالم النفس . .

هناك جوانب متعددة فى النفس ووظائف متعددة . .

وهناك مرونة تسمح ببروز أحد الجوانب بروزا ثابتا أو مؤقتا ، وانحسار أحد الجوانب كذلك .. وهناك ظروف خارجية دائمة تؤثر فى حياة الإنسان .. وتوجيهات خارجية دائمة . .

ويحدث أن تعمل هذه الظروف والتوجيهات على إبراز جانب معين من الإنسان وإخفاء جانب أو إضعافه . .

فعندئذ لا ينبغي أن يقال : إنه لا يوجد كيان ثابت للإنسان ، ولا مقاييس يقاس بها نشاط الإنسان !

وإنما تقال فقط هذه الحقيقة : وهي بروز جانب هنا ، وانحسار جانب هناك !

وعندئذ لا ينبغي أن يقال إن الظروف الخارجية هي التي تنشئ هذا الجانب في النفس أو تزيله من الوجود ، إنما يقال فقط إنها تقويه أو تضعفه .. ولكنه كائن في صميم الفطرة ، كامن أو في حالة بروز !

وهناك محك بسيط لهذه الحقيقة .. إن الظروف الخارجية لا يمكنها مهما أوتيت من سطوة وضغط أن تنشئ في كيان الإنسان شيئا ليس فيه استعداد سابق إليه !

والتجربة الشيوعية تثبت ذلك ..

لقد حاولت القضاء على رغبة الملك ، بكل ما تملك من سطوة وقوة وطغيان . حاولت أن تنشئ كيانا نفسيا ليست فيه هذه الرغبة .. ولكن لأن هذه نزعة فطرية ، لم تستطع القوة القاهرة كلها أن تنزعها من النفوس !

وحاولت الرهبانية من قبل قتل الدفعة الفطرية للجنس .. ولكن لأن هذه نزعة فطرية ، لم تستطع الرهبانية أن تنزعها من النفوس . ثم انتكست الرهبانية ذاتها إلى جرائم جنسية بشعة في داخل الأديرة والصوامع ، ترتكب فيها المحرمات كلها من سوية وشاذة .. الرهبان والراهبات سواء !

وحاولت الدكتاتوريات النازية والفاشيّة والشيوعية أن تقتل النزعة الفردية في النفوس لحساب النزعة الجماعية .. ولكن لأنها نزعة فطرية ، أخفقت هذه المحاولات كلها ، وعمدت هذه الدول إلى التنفيس عن النزعة الفردية المكبوتة — وإن يكن في غير الميدان السياسي ! — فأفسحت المجال

للهو والعبث تنساق فيه الشعوب من ناحية ، وخلقت اهتماما مصطنعا زائدا بالألعاب الرياضية والمباريات يجد فيه الأفراد منطلقا لنزعتهم الحبيسة !

وحاولت الهندوكية أن تنشئ إنسانا بلا دوافع ! إنسانا بلا جسد ! إنسانا يعبر عن إشراقة الروح الصافية منفصلة عن قبضة الطين . . ولكن ، لأنه لا يوجد استعداد فى نفس الإنسان لأن يكون كذلك ، أخفقت هذه المحاولة ولم تصنع شيئا إلا السلبية المريضة فى نهاية المطاف !

وهكذا تغلب الفطرة دائما جميع التوجيهات والظروف المضادة لاتجاهها ، المنافية لطبيعتها ، ولو خضعت لضغطها القاهر فترة من الوقت تقصر أوتطول ! وإنما الظروف والتوجيهات كما قلنا تعمل فى حدود تقوية بعض الجوانب الموجودة بالفعل وإضعاف بعضها الآخر . . فما الدلالة التاريخية والإنسانية لهذا الأمر ؟

دلالته أن وجود جوانب ناقصة أو ضامرة فى العهود التاريخية التى سبقت فترة الرشد فى حياة الإنسان ، ليس معناه أن هذه الجوانب لم تكن موجودة أصلا ، فاستحدثتها الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية والتقدم العلمى ، وإنما معناه أنها كانت كامنة فأظهرتها هذه الظروف ، أو غير مكتملة النمو فأكملت الظروف تنميتها . وليس معناه كذلك أن كيان البشرية يتغير فى جوهره بتغير الظروف . فالخطوط الرئيسية لم تتغير . وإنما تغيرت الصور التى تعبر عنها ، وتغير كذلك مدى القوة فى التعبير .

ودلالته — بعد أن بلغت الإنسانية رشدها — أنه ينبغى لها أن تنظر فى نظمها وتوجيهاتها ، فتجعلها شاملة للكيان النفسى كله ، وعلى وضعه الفطرى الصحيح . فلا تبيح الانحراف على أنه تطور ، ولا تبيح وجود فراغ فى جانب من جوانب الإنسان الفطرية ونشاطاته المتعددة ، بحجة أن التطور قد أبطله فلم

يعد له وجود . ولا تحلم حلما فارغا بأن فى استطاعتها أن تخرج على خطوط الفطرة ، أو تنشئ فطرة جديدة ، أو تنشئ إنسانا لا فطرة له . . فكل هذه أوهام أنشأتها البهرة بالعلم ، والتغير الظاهرى الذى حدث فى صورة الحياة فى القرنين السابقين . ولكن التجارب ذاتها التى حدثت فى هذين الجيلين تثبت عمق الفطرة وثقل واقعها ، ورسوخها فى كيان الإنسان .

* * *

وخلاصة هذا الحديث كله أن علم النفس حين يرسم صورة ثابتة للكيان النفسى للإنسان ، فهو لا يخالف الحقيقة .

وهو كذلك لا يمنع احتمالات التطور ولا ينفيها من حسابه . .

إنما يجعل فى حسابه أن هذا التطور يشمل الصورة ولا يؤثر فى الجوهر . وعلم النفس ليس موكلا بالصورة إلا بمقدار ما تعبر عن الجوهر . فلا يهمه أن تكون الصورة التى يرسمها صورة الأمس أو اليوم أو الغد . . إنما يهمه فى كل حالة أن يرى إلى أى حد تعبر هذه الصورة عن الجوهر السوى ، وإلى أى حد تنحرف عن مسارها الصحيح .

ومرجعه فى ذلك هو الفطرة .. كما هى فى شمولها وانفساح جوانبها . الفطرة التى تستمد من حياة الأجيال كلها ، لا من جيل واحد معين ، والتى تدل الدلائل على وجودها وثقل واقعها ، والتى تثبت التجربة أن الخروج عليها لا يسعد البشرية ولا يريحها ، وإنما يشقيها ويعذبها . . ثم تثبت التجربة أخيرا أنها تغلب كل محاولة للقضاء عليها أو إساءة توجيهها ، وترتد — ولو بعد أجيال عدة ومحاولات قاسية — إلى أصلها الحقيقى ، فى ثورات سلمية أو دموية، ترفع فيها ما وقع عليها من ضغط ، وتنفض عنها ما وقع من انحراف !

التفسير الإنسانى للإنسان

يقول جوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » : إنه « بعد دارون لم يعد فى وسع الإنسان ألا يعتبر نفسه حيوانا » ! . . وتلك ملاحظة صادقة بالنسبة للداروينية ونظرتها للإنسان . فما لا شك فيه أن دارون قد رد الإنسان حيوانا ، ثم لم يرفعه من وهدة الحيوانية التى أنزلها إليها ، برغم أن إيحاء نظرة « التطور » ذاتها كان يقتضى إعطاء الإنسان مكانة متميزة ، بفضل خصائصه المتميزة التى حصل عليها فى أثناء التطور ، وذلك بفرض أن النظرية كلها صحيحة من الألف للياء ! فالحيوان ذو العينين ، المتطور — فرضاً — عن حيوان غير ذى عينين ، يصبح من لحظته الأولى كائنا متميزا ، لا ينطبق عليه ما كان ينطبق على سالفه ، ويؤخذ من جانب تميزه ، أكثر مما يؤخذ من جانب مشابهته لما سبقه من الأحياء !

ولكن الرغبة المجنونة فى مكايدة الكنيسة بتحقير الإنسان قد أنست الداروينيين أنفسهم ، فمضوا يقررون حيوانية الإنسان فى حماسة ، بل يعتزون بحيوانية الإنسان !

ومضت إيحاءات الداروينية تنفث سمومها على نطاق واسع ، فتتشربها مذاهب الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس . . والآداب والفنون . . وكل الإنتاج الفكرى الغربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ![1]

(١) انظر فصل « اليهود الثلاثة » فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » .

التفسير المادى للتاريخ . .

التفسير الجنسى للسلوك . .

التفسير الجثمانى للمشاعر . .

الاتجاهات الواقعية والطبيعية فى الآداب والفنون . . الخ . . الخ .

كلها انعكاسات للداروينية . . وكلها توكيد لحيوانية الإنسان !

إن « القيم العليا » و « الضوابط » هى المميز النهائى للإنسان عن الحيوان . . والقيم العليا والضوابط ، هى بالذات الأشياء التى تحقرها هذه المذاهب جميعا ، وتشكك فى قيمتها ، وتأبى — فى جميع الأحوال — أن تردها إلى الجانب الروحى فى الإنسان ، لأنها — بادئ ذى بدء — لا تؤمن بوجود جانب روحى فى الإنسان !

التفسير المادى للتاريخ يقول : إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام !

ويقول : إن « القيم » كلها مجرد انعكاس للوضع المادى ـ أو الاقتصادى ـ وليست شيئاً قائماً بذاته ، ولا رصيد لها فى « الفطرة » البشرية . . فالفطرة البشرية ذاتها شئ لا وجود له فى عرف هذا التفسير !

ويقول : إن هذه القيم ، فوق أنها ليست أمراً « إنسانيا » ذاتيا ، وإنما انعكاس للوضع المادى أو الطور الاقتصادى ، فإنها لا ثبات لها ، ولا مقياس . فهى « متطورة » مع التطور المادى ، وخاضعة له . فإذا اقتضى الوضع الاقتصادى فى وقت من الأوقات أن تكون المرأة عفيفة ومخلصة لزوجها ، فهذا انعكاس البيئة الزراعية ، وليس « قيمة » إنسانية . فإذا جاء طور اقتصادى آخر كالطور الصناعى يستلزم « تحرير » المرأة اقتصاديا ، فهو كذلك

« يحررها ! » خلقيا وجنسيا . . ويستتبع ذلك أن تكون العفة الجنسية قيدا سخيفا لا مبرر له . فقد كانت تستوجبه تبعية المرأة للرجل اقتصاديا (! !) فما دامت مستقلة، لا تعتمد عليه فى الرزق، فهى كذلك لا تتعفف من أجله .. وإنما تصنع بنفسها ما تشاء . وتصبح « القيمة » الخلقية الجديدة المنعكسة عن الوضع الاقتصادى هى الإباحية الجنسية ! !

ويقول فوق ذلك : إن هذا التطور المادى — أو الاقتصادى — الذى يصنع القيم، ويقلِّبها كيف يشاء، هو أمر خارج عن إرادة الإنسان ! فالإنسان لا يستشار فى وضع قيمه . لا يستشار فكره ولا روحه، ولا تستشار فطرته — اللاوجود لها ! — وإنما التطور يفرض نفسه — سبحانه ! — على الخلائق، فيصوغهم بجبروته، وينشئ لهم قيمهم، ثم يسلبها منهم ويبدلهم بها غيرها، على هواه هو، وبمقتضى قوانينه هو « الحتمية »، وليس للخلائق إلا أن تتلقى، وتعكس فى ذواتها جبروت هذا الجبار وحتميته، فتكيف نفسها بمقتضاها، راضية خانعة ذليلة مستعبدة . . لا حول لها ولا طول !

ثم . . ثم يقول إن الطعام والكساء والجنس هى غاية غايات الإنسان، ومحور حياته، ومحور تأثراته من لدن هذا الجبار المهيمن فى العلياء ! أى . . فى النهاية . . أنه حيوان !

وهو مع ذلك حيوان ذليـل . . أذل من الحيوان الحقيقى . . فالحيوان لا يُقهر على شئ ليس فى « طبيعته » ! ولا بد — فى التعامل معه — من إطاعة كيانه والسير معه على مزاجه هو دون تعديل . . أو بأبسط التعديلات . . إذا « قبل » الحيوان ! و « التطور » لا يُفرض عليه رغم أنفه . وإذا تطور بقهر « الطبيعة » فعلى آماد متطاولة تبلغ ملايين السنين ! أما الإنسان . .

بسبب مرونته الفذة التي أفرده بها الله . . فالتفسير المادى يسلبه كيانه الذاتى كله ، وإيجابيته الفاعلة كلها ، ويفرض عليه فى جيل واحد أن يتطور من حال إلى حال ، تطورا — كما يقول ماركس وإنجلز — خارجا عن إرادته ، لا يَدَ له فى وضعه ، ولا قدرة له على تعديله ، وليس له فيه أكثر من الطاعة العمياء !

* * *

والتفسير الجنسى للسلوك ، تفوح منه « الحيوانية » نفاذة الرائحة !

إن أحداً لم يلوث الإنسان بمقدار ما لوثه فرويد . . حين أصر على تفسير كل نشاطه بالتفسير الجنسى . . المغرق فى الحيوانية . .

أسطورته الكبرى التى جعلها المحور الرئيسى لكل نظرياته . . أسطورة العشق الجنسى للأم . . أخذها — باعترافه [فى كتاب Totem & Taboo] — من مثال أورده دارون من عالم البقر ! ففى عالم البقر تهيج الثيران فى موسم الإخصاب ، فتقتل أباها الشيخ ، ثم تقتتل فيما بينها على الأم ، كل يريد أن يفوز بها لنفسه ، فتموت الثيران الضعيفة أو تخور قواها مما تنزف من الدم . ويبقى الثور الأقوى ، يفوز وحده بالأم ، ويلبى معها داعى الجنس ! وفرويد . . فى بساطة . . بلا تحرج ولا تأثم . . ولا تأنيب ضمير . . ينقل هذه الظاهرة الحيوانية إلى عالم الإنسان . . وينسبها إلى البشرية الأولى ، كأنما قد شهد مولدها وعاين تحركاتها ، وسجل ما جرى لها من الأحداث ! . . ويغفل . . فى بساطة . . بلا تحرج ولا تأثم ولا تأنيب ضمير . . أن بعض الحيوانات ذاتها يأبى الولد منها أن يطأ أمه ولو دفع إلى ذلك دفعا وعوقب على الامتناع بالضرب الأليم !

ذلك . . لأنه « عالم » كبير ! !

ثم لا يكتفى بأن تكون تلك اللوثة المجنونة قد أصابت البشرية الأولى مرة . . بل يصر على تلويث الأجيال البشرية كلها ، فيزعم — على هدى الأسطورة ذاتها التى لا دليل عليها ! — أن كل ولد ذكر فى التاريخ يعشق أمه بعشق الجنس ، وكل بنت تعشق أباها بنفس العشق !

ثم لا يكتفى بهذا القدر . . فما تزال فى نفسه بقية من شهوة التلويث . . فيفسر السلوك كله . . كله . . بتلك اللوثة المجنونة . فإذا الطعام جنس والشراب جنس والنوم جنس والصحو جنس . والتبول والتبرز جنس . والرضاعة جنس . ومص الإبهام جنس . والنشاط الفكرى والنفسى كله نابع من هذه الفوهة المجنونة الثائرة كالبرهان !

أما « القيم » . . فهى الكبت لذلك الجنس ! هى الوقوف فى طريق « النمو الحر للطاقة الجنسية » ! هى المتسمة « بطابع القسوة حتى فى صورتها الطبيعية العادية » ! هى التى ينشأ عنها القلق والاضطراب والعقد النفسية والانحراف والشذوذ ! !

والإنسان بذلك كله حيوان . . ولكنه فى وضع أسوأ من الحيوان الحقيقى . . فهذا الأخير يصرف طاقته فى نشاط « سوى » بالقياس إليه . . فلا يصاب بالعقد ولا الاضطراب النفسى والعصبى . . ولا يشكو الاختلالات فى كيانه . أما الإنسان . . بما وهبه الله من قدرة على الرفعة ، ففرويد يسلبه كيانه الرفيع كله ، بل يقول صراحة وضمناً ، إن الإنسان كان يمكن أن يكون أفضل من ذلك وأحسن لو كان طاقة حيوانية « حرة » لا يقف فى سبيل نموها قيم ولا « كبت » . . فكأن الإنسان فى الواقع لا يطول حتى مقام الحيوان !

* * *

والتفسير الجثمانى للمشاعر تفسير « علمى » « معملى » (!) يريد أن يفسر الإنسان على قاعدته الجسمية وحدها ، على أساس أن « النفس » بمشاعرها وانفعالاتها وأفكارها مجرد انبثاق جسمى . . ينبع من الجسد ويحكمه الجسد .

فهذه الغدة تصنع الدافع الجنسى . فيقوى أو يضعف . ويكون الإنسان واضح الذكورة أو الأنوثة أو مختلط الصفات .

وتلك الغدة تصنع الأمومة . فتقوى أو تضعف . أو تموت .

وإفراز الغدة الكظرية [الأدرينالين] يصنع الشجاعة [أو الجبن !]

وإفراز الغدة الدرقية الزائد يصنع المزاج العصبى . والناقص يصنع البلادة.

وهكذا يُفسر الإنسان كله من داخل جسده .. ويفسر — فى الحقيقة — على أساس حيوانى ! فالحيوان هو الذى يحكمه جسده بإفرازاته ، وطبيعياته وكيماوياته وكهربياته ، فلا يحيد يمنة أو يسرة عن حكم هذه الإفرازات ، لأنه لا توجد فى كيانه قوة أخرى غيرها تحكم تصرفاته . . ! فهم إذن يريدون تفسير الإنسان فى نطاق « حيوانيته » وحدها ، ويحذفون حذفاً « علمياً ! » كل ما يخرج عن ذلك النطاق .

وإذ كانت القيم العليا من ضمير وعقيدة وإيمان بالحق والعدل والجمال والكمال . . لا تدخل المعمل ، أو لم يكتشف المعمل حتى اليوم موطنها الجثمانى أو الغدّى . . فلا بأس بإغفالها إغفالا كاملا ليظل الإنسان فى داخل النطاق المطلوب صبه فيه ، وهو نطاق الحيوان !

* * *

والمذاهب « الواقعية » فى الأدب والفنون توجه همها إلى رسم الإنسان

فى صورته الدنيا . . صورته الهابطة إلى عالم الضرورة والقيد . . بحجة أن هذا هو « الواقع » .

وتختلف هذه المذاهب ، ثم تلتقى فى نقطة الالتقاء ، التى تجمع ما بين المذاهب الاجتماعيــة والاقتصادية والفكرية المعاصرة ، وهى حيوانية الإنسان وماديته .

الأدب « الاجتماعى » يرسم الإنسان محكوماً بالحتميات الاقتصادية والاجتماعية ، يولد فيها ، ويصطرع معها فينهزم — فى كل مرة — أو يسايرها فتطبعه بطابعها الحتمى . . فإذا تشبث بالقيم العليا تحطم [وإلى هنا لا ضير !] ولـكنه يتحطم وهو موضع السخرية والزراية لأنه يتشبث بشىء غير ذى وجود !

ثم هو فى صراعه مع القوى الاجتماعية والاقتصادية التى تحطمه أو يسير معها ، يصارع بجسده . . أو بضروراته . . بالطعام والمسكن والجنس . هذا إذا أراد أن يتحطم تحطما شريفاً ! أما إذا أراد أن يكون موضع السخرية والهزء والزراية . . فليصارع بالعقيدة ، أو بالضمير ، أو بالحق والعدل الأزليين ، أو بحاسة الجمال أو حاسة الـكمال ! فعندئذ ينال ما ينال من تحطم واستخفاف !

والأدب الجنسى يصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس مسعور . . فلا شىء فى الحياة غير الجنس . الخطوط كلها تتفرع لتلتقى عنده ، والعقد كلها تنمو لتنعقد فيه . . ولا يتحقق كيان الإنسان إلا فى لحظة الجنس الفاجرة التى يلبى فيها جسدٌ صراخ جسد آخر . . وينتهيان فى لذة الجسد الحيوان .

والصراع فى الأدب الجنسى هو صراع الأجساد . . الفتاة تقول لنفسها : هل أمنح جسدى لهذا الولد أم لذاك ؟ أيهما أكثر استحقاقا لأن أحقق كيانى معه فى لحظة جنس طاغية ؟ والولد يقول لنفسه : إننى أريد هذا الجسد

المثير ، ولا بد أن أناله . لا بد أن « أجاهد » بشق الطرق للوصول إليه ، لأحقق وجودى فى لحظة معه . . لا بد أن أحطم جميع العقبات .

وفى عالم الأدب الجنسى تحدث « المأساة » الدرامية . . تحدث حين تقف « قيمة » من القيم فى وجه لحظة الجنس المسعورة ، التى يحقق فيها كيانهما الولد والبنت . . وعندئذ تكون « القيمة » هى الغلطانة . . والولد والبنت على صواب !

والمذهب « الطبيعى » لون من الأدب الواقعى أشد « واقعية » . . أى أشد حيوانية . .

إنه يرسم الإنسان — فيما يرى — على « طبيعته » . . أى سافلا دنيئاً مخاتلا مخادعا نهازاً للفرص منافقاً وصولياً لا يعبأ بالقيم ، بل يدوسها تحت قدميه فى تلذذ ، ويعلن — حين ينتهى من خنقها — لحظة الانتصار !

وفى هذا المذهب يقوم الصراع . . صراع بين سفالة وسفالة . . ومخاتلة ومخاتلة . . ويغلب الأقوى بطبيعة الحال . . أى الأشد سفالة وأشد حيوانية [وإلى هنا لا ضير] ولكنه يغلب عن جدارة تستحق الإعجاب !

وقد يحدث الصراع بين القيم وبين « طبيعة » الإنسان . . لتنهزم القيم بالطبع ، وتنتصر الطبيعة السافلة الدنيئة المنحطة . . طبيعة الحيوان . وتنهزم القيم بعد أن تفقد احترامها ، وتصبح من ناحية أضحوكة ، ومن ناحية أخرى معطلة للحياة .

وفى هذا المذهب كذلك تحدث المأساة . . حين يتحطم شخص سافل جداً لدرجة أنه كان ينبغى أن ينجح وينتصر ويتمكن . . يتحطم لأن الحظ خانه . . أو لأن منافقاً من الذين يتظاهرون بالإيمان بالقيم قد وقف له

فى الطريق . ولا بد أن يكون منافقاً لأنه لا يوجد مؤمنون حقيقيون بالقيم . . لأن القيم ذاتها كلها نفاق ! وفى تلك اللحظة يكون السافل الأكبر موضع العطف ، ويكون المنافق موضع السخط والسخرية . . لا لأنه منافق والنفاق عيب ، ولكن لأنه ليس صريحاً فى مواجهة الناس بما يشتمل عليه اشتمالا « طبيعياً » من السفالة والدناءات [1] !

وهكذا تلتقى هذه الآداب «الواقعية» كلها عند نقطة مركزية واحدة .. هى حيوانية الإنسان .

* * *

هذه المذاهب كلها فى الاجتماع وعلم النفس والأدب والفن . . تعجز جميعها عن تفسير « حقيقة » الإنسان . .

التفسير المادى للتاريخ ، حين يقول إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ، يغفل عن الحقيقة « الإنسانية » الأصيلة ، وهى أن الإنسان حين يبحث عن الطعام يبحث عنه « كإنسان » . . يبحث عنه بكيانه المجتمع كله ، الذى يشمل فيما يشمل الأهداف والقيم ، والإحساس بالجمال والرغبة فى الكمال . . فيظل « يحسّن » طعامه ، ويحسن وسائل الحصول عليه ، وفى الطريق ينشئ نظماً وحضارات وتشريعات وقوانين ومذاهب وأفكاراً ونظريات . . أى أنه يواجه الحياة كإنسان ، ويتأثر بها ويؤثر فيها كإنسان . وتلك هى الحقيقة المركزية الذى ينبغى التوكيد عليها ، لا حقيقة البحث عن الطعام ، التى لا يختص الإنسان بها ، بل يشترك فيها مع الحيوان .

---

(١) انظر بالتفصيل كتاب « منهج الفن الإسلامى » فصل « الواقعية فى التصور الإسلامى » .

وحين يقول إن تغير وسائل الإنتاج هو الذى يغيّر حياة الناس من طور إلى طور ، وهو الذى ينشئ لهم أفكارهم وعقائدهم ، يعجز عن أن يفسر لنا : كيف ظهر الإسلام ، وهو أضخم حركة ثورية فى التاريخ . . الحركة التى أخرجت الناس من ظلمات الجهل والخرافة والعبودية للقيم الأرضية والقوى الأرضية والناس ، إلى نور المعرفة ويقين الحق والتحرر من كل عبودية فى الأرض لقيمة أو قوة أو بشر ، بالعبودية لله وحده ، واستمداد القوة الإيجابية من هذه العبودية الصحيحة لله المعبود ، الحقيق وحده بالعبادة ، والسيطرة بهذه القوة على كل نظم الأرض الزائفة ، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو فكرية أو سياسية . . الحركة التى أبدعت فى عالم السياسة فكرة وحدة الدولة وكانت — فى غير الإسلام — إقطاعيات متفرقة يقوم الإقطاعى فيها بالسلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية . . واستعباد الناس . وفكرة مسئولية الحاكم أمام الأمة عن تنفيذ الدستور ، الدستور الإلهى الذى يمثل الحق والعدل ، وإلا سقط حقه فى السمع والطاعة وحق الناس أن يخرجوا عليه . وفكرة مسئولية الدولة عن كل فرد فيها بإيجاد عمل له أو إعالته من بيت المال . وأبدعت فى عالم الاجتماع فكرة التكافل فى المجتمع . كله مسئول عن بعض ، وكله متكافل فى حمل المغانم والمغارم سواء . وأبدعت فى عالم العلم المذهب التجريبي الذى تقوم عليه حضارة الغرب كله فى العصر الحديث . .

كيف قامت هذه الحركة ؟ وكيف امتدت فى الزمان والمكان ، وانتشرت إيحاءاتها فى كل البشرية ، حتى التى لم تعتنق الإسلام ، بل حتى تلك التى عادت الإسلام ؟

أين هو التغير الذى حدث فى أدوات الإنتاج أو أسلوب الإنتاج لتكون من نتيجته « الحتمية » بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بالدين الجديد ؟ !

وحين ينفى وجود « فطرة » للإنسان سابقة على النظم والقواعد، ثابتة على مدار الأجيال ، ملزِمة للتطور لا ملزَمة به ، يعجز عن تفسير ارتداد الشيوعية فى روسيا عن فكرة الأجر الموحد ، وإباحة التفاوت فى الأجور فى الطبقة الواحدة ، وارتدادها عن محاربة فطرة الاقتناء والتملك ، بإباحة إنفاق الأجر الإضافى فى اقتناء بعض الأشياء .

وحين ينفى أن « القيم » شىء له وزنه وحسابه ؛ شىء ينبغى توجيه الطاقة إليه لتنميته فى النفوس وتقويم مساره ، بصرف النظر عن النظام الاقتصادى وعدالته ؛ ويصر على أن القيم مجرد انعكاس للتطور الاقتصادى . . يعجز عن تفسير صرخة خروشوف الخطيرة فى عام ١٩٦٢ حين قال إن الشباب الروسى مائع متحلل غارق فى الشهوات ، ينبغى تقويمه وإلا فمستقبل روسيا مهدد بالضياع ! مع أن اقتصادياتها تسير حسب « المذهب » المرسوم !

وفى الجملة يعجز عن تفسير الإنسان . . لأنه يصر على تفسيره فى نطاق الحيوان !

* * *

والتفسير الجنسى للسلوك تفسير واضح البطلان .

ففضلا عن أساطير فرويد التى أقام عليها بلا دليل كل بناء البشرية . . فهذا التفسير يعجز عن بيان أى سبب لتقدم البشرية وتعقد أساليب حياتها واشتباكاتها المختلفة . فالعشق الجنسى واحد . وعقدة أوديب [وإليكترا] واحدة . والكبت واحد . ونتائج الكبت واحدة . فلماذا « تتطور » البشرية وتتغير ؟ لماذا تقوم النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية ؟ لماذا تنشأ الحضارات وتزدهر ثم تنهار ؟ لماذا تحدث كل حركات التاريخ ؟

والدين كله كبت .. فلماذا تتعدد أنواع الكبت ، أى لماذا تتعدد مذاهب الدين ؟ ! والفن كله كبت . . فلماذا يختلف فن عن فن وفنان عن فنان ؟ وليوناردو دافنشى الذى شرح هو فنه شرحا جنسياً كبتياً عقدياً . . لماذا لم يكن موسيقياً بدل أن يكون رساما ؟ بل . . لماذا لا يصبح كل من تصيبهم هذه العقد دافنشيين مثل دافنشى ؟ وما التفسير الجنسى للعبقرية ذاتها ، فضلا عن توجهها هذه الوجهة أو تلك ؟

وفى الجملة يعجز عن تفسير الإنسان . . لأنه يصر على تفسيره فى نطاق الحيوان ، وفى جانب واحد من جوانب الحيوان !

* * *

والتفسير الجثمانى للمشاعر يعجز عن تفسير الجانب « الإنسانى » كله من الإنسان .

الجنس ينبع من الغدد الجنسية . نعم ، ولاشك . وكذلك هو فى الحيوان . فلماذا يمارس الإنسان نشاطه الجنسى على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان ؟ لماذا ينشئ له عواطف ؟ وأهدافاً ؟ وقيما ؟ ونظما ؟ ومذاهب ؟

لماذا « يتزوج » الإنسان ويقيم للزواج مراسم ومواثيق ؟ وأين مكان ذلك فى غدة الجنس ؟

ولماذا ينشئ حول الجنس فنونا . . نظيفة أو ملوثة ، رفيعة أو هابطة ؟

ولماذا يختلف اثنان دفعتهما الجنسية واحدة ، فينطلق هذا كالبهيمة ، ويتعفف الآخر كالإنسان ؟ !

والأمومة تنبع من غدة الأمومة . .

وهى كذلك فى الحيوان . .

فلماذا تختلف أمومة الإنسان عن أمومة الحيوان ؟ لماذا تتعهد الأم الإنسانة بأكثر من « التربية الحسية » : الإرضاع والحضانة والحنو . . لماذا تربى طفلها على قيم معينة وأخلاق معينة ؟ ثم لماذا تختلف قيم هذه الأم وأخلاقها عن قيم الأم الأخرى ، بينما لا تختلف أم عن أم فى النوع الواحد من أنواع الحيوان ؟ ! وأين مكان هذا كله فى غدة الأمومة التى يراد بها تفسير الإنسان ؟

وإفراز الغدة الكظرية يصنع الشجاعة [أو الجبن] !

كذلك . . ؟ !

فما الذى يفسر دور التربية فى حياة الإنسان ، وتنشئتها قوما على الشجاعة وقوما على المذلة والهوان ؟ بل ما تفسير أن الشخص الواحد الشجاع بالفطرة يدرب على الجبن والمذلة فيذل ، والشخص الجبان يدرب على الشجاعة فيتشجع ؟ وما مكان هذا كله فى إفراز الغدة الكظرية أو فى كل جسم الإنسان ؟ !

وإفراز الغدة الدرقية يحدث المزاج العصبى أو البلادة الهادئة . .

نعم . .

فما بال هذا الشخص يستسلم لمزاجه العصبي والآخر يكظمه ويدرب نفسه على الهدوء ؟ وما مكان ذلك فى إفراز الغدة التى تصنع المزاج ؟

بل الطعام ذاته . . جوع المعدة هو الدافع لشهوة الطعام . . فأين مكان الشوكة والسكين والملعقة فى شهوة المعدة ، وأين مكان مفارش المائدة وأناقة الحفلات ؟ ! !

إن التفسير الجثمانى للمشاعر تفسير ساذج جداً على كل علميته ومعمليته ! وهو أكثر المذاهب العلمية عجزا عن تفسير الإنسان !

* * *

أما الأدب فله موضع آخر [1] . .

ولـكن يعنينا هنا فقط أن نبين كيف تخفق هذه المذاهب « الواقعية » فى تفسير الإنسان .

إنها كلها لا تبين — إذا كانت القيم العليا بهذا الهوان وهذه الضآلة وهذه التفاهة — لماذا تتشبث بها البشرية كل هذا التشبث ؟ ولمـاذا تصر — حتى وهى تخفق فى تحقيقها المرة بعد المرة — على أن تحـاول من جديد تحقيقها والارتفاع إليها ؟ ! بل . . لماذا « تنافق » بهذه القيم ؟ إن هذا النفاق — رغم سوئه — أدل على هذا التشبث ! فالبشرية قد لا تقدر على الارتفاع ، ومع ذلك تحب أن تظهر وكأنما ارتفعت بالفعـل ! ألا يدل ذلك على شىء ؟ ألا يدل على أن هذه الرغبة فى الارتفاع رغبة فطرية فى « الإنسان » ؟! رغبة يتميز بها على الحيوان ؟

ثم . . هل هى حقيقة أن البشرية لا تنجح أبدا فى تحقيق القيم العليا ؟ وهذه النماذج العالية من البشرية ، هل كلها خرافة ؟ من يقول إن هذا هو « الواقع » الذى ينبغى أن تدور حوله الفنون ؟ !

كلا ! إن « الواقعية » التى تصر على تفسير الإنسان فى نطاق الحيوان ، تعجز عن تفسير الواقع الإنسانى الأكبر ، ثم تغفل بالتدريج عالمه الأكبر ، لتحصره فى الطعام والشراب والجنس ، وعالم القيد والضرورة ، حتى ليصبح فى النهاية كائنا مشوها ممسوخا ، غريبا على عالم الإنسان ! [1]

* * *

---

(١) انظر كتاب « منهج الفن الإسلامى » .

هل معنى ذلك أن هذه المذاهب كلها خواء من الحقيقة ؟

كلا ! ففيها ولا شك جانب من الحق هو الذى جعلها « تعيش » رغم كل ما فيها من انحرافات واختلالات .

ولكنه حق جزئى لا يفسر كل الإنسان .

وعيبها الرئيسى أنها تصر كلها على تفسير الإنسان من جانب الحيوان .

ولا بد من تفسير « إنسانى » للإنسان !

فكل التفسيرات « الحيوانية » قد عجزت عن تفسيره . عجزت عن الإحاطة به كله ، ورسمه على حقيقته . وبدت كالخرق المهلهلة لا تستر كيانه !

لا بد من تفسير يشمل الإنسان كله ولا يغفل جانبا من جوانبه . ويفسره فى حالات رفعته وحالات هبوطه ، ولكن على قاعدته الإنسانية المتميزة ، التى يختلف فيها عن الحيوان ، حتى وهو يقضى ضرورة الحيوان .

وقد مر بنا من كلام جوليان هكسلى ما يثبت تفرد الإنسان حتى فى كيانه البيولوجى الذى خدع دارون من قبل ، وظنه مشابها تمام المشابهة لكيان الحيوان . وذلك فضلا عن الخصائص العقلية والمعنوية التى اختصه الله بها وحده ، وأدار حياته كلها عليها . وفضلا عما يقرره جوليان هكسلى من حقيقة جوهرية هامة هى تفرد الإنسان فى طريقة تطوره ذاتها ، فلا يتطور على القاعدة الحيوانية ، وإنما يتطور على قاعدة « الإنسان » !

وجوليان هكسلى — كما مر بنا — رجل ملحد لا يبدى أى توقير للمفاهيم الدينية أو المقدسات الروحية .

فإذا قال ذلك فما يدفعه إلا الحقائق العلمية وحدها ، دون انفعال سابق ، ولا وجدان دينى يؤثر فى تفكيره ، فيجعله يرفع الإنسان ويكرمه عن الارتكاس فى عالم الحيوان .

وهو — بعد — لا يؤمن بالإنسان كله ، فما زال مقيدا فى أغلال من رواسب الجيلين السابقين ، تأخذه العزة بالإثم أن يعترف بالله ، أو باستمداد الجانب الروحى فى الإنسان من قوة الله حين يهتدى إليه ، ويعرف طريقه إلى الوجود الأكبر السائر على ناموس الله .

ولسنا نستشهد به لنقف عنده أو نسير فى حدوده .. ولكننا نقول فقط إن الحق قد بدأ يتجلى حتى للمنكرين المتشبثين بالإنكار . .

* * *

والتفسير الإنسانى للإنسان لن يرسم له صورة مزورة مزوقة خداعة ! فالعلم الصحيح لا ينبغى أن يزوّر بالزيادة أو النقصان .

بل يرسم له صورة حقيقية دقيقة ، تشمل الأبيض والأسود . تشمل عوامل الرفعة وعوامل الهبوط .

لن يرسمه مَلَكاً منزها عن الأخطاء . فليست هذه حقيقة . ولا حيوانا محكوما بضروراته . فليست هذه حقيقة كذلك .

إنما الحقيقة شىء بين هذا وذاك .

الحقيقة تشمل جانبا من التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الجنسى للسلوك ، والتفسير الجثمانى للمشاعر ، والواقعية التى ترسمها الفنون والآداب المعاصرة . . ثم تضيف إلى ذلك كله جوانب أخرى ، حقيقية الوجود حقيقية التأثير فى الحياة .

الدوافع الفطرية من طعام وشراب وملبس ومسكن ، وجنس وقتال وتملك وبروز . . كلها حقيقة . فلتأخذ مكانها فى الصورة بمساحتها الحقيقية ، لا يُنقص منها ولا يزاد .

والقدرة الفطرية على الضبط حقيقة كذلك . فلتأخذ مكانها فى الصورة بمساحتها الحقيقية ، لا ينقص منها ولا يزاد .

والمساحة الحقيقية للداوفع الفطرية أنها قوية ملحة . وأنها غير قابلة للقمع من منبتها ، ولا خير للإنسان فى ذلك القمع . وأنها صعبة الضبط ، مالم تُعَوَّد ذلك من طفولتها . وأنها — مع ضبطها وتعويدها على الضبط — تفلت بين الحين والحين ، فيقع الخطأ أو الخطيئة .. ثم يثوب الإنسان .

والمساحة الحقيقية للضوابط الفطرية أنها — مع كونها فطرية — تحتاج إلى معونة خارجية لتنميتها وتقويتها ، كالقدرة على المشى والقدرة على الكلام . وأنها مالم تتلق هذه المعونة الخارجية — بالتربية — تنشأ ضعيفة مهزولة ممسوخة ، لا تقوى على ضبط الدوافع الفطرية القوية العنيفة الملحة . وأنها — عند تنميتها وتقويتها — تقوم بدور حاسم فى حياة البشرية . تقوم برفع مستوى الطاقة المحركة كلها من أساسها ، وحجز جانب منها لتحويله إلى إنتاج مادى وفكرى وروحى ، وإن كانت تعجز أحيانا عن الضبط ، فيقع الخطأ أو الخطيئة . . ثم يثوب الإنسان .

تلك هى الحقيقة الواقعية للإنسان السوىّ .

ثم تقع الانحرافات . . انحرافات من كل لون وفى جميع الاتجاهات . .

ولكنها انحرافات .. فلا يأتى يوم تصبح فيه هى الحقيقة البشرية ، ويصبح السواء هو الشذوذ !

وكما تصيب الأمراض الجسم وتشفى ، فكذلك انحرافات النفس تشفى بالعلاج . وتلك حقيقة إنسانية هامة ، ترفع عنها لعنة الانحراف الدائم والشذوذ المقيم !

ونعود إلى حقائق النفس البشرية :

دفعة الجسم القاهرة حقيقة . فيجب أن تأخذ مكانها الحقيقى فى الصورة .

وإشراقة الروح المرفرفة حقيقة كذلك . فيجب أن تأخذ مكانها الحقيقى فى الصورة .

والمكان الحقيقى لدفعة الجسم أنها هى التى تمد الإنسان بالطاقة الحية التى تعمل فى واقع الأرض ، وتمده بالرغبات التى تحرك مشاعره فى شتى الاتجاهات .

والمكان الحقيقى لإشراقة الروح أنها هى التى تمد الإنسان — فطريا — بعقائده وقيمه العليا ، التى توجّه الدوافع فى أثناء اندفاعها ، فتمنعها — أو تحاول أن تمنعها — من الشطط والإسراف .

وهذه المحاولة الدائمة هى رسالة البشرية . وهى رسالة حقيقية يشهد بها كل التقدم الذى أحرزته البشرية فى نظمها وعقائدها وعلاقاتها . ولا ينقص منها شيئا أن ترتد البشرية عنها أحيانا وتنتكس . فذلك جانب من الاحتمالات الطبيعية للبشرية . ولكنه ليس الاحتمال الدائم ولا الاحتمال الوحيد .

ثم . . حقيقة أخرى فى كيان الإنسان : هى تعدد جوانبه . ومن هذا التعدد تنشأ حقيقتان :

إحدى الحقيقتين أنه لا يحدث فى أية لحظة من اللحظات أن ينحصر كيان الإنسان فى جانب واحد : الجانب الجسدى أو الروحى أو الفكرى . .

أو الاقتصادى أو المـادى . . وإنما هو دائما شامل لأكثر من جانب . شامل لـكيانه كله فى الحقيقة .

والحقيقة الثانية أن الإنسان لا يمارس أى نشاط من نشاطاته بجانب واحد من جوانبه ولو كان نشاطا متخصصا إلى أقصى حد . . فلا يقوم بنشاطه الجنسى بدافع الجنس وحده ، وإنما بمجموع كيانه ، ولا يقوم بنشاطه الاقتصادى أو الاجتماعى أو الفـكرى أو السياسى بمعزل عن بقية الـكيان . ومن ثم تمتزج منه الروح بالجسد ، والقيم العليا بالضرورة القاهرة . . ويخرج من ذلك كيان ممتزج هو الإنسان . .

والتاريخ الإنسانى هو مصداق هذه الحقائق . .

هو مصداق عمل الدوافع والضوابط معاً فى حياة الإنسان . ومصداق عمل الجسم والروح معاً . ومصداق تعدد الجوانب وشمول الـكيان . .

ثم مصداق الانحرافات الدائمة، والاستعداد الدائم للشفاء من الانحرافات . .

وهذا الجيل من البشرية من أشد أجيالها انحرافا، وأشدها عتواً فى الانحراف . . ولـكنه ليس الوضع الدائم للبشرية ، ولا وضعها الأخير . . إلا إذا كانت إرادة الخالق سبحانه قد اقتضت تدمير البشرية والقضاء عليها .

وهذا الجيل من البشرية ، متأثراً بواقعه الضيق ، قد سجل انحرافاته على أنها هى الحقيقة البشرية الدائمة فى جميـع الأجيـال ، وسمّى ما يخالفها شذوذا يخالف الواقع .

ولـكن البشرية — ما لم يرد الله لها الدمار النهائى — ستفيق من غشيتها ، وتعود إلى فطرتها . تعود إلى « الواقع » الأكبر الذى يمثل حقيقة الإنسان .

الواقع الذى يشمل الدوافع والضوابط . يشمل قبضة الطين ونفخة الروح . يشمل الجوانب المتعددة التى تعمل معا فى كل وقت وفى كل اتجاه .

عندئذ ستنكر البشرية ما وصمتها به الداروينية القديمة من حيوانية هابطة . وستنكر ما تسربت إليه إيحاءات الداروينية المسمومة من مذاهب فكرية واجتماعية واقتصادية ونفسية وأدبية وفنية . .

ستنكر التفسير الحيوانى للإنسان . .

وستسعى إلى إيجاد تفسير شامل للإنسان كله ، فى جميع جوانبه وجميع مجالاته . تفسير يسجل ساعة الرفعة وساعة الهبوط ، ولكنه يسجلها على قاعدتها الإنسانية الأصيلة المتميزة . . حتى فى حالة الانحراف !

ستسعى إلى إيجاد « التفسير الإنسانى للإنسان » .

وهذا الكتاب كله ، بجميع فصوله وتفصيلاته ، هو محاولة لتقديم التفسير الإنسانى للإنسان .



بين الواقع والمثال

هل نرسم الإنسان كما هو فى الواقع ، أم نرسمه كما ينبغى أن يكون ؟

وما قيمة الصورة المثالية التى لا يمكن — فى عالم الواقع — أن تكون ؟

أما فى هذا الكتاب فقد رسمنا الصورتين معاً . صورة الواقع وصورة المثال .

رسمنا الصورة الكاملة للكيان الإنسانى ونشاطاته . الصورة السوية الموزونة المتعادلة بلا اختلال . ورسمنا إلى جانبها صوراً شتى للانحراف والشذوذ الذى يصيب ذلك الكيان .

وقلنا إن الصورة الكاملة لا توجد فى واقع الحياة ! فلماذا إذن نرسمها ، ونتعب أنفسنا فى تخيلها وتملّيها ؟ !

لن نقول إن النزوع إلى الكمال فطرة بشرية ، وإن هذه الصورة المثالية تحقيق لذلك النزوع !

إنما نقول إن هذه الصورة المثالية ضرورة !

إن الجسم الكامل المتعادل المتزن بلا اختلال لا وجود له فى عالم الواقع . ومع ذلك فنحن فى الفن أو التشريح أو الطب نرسم الصورة المثالية الكاملة لجسم الإنسان ونشاطه الجسدى . فلماذا نرسمها ؟

قد يكون الفن نزوعا « خيالياً » . . أما التشريح والطب فهما « علمان »

« واقعيان» لا يتهمان بالخيال . فلا بد إذن أن تكون هناك ضرورة لما يرسمانه من صور الكمال .

والضرورة واضحة . .

إن الأصل في الكيان — الجسدى أو النفسى — هو الصحة . والمرض هو الطارئ ، وهو الانحراف .

وكون الإنسان — بكيانه الجسدى والنفسى — عرضة دائماً للإصابة بالأمراض ، لا ينفى أن الأصل هو الصحة . ولا ينفى وجوب المحاولة الدائمة للرجوع إلى حالة الصحة . . بقدر الإمكان .

ومن ثم ضرورة الصورة الكاملة !

فلكى نعود إلى الصحة — أو نحاول العودة — يجب أن نعرف ماهى الصورة الصحيحة التى ينبغى أن نعود إليها ، ونعرف درجة الانحراف . . لنشخص المرض ونرسم العلاج .

فى الطب نرسم صورة كاملة للقلب المثالى ، والكبد المثالية والمعدة المثالية . . إلخ . ونعرف فى الوقت ذاته أنها صورة لا توجد فى واقع الأجسام .

وفى علم النفس نرسم صورة كاملة للدوافع السوية والضوابط السوية ، والتوازن الكامل والاعتدال . ونعرف فى الوقت ذاته أنها صورة لا توجد فى واقع النفوس . .

ونرسمها لأننا فى حاجة إليها . .

فلكى نعالج القلب المريض ينبغى أن نعرف فيم اختل عن وظيفته المثالية ، وبأى قدر كان الاختلال .

ولكى نعالج النفس المريضة ينبغى كذلك أن نعرف فيم اختلت عن وظيفتها المثالية ، وبأى قدر كان الاختلال .

ولكن هناك حقيقة ينبغى أن نلتفت إليها . .

من أين جئنا بالصورة المثالية ؟ وكيف قررنا أن « هذا » هو المثال ؟

ذلك سؤال له أهميته . . لنضمن لأنفسنا أننا لا نزوّر من عندنا مثالا زائفاً لا يتحقق أبداً فى جزئية من جزئياته ، وعندئذ يفقد هذا المثال قيمته ولا يصلح مرجعاً تقاس إليه الأشياء .

فأما فى عالم الجسم فقد اتُّخِذَ المثال من جزئيات متعددة ، متفرقة فى أجسام كثيرة ، كل جزئية منها قد بلغت الكمال . .

حقيقة أنها لا تجتمع كلها ، بمثاليتها هذه ، فى جسم واحد . ولكن يحدث فى عالم الواقع أن يوجد قلب مثالى فى شخص ، وكبد مثالية فى شخص ، ومعدة مثالية فى شخص . . ومن هذه الجزئيات المثالية المتفرقة عرفنا الوظيفة المثالية لكل عضو ، وجمعنا الصورة المثالية للجسم كله لتكون مرجعاً لنا فى علم الصحة وعلم الأمراض .

وفى عالم النفس كذلك . .

تتفرق المثاليات فى نفوس شتى .. ولا تجتمع فى نفس واحدة كل المثاليات .

ولكن توجد مع ذلك نفس بشرية كاملة هى مرجع القياس . . هى نفس محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم . أ كمل نفس خلقها الله ، على النموذج الربانى الذى ارتضاه الله للإنسان ، وطلب من الناس تحقيقه ، كل وما يستطيع . .

وكما أننا لا نتطلب من أى جسم أن يكون مثالياً خالصاً ، ولكننا نتطلب

منه أن يحاول ذلك دائماً بقدر ما يستطيع ، فكذلك لا نتطلب من أى نفس أن تكون منطبقة على النموذج الأعلى الذى رسمه الله للناس ، ولكننا نتطلب منها أن تحاول ذلك دائماً بقدر ما تستطيع .

وكما أننا نعتبر بعض الانحرافات البسيطة عن الحالة المثالية للجسم انحرافات طبيعية لا تحتاج إلى علاج ، فكذلك نعتبر بعض الانحرافات النفسية البسيطة أمراً سوياً لا يحتاج إلى علاج .

ولكننا نحتاج إلى العلاج حتما حين يصل المرض إلى تعطيل دورة الحياة ، سواء فى عالم الأجسام أو فى عالم النفوس .

* * *

مهمة الصورة المثالية إذن أنها تساعدنا فى العلاج . . وهى عملية لا غنى للإنسان عنها على مدار النفوس ومدار الأجيال .

ولكنها تؤدى مهمة أخرى فى الحياة السوية ، قبل المرض والعلاج !
مهمة فى التربية . .

مهمتنا الأولى فى تربية الجسم ليست علاجه ، وإنما وقايته من الأمراض ! وقد تكون الوقاية الكاملة مستحيلة . ولكننا مع ذلك نحاولها دائماً ، ويجب أن نحاولها ، لنقلل فرصة المرض إلى أقصى حد ممكن ، ونصل إلى أقرب نقطة نستطيعها من الكيان السليم .

ومهمتنا الأولى فى تربية النفس هى وقايتها من الانحراف . وستكون الوقاية الكاملة مستحيلة . ومع ذلك ينبغى أن نحاولها ، لنقلل فرصة المرض إلى أقصى حد ممكن ، ونصل إلى أقرب نقطة مستطاعة من الكيان السليم .

ولكى نصل إلى الوقاية الجسمية — على استحالة كمالها — نرسم دستوراً للنشاط الجسمى الكامل، مستمداً من الصورة المثالية وقائماً على أساسها، ونحاول تنفيذ هذا الدستور فى عالم الواقع بقدر ما نستطيع.

ولكى نصل إلى الوقاية النفسية — على استحالة كمالها — نرسم دستوراً للنشاط النفسى الكامل، مستمداً من الصورة المثالية وقائما على أساسها، ونحاول تنفيذ هذا الدستور فى عالم الواقع بقدر مانستطيع.

وحين لا نرسم هذا الدستور للنشاط الجسمى أو النفسى، يضل نشاطنا عن أصوله الواجبة، ولا نعرف المقياس الصحيح للأشياء..

وإلى هنا كنا نتحدث عن « الضرورة ».. ضرورة الصورة المثالية للحياة البشرية..

ولكن الحياة لا تقف عند نقطة الضرورة.. وتحاول بفطرتها أن تصل إلى الجمال والكمال.. إلى مجالات زائدة على الضرورة.. مترفعة على الضرورة..

ومن أجل هذه الفطرة النزاعة إلى الجمال والكمال — وإن كانت نزاعة كذلك للارتكاس والهبوط! — من أجلها نرسم الصورة المثالية الكاملة، ليحاول من يحاول أن يصل إلى الكمال..

وفى ذلك كسب مؤكد للبشرية..

فهى حين ترفع وجهها إلى أعلى، وتحاول الصعود، ستصعد — بمجموعها — عن الدرك الهابط المرتكس. وتصبح الحالات الشاذة المرتكسة أقل فى العدد وأقل فى درجة الهبوط..

ثم.. تتوزع البشرية على القمة الصاعدة.. بعضها ينتهى جهده عند

أول الطريق . وبعضها يصعد درجات ثم يتعب . وبعضها يمضي قدما إلى أقصى حد مستطاع . .

ولن يثبت الناس — حتى الصاعدون منهم — عند أقصى نقطة يصلون إليها . ففى طبيعة البشرية أن تهبط فى لحظة الضعف عن المستوى الذى تقدر على الصعود إليه . ولكن فى طبيعتها كذلك أن تعود إلى الصعود .

والصورة المثالية هى المشجع لهم على الصعود أولا ، ثم على العودة إلى الصعود بعد كل انتكاس . .

ومن هنا يلتقى الواقع بالمثال فى حقيقة الحياة كما يلتقيان فى حقيقة الفطرة . . ويكمل كل منهما الآخر فى حلقة محكمة الاتصال .

والإسلام دين الفطرة . . لا يفصل من ثم بين الواقع والمثال . . بل يمزجهما مزجا محكما فى دستوره الرفيع .

ومن أجل ذلك رسمنا فى هذا الكتاب الذى يتبع دستور الفطرة فى كل تفصيلاته ، صورة الواقع وصورة المثال ، ممتزجتين متداخلتين ، كما ينبغى أن يكون الأمر فى التفسير الإنسانى للإنسان .



فهرس



كتب للمؤلف

الإنسان بين المـادية والإسلام	(الطبعة الثالثة)	دار إحياء الـكتب العربية
شبهات حول الإسلام	(« الخامسة)	مكتبة وهبة
فى النفس والمجتمع	(« الثانية)	« «
قبسات من الرسول	(« «)	« «
معركة التقاليد	(« «)	« «
منهج التربية الإسلامية	(« «)	دار القلم
هل نحن مسلمون ؟	(« «)	مكتبة وهبة
منهج الفن الإسلامى		دار القلم
التطور والثبات فى حياة البشرية		مكتبة وهبة

كتب تاليـــة

جاهلية القرن العشرين .

المستشرقون والإسلام .



مطابع دار القلم بالقاهرة

هـــذا الكتـــاب

● أول كتاب يقدم لنا نظرية شاملة عن النفس الانسانية مستمدة من تصور الاسلام المتناسق للنفس الانسانية ودور الانسان فى الحياة . . هذا التصور الذى تحدد معالمه الآيات الكثيرة التى جاءت فى القرآن تتحدث عن « النفس » وعن « الانسان »

● وقد قام المؤلف بدراسة « علمية » لهذه الآيات .. خرج منها بنظرية الاسلام المتكاملة عن النفس الانسانية .. وهى أشمل وأسلم نظرية عرفها الانسان .. وبجانبها .. تبدو النظريات الغربية مجموعة من الشذوذ والانحراف !

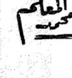
● وقد كان الاستاذ محمد قطب ــ كالعهد به ــ باحثا أمينا ، ومناقشا مقنعا ، و « مجتهدا » متمكنا .. وهو يعرض هذه النظرية الاسلامية عن النفس الانسانية :

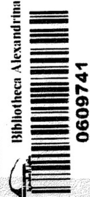
* كيف امتزجت قبضة الطين ونفخة الروح لتكونا «الانسان» وكيف أصبح ذا طبيعة مزدوجة وكيان موحد ، وكيف تعمل الخطوط المتقابلة فى نفسه : الخوف والرجاء . الحب والكره .. الواقع والخيال .. الايمان بالمحسوس والايمان بالغيب .. السلبية والايجابية .. الخ ، وكيف تعمل فى نفسه الدوافع والضوابط فى ذات الوقت لتكون الانتاج المادى والروحى والحضارى والاجتماعى والفكرى الذى يتفرد به الانسان.

* ويفرد فصلا خاصا ليشرح طريقة الفطرة فى الاهتداء الى الله .

* ثم يشرح ما يصيب النفس من انحراف وشذوذ وما يصدر عنها من خير وشر .. ويلم بالثابت والمتطور فى كيان الانسان .

* ويصل فى النهاية الى التفسير الشامل للانسان !






Bibliotheca Alexandrina
0609741

الثمن ٥٠ ص

مطابع دار القلم بالقاهرة